شيترا بانرجي ديفاكاروني

Chitra Banerjee Divakaruni

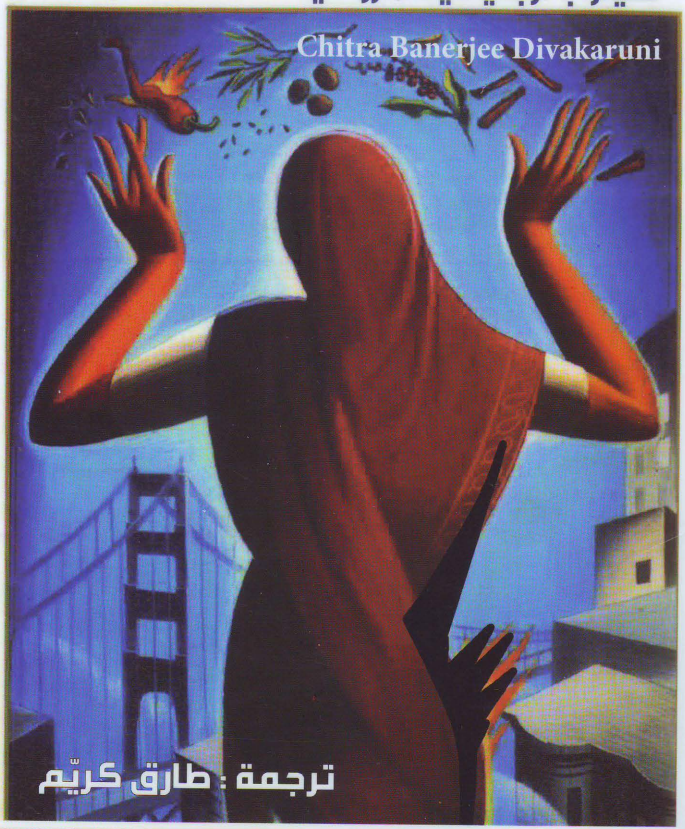

ترجمة : طارق كريّم

رواية
عاشقة التوابل

دار ظما للطباعة والنشر والتوزيع

محفوظة جميع الحقوق

الكتاب: عاشقة التوابل

الطبعة الأولى
2018

العنوان الأصلي: the Mistress of Spices

الموضوع: رواية

المؤلفة: شيترا بانرجي ديفاكاروني.

Chitra Banerjee Divakaruni

ترجمة: طارق كريّم

الإخراج الفني: دار ظمأ

إخراج الغلاف : دار ظمأ

عدد الصفحات: 294 صفحة

عدد النسخ: 1000 نسخة

978-9933-607-01-2 : ISBN

دار ظمأ للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ السويداء ـ الشارع المحوري
هاتف : ٢٥٢٣٠٢ ـ ١٦ ـ ٠٠٩٦٣
هاتف : ٢٣٠١٦١ ـ ١٦ ـ ٠٠٩٦٣
فاكس: ٢٢٢٠٩٨ ـ ١٦ ـ ٠٠٩٦٣
fatenbookshop@yahoo.com

عاشقة التوابل

the Mistress of Spices

Chitra Banerjee Divakaruni

شيترا بانيرجي ديفاكاروني

ترجمة
طارق كريّم

لمحة عن الكاتبة

ولـدت الكاتبـة «شـيترا بانرجـي ديفـاكاروني» في الهنـد. تقيـم حاليـاً في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. حـازت عـلى جائـزة في الشـعر وسـاهمت في تدريـس الكتابـة الإبداعيـة في كليـة «فـوت هيـل» في «لـوس ألتـوس هيلـز، كاليفورنيـا» كـما ترأسـت مؤسسـة ((MAITRI خـطّ المسـاعدة المخصصـة للنسـاء في جنـوب آسـيا أيضـاً. وفي عـام 1995 حـازت مجموعتهـا القصصيـة (زواج مُدبّر) على جوائز عديدة، منها:

- جائزة Bay Area Book Reviewers Association للأدب القضصي.
- جائزة PEN Oakland. وجائزة الكتاب الأمريكي.

نُشِرت مجموعتها الشعرية الرابعة «مغادرة مدينة يوبا» عام 1997.

تحذير للقرّاء

«التوابـل الموصوفـة في هـذا الكتـاب، لا ينبغـي تداولهـا إلا بـإشراف سـيّدة مؤهّلة».

تيلو

أنا عاشقة للتوابل ...

بإمكاني التعامل مع المعادن والفلزّات والتربة والرمال والحجر،كذلك مع الأحجار الكريمة ببريقها النقيّ البارد والسوائل بألوانها الحارقة للعيون لدرجة تجعلك عاجزاً عن الرؤية. تعلّمتُ كلّ هذه المهارات على الجزيرة.

لكنّ التوابل هي حُبّي الحقيقيّ...

فأنا أعرف أصولها وألوانها المتعدّدة وروائحها. أستطيع أيضاً مناداتها بأسمائها الأصلية التي حملَتها معها عندما تصدّعت الأرض وانبثقت منها واهبةً نفسها للسماء. أشعر بدفئها يجري في دمي من مسحوق المانجو إلى الزعفران جميعها ترضخ لأوامري وبهمسةٍ واحدة أمتلك خصائصها المخفيّة وقواها السحرية.

أجل، جميعها تحمل السِّحر حتى التوابل الأمريكية التي تُضيفونها يومياً وبعفوية إلى وعاء الطبخ.

ألديكم شكّ فيما أقوله؟ آآآاه... إذاً ربما نسيتم الأسرار القديمة التي كانت تعرفها جدّاتنا مثل (حبوب الفانيليا المنقوعة طويلاً في حليب الماعز ليُفرَك بها عظم الرسغ للوقاية من العين الشريرة). و(مقدار من الفلفل عند أسفل السرير، مرشوش على شكل هلال، لطرد الكوابيس أيضاً).

لكن التوابل الفعّالة حقاً، أتت من بلادي، مسقط رأسي، بلاد الشِّعر

الحماسيّ وريش **الزبرجد** (طائر أسطوري) والسماء الحمراء الفاقعة. هذه هي التوابل التي أعمل بها.

إن وقفتم وسط هذه الغرفة وتلفتتم فيها ببطء سترَون كلَّ أنواع التوابل الهندية حتى النادرة منها والتي قمتُ بجمعها وصفّها هنا فوق رفوف متجري.

لا أظنّ أنني أبالغ حين أقول: إنّ هذا المكان لا يشبه أيَّ مكانٍ آخرَ في هذا العالم. مضى على افتتاح المتجر سنةٌ واحدة فقط. لكن يعتقد الكثيرين أنه موجود منذ زمنٍ طويل وأنا أعرف السبب.

انعطف نحو الزاوية الملتوية إلى **اسبيرانزا** حيث تقف حافلات **أوكلاند** عند إشارة المرور وستراه أمامك مباشرة. إنه هناك بين الباب الضيِّق لفندق **روزا ويكلي** الذي لا يزال متفحّماً بسبب حريق العام الماضي ومركز **ليي بينغ** لصيانة المكانس الكهربائية وماكينات الخياطة حيث الزجاج المتصدّع والملطّخ بالشحوم.

اسم المتجر **بازار التوابل** مكتوبٌ بأحرف فنية متلاشية من تراكم الطِّين البنّي الجافّ. الجدران في الداخل مليئة بخيوط العنكبوت والصور الباهتة للآلهة بنظراتها الحزينة، والصناديق المعدنية التي فقدت بريقها لم تعد تلمع كالسابق تحوي داخلها جبالاً من الأرزّ البسمتي والمطحون، **والماسور دال** (العدس الأحمر الحارّ) وصفوفاً كثيرة من أشرطة الفيديو التي تعود إلى أيام الأبيض والأسود وقطع من النسيج المصبوغ بألوان باهتة(الأصفر لمناسبات العام الجديد... الأخضر للحصاد... الأحمر لجلب الحظ للعروس).

أما في زاوية المحلّ حيث راكمتُ المساحيق ليستنشقها جميع الزبائن، فهنا تكمن الرغبات والتي تُعدّ الأقدم في متجري.

بالرغم من وجودنا في هذه البلاد الجديدة والتي تدعى **أمريكا** والتي يفتخر أهلها بحداثتها وتطوّرها السريع إلا أننا غالباً ما نتوق لرغبات كهذه.

ويُعدّ وجودي هنا أيضاً سبباً آخر فأنا أبدو كأنني قد قضيتُ عمري في إدارة هذا المتجر. هذا ما يظنّه الزبائن حين يدخلون وتلامس أوراق المانجو البلاستيكية الخضراء رؤوسهم فقد علّقتُها فوق الباب لتجلب الحظّ. فهُم يرَون امرأة عجوزاً بظهرٍ محني وبشرةٍ مجعّدة بلون الرمل القديم تقف وراء صندوق الحساب بجانبه زبديّة من **الميثاي** ـ حلوى هندية من أيام الطفولة كانت تصنعها الأمّهات في المطابخ ـ (حلوى بارفيه بلون الزمرّد الأخضر) وكرات **راسجولا** المغليّة بالحليب والسكّر، بيضاء كالفجر مصنوعة من دقيق العدس، وحلوى **اللدو** التي تبدو ككرات (الناغيت الذهبية).

يبدو أنهم على حقّ عندما ظنّوا بأنني قضيت كل عمري هنا فأنا أدرك تماماً شوقهم لكلّ العادات التي خلّفوها وراءهم حينما قرّروا المجيء إلى **أمريكا** والاحساس بالعار الذي خلفّه ذلك الشوق كالمذاق المُرّ الطفيف الذي يُخلّفه نبات **الأملج** حين يمضغ لإنعاش النَّفَس.

إنهم لا يدركون طبعاً بأنني لستُ عجوزاً وأن هذا الجسد الذي أسكن فيه ليس لي فقد سكنتهُ بعد أن أدّيتُ طقوساً مقدّسة حول نيران **الشمباتي** (طائر أسطوري) كنت قد أخذتُ عهداً على نفسي حينها بأن أصبح عاشقة للتوابل فأنا أتفاعل مع تجاعيد جسدي وحدبته كتفاعل المياه مع التموّجات التي تُشكّلها. كما أنهم لا يلاحظون العينين اللامعتين المتقدتين تحت جفوني المتهدلة. لا أحتاج إلى مرآة (فالمرايا مُحرّمة على عاشقات التوابل) لأنها قد تخبرنا بما حرّمتهُ علينا النيران المظلمة.

على الأقل، احتفظتُ بعينيّ فقط.

أوه لا...احتفظتُ باسمي أيضاً، **تيلو** وهو اختصار **تيلو تاما** نسبة إلى بذور **السمسم** (تابل التغذية) اللامعة تحت ضوء الشمس لكن زبائني لا يعرفون ذلك كما أنهم لا يعلمون كم عدد الأسماء التي كنتُ أحملها فيما مضى.

أشعر بالحزن أحياناً كمن تقف أمام بحيرة جليدٍ مظلمة حين أدرك بأنه ما من أحد في أرجاء هذه البلاد الواسعة يعلم من أكون ثم أقنع نفسي «لا يهمّ، هذا أفضل».

كانت تخبرنا الأمّ الكبرى والتي أشرفت على تدريبنا عندما كنّا على الجزيرة: «تذكّرن، أنه لا قيمة لكنّ، ما يهم هو المتجر والتوابل فقط»

فالمتجر للذين لا يعلمون شيئاً عن غرفته الداخلية والسرية برفوفه المليئة ببعض التوابل المقدّسة والنادرة، ليس سوى رحلة قصيرة أو انغماس في الملذّات وهذا ما يُشكّل خطورة على أصحاب البشرة السمراء القادمين من أماكن أخرى والذين يتعجب سكان **أمريكا** الأصليين من سبب قدومهم.

آآآه، ما الذي يجعلهم يخاطرون هكذا؟! إنهم يحبّونني لأنني أتفهّم مشاكلهم كما أنهم يكرهونني قليلاً بسبب ذلك أيضاً.

كنت أبادرهم بالأسئلة كالزبونة البدينة التي ترتدي دائماً سروالاً من البوليستر وسترة قصيرة من متجر **سيفوي** الأمريكي، شعرها ملفوف ومُثبت كالكعكة، كنت أبدأ بسؤالها حين تكون منحنية فوق كومة صغيرة من الفلفل الأخضر الحارّ وهي مستغرقة في تفحّص البهار: «هل حصل زوجكِ على وظيفة أخرى منذ الإقالة؟».

وتلك الشابة التي كانت تدخل المتجر مسرعة تحمل بين ذراعيها طفلة رضيعة لتحصل على قليلٍ من بهار **دهانيا جيرا** (مزيج من بذور الكمّون ومسحوق الكزبرة) أسألها: «أما زلتِ تعانين من النزيف؟ هل تحتاجين شيئاً للشفاء منه؟».

كنت، كلّما التقيت بهم، أشعر بشرارة كهربائية تجتاح جسد كلٍّ منهم، وأبدأ بالضحك عندما أعي المسافة التي تفصل بيننا، لطالما تخيّلتُ بأنني ألمس وجوههم البيضوية المذهولة وأتحسّس عظامها الناتئة بأصابعي. لكن، لا يمكنني ذلك طبعاً فلا يُسمَح لعاشقات التوابل بلمس الزبائن؛ فمن شأن ذلك زعزعة المحور الحسّاس للعطاء والتلقّي الذي ينظم مسار حياتنا.

عندما أحتفظ بنظراتهم...لوهلةٍ يصبح الهواء من حولنا ساكناً وثقيلاً ثم يتساقط القليل من الفلفل الحارّ النضر على الأرض ويتناثر كالمطر فتبدأ الطفلة الرضيعة التي تتلوّى بين يدَي أمّها القويتين بالنشيج.

لا يفارق الخوف والرهبة نظراتهم القلقة، كانت عيونهم تشي قائلة من تحت جفونهم المنسدلة «إنها العرّافة». لا بدّ أنهم لم ينسوا القصص التي كانت تُروى لهم حول النار في قراهم الأصلية. وقبل أن يغادروا المتجر، تخاطبني إحدى الزبونات: «هذا يكفي اليوم!»، ثم تمسح يديها بسروال البوليستر وتُحضر كيس الفلفل الحارّ لتدفع الحساب وتبدأ الأخرى بالدندنة لطفلتها وهي تداعب شعرها المجعد «اشش ياطفلتي الصغيرة راني!» ريثما أنتهي من حزم مشترياتها.

لم يكونوا ينظرون إلى وجهي مباشرةً عندما يغادرون لكنهم سيعودون آجلاً أم عاجلاً بعد حلول الظلام، سيطرقون باب المتجر الذي تفوح منه رائحة رغباتهم وسيبدؤون بطرح أسئلتهم كالمعتاد.

عندئذٍ سأصحب كلاً منهم إلى الغرفة الداخلية الخالية من النوافذ. ففيها أحتفظ بأنقى أنواع التوابل التي أحضرتها معي من الجزيرة للاحتياجات الخاصة. أبدأ أولاً بإشعال الشمعة ثم أبحث وسط دخان الظلام الخافت عن جذور اللوتس ومسحوق نبات الحلبة وقرص من الشمّر والحلتيت المُحمّص بعد ذلك أبدأ العلاج بالترنيم والصلاة كما علّمتنا الأم الكبرى لأبعد الهموم والحزن ثم أتلو التحذيرات.

هذا ما دفعني إلى مغادرة الجزيرة التي كانت أيامها_في تلك الأيام_ كالسكّر المُذاب والقرفة المنعشة، حيث الطيور المُغرّدة بحناجر كالألماس، والهدوء المُهيمن كضباب الجبال. لقد غادرتُها لأجل هذا المتجر وأحضرت معي كل ما تحتاجونه كي تكونوا سعداء.

لكن قبل هذا المتجر كنت أعيش في جزيرة، وقبل الجزيرة عشت في القرية التي ولدتُ فيها، مضى وقت طويل على ما حدث في ذلك اليوم،

كان الجفاف يجتاح القرية وقد جفّت حقول الأرزّ، كانت أمي حينها تئنّ من العطش وهي تُخرجني من بطنها. فجأةً قصف رعدٌ فولاذيّ وشطر البرق شجرة البانيان التي كانت وسط سوق القرية فصرخت القابلة وهي تضع القلنسوة الأرجوانية الرطبة فوق وجهي وهز العرّاف رأسه بحسرة في وجه أبي.

أطلقوا عليّ اسم **نايان تارا**، ويعني «نجمة العين» لكن والديّ كانا تعيسين لوجود طفلة أخرى في العائلة، ببشرة بلون الطين، لفّوا جسدي الصغير بقطعة قماش قديمة، ثم وضعوني ووجهي نحو الأرض. ما الذي ستجلبه هذه الفتاة لعائلتها سوى مهرٍ آخر؟ (في الهند، العروس هي التي تدفع مهر الزواج).

بقي أهل القرية يطفئون حريق السوق لمدة ثلاثة أيام. أُصيبت أمي بالحمى بعد ولادتي، وقد توقفت الأبقار عن إنتاج الحليب بسبب الجفاف. كنت دائمة البكاء والصراخ إلى أن أحضروا لي حليباً من أتانٍ بيضاء. قد يكون هذا ما جعلني أُبصر وأنطق مبكراً أو أنها الوحدة أو الحاجة هي ما دفعت طفلة سمراء صغيرة للتجول في القرية دون أن يراقبها أو يعتني بها أحد.

لقد عرفتُ من سرق **بانكو** الجاموس الذي كان ينقل الماء للقرية كما أنني عرفتُ الخادمة التي كانت تقيم علاقة مع سيّدها، وتكهّنتُ بوجود ذهبٍ مدفون تحت الأرض وسبب توقّف ابنة الخياط عن النطق منذ آخر اكتمال للقمر وعلّمتُ **الزامندار** (صاحب الأرض) كيف يبحث عن خاتمه الضائع كما أنني حذّرتُ زعيم القرية من الفيضانات قبل حدوثها.

أنا **نايان تار** الاسم الذي يعني أيضاً (نجمة العرّاف). انتشرت شهرتي وبدأ الناس بالتوافد من القرى المجاورة ومن المدن الواقعة على الجانب الآخر من الجبال كي أغيّر حظّهم بلمسة واحدة من يدي. كانوا يُحضرون لي هدايا لم نرها في قريتي من قبل، ما جعل أهل القرية يتكلمون عن فخامتها لأيام. أصبحت أجلس على وسائد منسوجة من خيوط الذهب وآكل من أطباق

فضّيّة مرصّعة بالأحجار الكريمة، ما جعلني أتعجّب كم هي سهلة العادات التي نكتسبها من حياة الترف وكيف أصبحت ألتزم بقوانينها.

استطعتُ أن أُشفي ابنة الملك وتنبأتُ بموت أحد الطغاة ورسمتُ طلاسم على الأرض لأجعل هبوب الرياح أكثر لطفاً على البحّارة والتجار. كانوا يرتمون بأجسادهم الضخمة تحت قدميّ.

وهكذا كبرت وأصبحت قوية الشخصية وعنيدة في آن معاً، بدأتُ أرتدي نسيجاً قطنياً من النخب الأول وأسرّح شعري بأمشاطٍ مصنوعة من ترس سلاحف جزر **أندمان**، أصبحت أحدّق لفترات طويلة وبإعجابٍ في المرايا المثبتة بإطار من اللؤلؤ والصَّدف رغم أني كنت على يقين أنني لست جميلة. كنت أضرب الخادمات عندما تتأخّرنَ عن تأدية واجباتهن. وعند تناول وجبات الطعام، كنت أتناول أفضل الحصص، ثم ألقي ببقايا الطعام لإخوتي وأخواتي. لم يكن والداي يجرؤان على توبيخي، لأنهما كانا يخشيان من قواي السحرية. لكنهما كانا سعيدين بحياة الترف التي أسبغتُها عليهما.

وعندما قرأتُ ذلك في عيونهما شعرتُ بالازدراء وببعض النصر المزعج يخترق معدتي؛ لأن من كانت تقف في آخر الصف أصبحت الآن في المقدّمة. كما شعرتُ بحزنٍ لا معنى له، لكنّني دفعتُهُ بعيداً ولم أُعِره أيَّ اهتمام.

أنا **نايان تارا**، التي نسيت المعنى الآخر لاسمها (الزهرة التي تنمو على طريق الرماد)، والتي لم تكن تدرك أنها ستحمل هذا الاسم لفترة قصيرة فقط.

أمّا الآن، فقد أصبح المنشدون الصوفيّون يغنّون تمجيداً لبطولاتي وأصبح الصاغة يطبعون صورة وجهي على الميداليات التي أصبح آلاف الأشخاص يرتدونها لتجلب لهم الحظ. ولم يتوقف البحّارة والتجّار عن سرد القصص التي تحكي عن قواي السحرية، التي كانوا يحملونها معهم عبر البحار فوصلت إلى كل البلدان.

هكذا عرف القراصنة من أكون.

الكركم

عندما تفتح الصندوق الموجود عند مدخل المتجر، ستشمّ رائحته فوراً رغم أنك ستنتظر بضع لحظات حتى تستوعب تلك الرائحة الخفية، المُرّة قليلاً والتي تُذكّرك برائحة البشرة.

بمجرد أن تلمس سطحه برفق يلتصق المسحوق الأصفر الحريري براحة يدك، وأطراف أصابعك، كغبار أجنحة الفراشة.

ضعه على وجهك وافرك به وجنتيك وجبهتك وذقنك. لا تتردّد. منذ حوالي ألف سنة وقبل بداية التاريخ كانت العروس تفعل ذلك وكذلك الفتيات المُقبلات على الزواج، فالكركم يُخفي العيوب والتجاعيد ويمتص الدهون وعلامات الشيخوخة، ولمدة أيام بعد ذلك سيمنح بشرتك توهجاً ذهبياً خفيفاً.

لكلٍّ بهار يومٌ خاص به فالكركم مخصّص ليوم الأحد، إنه يبدو بانعكاس الشمس عليه كلون الزبدة فيغدو أكثر توهجاً. عندئذٍ يصبح من المستحسن التضرّع إلى الكواكب التسعة لاكتساب الحب والحظ السعيد.

الكركم، الذي يُسمّى أيضاً(هالود)، ويعني «اللون الأصفر» يرمز إلى لون الفجر وصوت أصداف المحار. كما يُطلق عليه اسم (الحافظ) لأنه يحمي الغذاء في بلدان الحرّ والفقر .

الكركم، بهار السعادة نضعه فوق رؤوس الأطفال حديثي الولادة لجلب الحظ ونرشّه فوق ثمار جوز الهند أثناء طقوس العبادة الهندوسية وندعك به حواشي أثواب الساري وقت الزفاف.

ليس ذلك فحسب بل هناك المزيد وهذا ما يجعلني أجمعه في أوقات محددة فقط، عند اقتراب الليل من النهار حينئذٍ أقتلع جذوره البصلية التي تشبه الأصابع البنيّة الصلبة. لا أطحنه إلا عندما تكون **سواتي** «نجمة الإيمان» تتوهّج في الشمال.

حين أمسكه بيديّ يبدأ بمخاطبتي، صوته كالغروب وكأنه بداية العالم:

ـ أنا الكركم، خرجتُ من بحر الحليب، عندما كانت الآلهة **ديفا**و **أسورا** تبحثان عن كنوز الكون، أنا الكركم ولدتُ بعد الرحيق وقبل السموم، لذلك مكاني في الوسط.

أجيبه هامسة:

ـ نعم، أنت الكركم الدرع الواقي من تسلّل الأحزان إلى القلب، المرهم الذي ندهنه عند الموت أملاً في الانبعاث من جديد.

ونستمر في غناء هذه الأغنية معاً، مراراً وتكراراً.

دخلت زوجة (أهوجا) للمتجر هذا الصباح، مرتديةً نظارة شمسية.خطر ببالي فوراً الكركم، إنها أصغر سنّاً مما تبدو عليه. كما أنها ليست طائشة أو نشيطة، بل خجولة وتنقصها الخبرة. قيل لها مؤخراً إنها امرأة لا تصلح لشيء. فهي تحضر إلى المتجر يوم استلام الرواتب، لتشتري أرخص السلع (الأرزّ الخشن، البقول المجفّفة، زجاجة صغيرة من الزيت، ودقيق القمح لصنع الشاباتيس (فطائر رقيقة مصنوعة من حبوب القمح الكاملة). لطالما رأيتها تلمس بتردّدٍ جرّةً من كبيس المانجو أو رزمة من **الباباد** (رقائق الخبز المصنوع من دقيق العدس) لكنها تعيدها لى مكانها أخيراً.

لطالما عرضتُ عليها بعضاً من **الغولاب جامون** (حلوى هندية من كرات الزلابية المغمورة بالسكّر) من زبدية **الميثاي** (الحلوى). لكنها فجأةً، تحمرّ خجلاً وترفض أخذها بتوتّر.

لدى زوجة (أهوجا) اسم طبعاً،**لاليتا**، من ثلاثة مقاطع (**لا. لي. تا**) يلائم جمالها المعتدل تماماً. كم أحبّ مناداتها به. لكن، كيف لي أن أفعل ذلك وهي لا ترى نفسها سوى ربّة منزل، لم تخبرني بذلك فهي نادراً ما تتحدث معي أثناء زياراتها. لم أسمع منها سوى: **ناماستي** (مرحباً)، أو «هل هذه للبيع؟»، أو «أين بامكاني إيجاد الـ . . .؟»، لكنّني أعرف ما لا يعرفه أحد، مثل أن «زوجها أهوجا يعمل حارساً في ميناء ويفضّل نوعين من المشروب أو ربما ثلاثة أنواع أو أربعة أنواع مؤخراً» أما هي «فلديها موهبة، أو بالأحرى قوة سحرية خاصة تُخفيها عن الجميع وهي أنها عندما تمر بإبرتها على أية قطعة قماش، تُزهر بين يديها»

ذات مرة رأيتها تتّكئ على الزاوية التي أعرض فيها قطع النسيج الملوّنة وتحدّق بثوب ساري مطرّز بخيوط **زاري** (ذهبية). التقطتُهُ واقتربت منها لأرى قياسه عند كتفيها:

- انظري، يليق بكِ لون المانجو كثيراً.

تراجعَت إلى الوراء بسرعة واعتذرتْ قائلة:

- لا، لا كنتُ ألقي نظرة على الدرزة فقط.

- آآه... أنتِ تحبّين التطريز.

- نعم، أحبّه كثيراً، كنت أذهب إلى مدرسة لتعليم الخياطة في **كانبور**، كما أنني كنت أملك ماكينة خياطة خاصة بي، كانت السيدات تجلبن لي الكثير من قطع القماش لأقوم بتطريزها.

ثم أطرقت للأسفل بحزن، مع انحناء رقبتها بكآبة تمكنتُ من رؤية ما لم تنطق به، الحلم الذي كان يجول في رأسها. ففي يوم ما وربما قريباً سيكون لديها متجرها الخاص لِمَ لا؟ «ورشة**لاليتا** للخياطة».

لكن قبل أربع سنوات، حضرت جارة طيّبة إلى والدتها تخبرها:

- **باهينجي** (أختي)، هناك شاب محترم يعيش في **فورين** ويتقاضى راتبه بالدولار الأمريكي!

وافقت الأم على تزويجها له.

سألتُها:

ـ لماذا لا تعملين هنا في **أمريكا**؟ أنا متأكدة بأن هنالك الكثير من السيدات هنا بحاجة إلى أعمال التطريز أيضاً؟ ألا ترغبين بـ ...

رمقتني بلهفة...

ـ أوه، بالطبع!

لكنها تراجعت.

أعرف ما الذي كانت تريد قوله، لكن ليس من اللائق أن تتحدث عن زوجها أمام الغرباء فهي تقضي نهارها وحيدة في منزل يسوده هدوء يشبه رمالاً متحركة، تسحب معصميها وكاحليها نحو الظلام وتبكي، لتتمرد الدموع من عينيها وتنهمر كحبوب الرمّان. فضلاً عن صياح زوجها عندما يعود إلى المنزل ويرى عينيها المتورمتين، فهو يرفض تماماً فكرة عمل زوجته. لطالما زعق في وجهها:

- ألستُ رجلاً بما فيه الكفاية؟ ألستُ رجلاً؟

كان صدى كلماته يتحطّم كالأطباق المنزلقة من على طاولة العشاء.

بينما كنتُ أحزم لها مشترياتها البسيطة هذا الصباح «القليل من **الماسور دال** (العدس الأحمر الحارّ)، كيس صغير من دقيق القمح، وحفنة من الكمّون» رأيتها تحدق بخشخيشة أطفال فضية موضوعة داخل إحدى الزبادي الزجاجية، بدت عيناها غارقتين في بئرٍ مظلم.

حينها أدركتُ بأن «طفل» هو بالضبط ما كانت تحتاجه زوجة (أهوجا)!

بالتأكيد، سيغيّر الطفل كل شيء« الصوت المرتفع! الشخير! الليالي الطويلة! الوزن الزائد! النَّفَس الساخن المنبعث من مخلوق همجي يلهث في وجهها! بصوته المخيف المنبعث من الظلام!».

قد يحلّ الطفل كلّ تلك المشاكل، بفمه الصغير الملوّث بالحليب.

غريزة الأمومة، الرغبة الأكثر أصالةً من الثراء أو الحب أو حتى الموت.

مجـرد الإحسـاس بهـا، يغـيّر لـون الهـواء في المتجـر، فيصبـح أرجوانيـاً كمـن يترقب عاصفةً، تحمل معها رائحة الرعد والحريق.

أوه!...**لاليتـا**، ...التـي لم تصبـح **لاليتـا** بعـد، لـديّ بعـض البلسـم لأضعـه فـوق جراحـكِ. لكـن، ليـس قبـل أن تكـوني مسـتعدّة وتسـتقبلي العاصفـة بـكل رحابة صدر. والآن هاكِ بعض الكركم!.

حفنـة مـن الكركـم الطـازج، وضعتُهـا في ورقـة جريـدة قديمـة، وربطتُهـا بخيـطٍ مُعلّـقٍ عليـه عقـدة لزهـرة ثلاثيـة. همسـتُ ببضـع كلـمات شـافية ثـم حشرتُها خلسةً بين مشترياتكِ بينما كنتِ تتجولين.

سـتجدين في الداخـل كركـم ناعـم كالسـاتان لونـه كلـون الكدمـات الظاهـرة على خدّكِ، من تحت نظارتكِ السوداء.

أتسـاءل أحيانـاً مـا إن كان هنـاك مـا يسـمّى بالواقـع، أو مـا يُعتـبر طبيعـة هادفـة للوجـود أو مـا يُطلـق عليـه الجـدوى مـن الحيـاة التـي لم يمسسـها أحـد. هـل كلّ مـا نصادفـه في الحيـاة، قـد جُسِـدَّ مسـبقاً في مخيّلتنـا، قبل أن نـراه على أرض الواقع؟

يذكّرني ذلك بالقراصنة

يملـك القراصنـة أسـناناً كالحجـر المصقـول وسـيوفاً معقوفـة ذات مقابـض مصنوعـة مـن أنيـاب الخنزيـر البرّي ويضعـون في أصابعهـم الكثـير مـن الخواتم المرصّعـة بالأحجـار الكريمـة والعقيـق الأحمـر. كـما أنهـم يلبسـون حـول رقابهـم قلائـد مـن الياقـوت الأزرق لتجلـب لهـم الحـظ أثنـاء رحلاتهـم البحريـة. وتلمع أجسـادهم المدهونة بزيت الحيتان كخشـب الماهوغاني الداكن أو كلحاء أشـجار البتـولا الشـاحب. ينحـدر القراصنـة مـن مختلـف الأعـراق والبلـدان. عرفـتُ كلّ ذلك من القصص التي كنا نسمعها قبل النوم، عندما كنّا أطفالاً.

كانـت تقـص علينـا خادمتنـا العجـوز بصـوتٍ خفيـض، إن القراصنـة ينهبـون ويقتحمـون وينهبـون ويحرقـون الأماكـن ويخطفـون الأطفـال الذكـور ليجعلـوا منهـم قراصنـة في المسـتقبل ثـم تهمـس بمكـرٍ وهـي تطفـئ المصبـاح: «أمّـا الإناث... فيحتفظون بهنّ لملذّاتهم الشرّيرة».

لم تكن تعرف عن القراصنة أكثر مما كنّا نعرفه نحن. لم يرَ أحدٌ أيَّ قرصان في قريتنا الصغيرة المطلّة على النهر لما يقارب المئة عام. كما أظن أنها لم تكن تؤمن بوجودهم حتى.

لكنني كنتُ أؤمن بوجودهم وبعد انتهائي من سماع القصة أبقى مستيقظة طوال الليل أفكّر بهم بشوق. أتخيلهم في مكان ما وسط المحيط الضخم يقفون بقوّةٍ وثبات في مقدّمة السفينة مكتوفي الأيدي ينظرون بعنادٍ نحو قريتنا وتتطاير شعورهم الطويلة بفعل الرياح المالحة.

تلك الرياح المالحة ذاتها التي جرفتني معها نحو القلق والضجر. لدرجة أصبحت فيها حياتي لا تطاق «مديح لا نهاية له! أناشيد التزلّف! جبال من الهدايا الثمينة، احترام أهلي لي بسبب خوفهم مني وليالي الأرق الطويلة التي قضيتُها بين مجموعة من الفتيات اللواتي تحلمن بالشبّان الوسيمين».

كنتُ أحشر وجهي بالوسادة لأهرب من الفراغ الذي كان يملأ قلبي وأركّز اهتمامي كله عليه باستياءٍ إلى أن يلمع كخُطّاف القرصان فألقي به في المحيط بحثاً عن القراصنة.

لطالما أعجبتني فكرة «الاستحضار» رغم أني عرفت اسمها الحقيقي على الجزيرة في وقت لاحق. حينها قالت لنا الأم الكبرى إن فكرة الاستحضار تسمح لنا باستدعاء كلّ من نرغب برؤيته «عشيق يجلس بجانبك أو عدوّ يجثو عند قدميك». فيه تخرج الروح من الجسد وتفترش راحة يدك. لكن، إنْ جرى الاستحضار بشكل ناقص أو خرج عن السيطرة يمكن أن يُحدث دماراً يفوق الخيال. وبالتالي قد يلوم البعضُ البحّارةَ والتجار ويتّهمونهم بجذب القراصنة إلى القرية لأنهم ساهموا بنشر حكاياتي عبر البحار. لكنني أعرف أكثر من الجميع.

ربما وصلوا في الوقت المناسب، عند الفجر، حيث لا يستطيع المرء أن يميّز بين الليل والنهار، بين الحقيقة والرغبة. اخترقت الصواري السوداء ضباب المساء ثم بدأت نيرانهم تُشعل الأكواخ والمحاصيل والإسطبل المليء بالأبقار

التي تفحمت في غضون دقائق كان صراخ أهل القرية وسط الدخان يصمّ الآذان. كنا نتناول طعام العشاء عندما خلع القراصنة جدران كوخنا المصنوع من خشب البامبو، يقطُر الزيت من وجوههم السوداء وكانت أسنانهم البارزة من بين شفاههم الملتوية تشبه الحجارة المصقولة فعلاً وعيونهم أيضاً كانت مصقولة ومكفوفة حينما اقتربوا مني. وبسبب قوة فكرة الاستحضار التي جعلتني ألقي بإهمال ذلك الخُطّاف الذهبي في البحر، كانوا يركلون كل شيء بأرجلهم «أطباق الطعام، الجرار، وعاء الأرز، السمك، العسل» ثم طعن أحدهم أبي في صدره بسيفه وقام آخرون بتمزيق الستائر ثم حاصروا النساء في زوايا المنازل وبدؤوا يسلبون القلائد والأقراط والمجوهرات، جمعوها فوق قماش تنورة خضراء كانت ترتديها إحدى أخواتي.

أمي، لم أكن أتوقع حدوث كل ذلك.

حاولتُ إيقافهم، بدأت أصرخ بكلّ التعاويذ التي أعرفها إلى أن تخرشت حنجرتي. كما أني بدأت برسم علاماتٍ سحريةٍ بأصابع مرتجفة وأنفخ في وعاء من الفخار كي يتحول إلى حجر صوان أقتل به زعيم القراصنة لكنه نفضه بعيداً بإصبع واحد وأمر رجاله بالقبض عليّ.

لقد كان الاستحضار ذي القوة الفولاذية فكرتي أنا ولم يستطع أحد إيقافها حتى أنا.

حملني القراصنة على أكتافهم كنتُ أشاهد القرية المحترقة مندهشاً. صُدمتُ وشعرت بالعار من هذا العجز المفاجئ، دخان كثيف بسبب الأنقاض، حيوانات تخور من شدة الذعر.

رفع زعيم القراصنة صوته وسط الأموات معلناً اسمي الجديد بسخرية لاذعة **بهاجي أفاتي** ويعني (جالبة الحظ). هكذا كنتُ بالنسبة لهم.

أبي، إخوتي، سامحوني أنا من كان اسمها **نايان تارا** من كانت بحاجة إلى محبّتكم لكنّها لم تَنَلْ سوى خوفكم، سامحيني يا قريتي، أنا من تسبّبتْ بكل هذه الفوضى بدافع الملل وخيبة الأمل.

على ظهر السفينة حين طرحني القراصنة أرضاً شعرتُ بألم أهل القرية

كلسعة سبّبتها جمرة مشتعلة اخترقت صدري. وبعد الإبحار اختفى وطني المحترق في الأفق.

بعد مضي وقتٍ طويلٍ على اللعنة التي تسببت بها عملية الاستحضار، استعدتُ قواي السحرية من جديد وباتت أكثر فعالية بسبب الحقد، ما مكنني من الإطاحة بزعيم القراصنة لأصبح ملكة عليهم(لم أعرف سوى هذه الرتبة آنذاك). اجتاحني الألم ولم يُشفي من غليلي الثأر مع اعتقادي بأن ذلك قد يهدِّئ من روعي.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أُسيء فيها فهمَ ما يجول بداخلي. ظننتُ أني سأحترق مراراً وتكراراً وإلى الأبد وقد استقبلتُ العقاب بكل رحابة صدر.

لمدة عام أو ربما عامين أو ثلاثة أصبحت أحيا حياة الملكة، أقود قراصنتي نحو طريق المجد والشهرة، بدأ الشعراء يتغنّون بأعمالهم البطولية التي لا تعرف الخوف. أما أنا، فقد حملتُ معي ذلك الألم السرّي الذي وسم نفسه عند كل زاوية في قلبي هذا الألم الفظيع هو الوجه الآخر للحقيقة التي عرفتُها مؤخراً «التعويذة أقوى من صانعها وعند إطلاقها لا يمكن لأحدٍ إيقافها».

قضيتُ ليالٍ من الأرق على ظهر السفينة. أنا **بهاجي أفاتي** المشعوذة، ملكة القراصنة جالبة الحظ والموت. تُلامس عباءتي السوداء ملح البحر كالجناح المكسور.

لطالما رغبتُ بالضحك لكني لم أعد أعرف معنى الابتسامة ولا حتى الدموع، قطعتُ عهداً على نفسي بألا أنسى أبداً ذلك الألم وتلك الحقيقة.

في ذلك الحين لم أكن أعلم أن كلّ شيء يصبح طيّ النسيان يوماً ما.

أما الآن، فيجب أن أخبركم عن الأفاعي فهي موجودة في كل مكان. أجل، حتى في منازلكم وداخل غرفكم المفضلة. ربما تحت الموقد أو في عشٍ صغيرٍ بين الجدران أو بين جدائل السجادة كنوع من التمويه وأنت تتجول في المنزل تشعر أحياناً برمشة خاطفة في زاوية عينيك فهي تختفي بلمح البصر.

أما المتجر، فهو مليء بها.

لا تستغربوا، أعرف أنكم لم تروا أيّاً منها ذلك لأنها أتقنت فن الاختباء فلا يمكنكم رؤيتها إن كانت لا ترغب هي بذلك. وأنا أيضاً لا أستطيع رؤيتها، ليس بعد الآن، لكنني على علم بوجودها. لذلك تجدني كل صباح وقبل وصول الزبائن، أضع زبادي خزفية من الحليب في الزوايا البعيدة من المتجر خلف أكياس الأرز البسمتي الإضافية، عند الشقّ الضيق تحت رفوف **الدال** (العدس) قرب صندوق الحرف اليدوية الزجاجي الذي لا يشتري منه الهنود فقط، عندما يريدون تقديم الهدايا للأمريكان. أفعل ذلك بإتقان دائماً فأتحسّس الأرض بهدوء بحثاً عن البقعة المناسبة، يجب أن تكون دافئة ونابضة بالحياة إضافة لتمتعها بالاتجاه الصحيح: «الشمال الغربي» والذي كانوا يطلقون عليه اسم **إيشان** باللغة السنسكريتية القديمة ويعني «القوة الخفية التي تحكم الكون». ثم أبدأ بهمس الكلمات السحرية داعيةً إياها:

أيتها الأفاعي يا أقدم المخلوقات، يا أقرب من تلامس الأرض الأم يا من تزحف وتفترش صدرها الحنون!

لطالما عشقتها، كما أنها كانت تعشقني أيضاً!

وسط الحقول الجافة المتشققة، خلف كوخ والدي كانت الأفاعي تحميني من حرارة الشمس الحارقة ـ عندما كنت أرتاح من اللعب ـ بجسدها اللامع ورائحتها الباردة كرائحة التربة الرطبة.

أسفل بساتين الموز وعند جداول المياه التي تزين القرية، كانت أفاعي النهر تسبح بمحاذاتي جنباً إلى جنب وكأنها سهام ذهبية تخترق ضوء الشمس المنعكس على الماء. تحكي لي قصصاً عجيبة: «كيف تحولت عظام الغرقى إلى مرجان أبيض بعد ألف سنة وكيف تحولت عيونهم إلى لؤلؤ أسود وعن الكهف المظلم في المياه العميقة حيث يجلس **ناغراج** ملك الأفاعي على عرشه يحرس كومة كبيرة من الكنوز النادرة.

أما ثعابين المحيط أو ما يُعرف بثعابين البحر فقد أنقذت حياتي.

سأخبركم بكل ما حصل:

عندما كنتُ ملكة القراصنة تسلقت ذات ليلة مقدمة السفينة، كان الجوّ كئيباً والمحيط من حولي مظلماً وثقيلاً ككتلة من الحديد الصلب. عندئذ تداعت هموم الحياة دفعة واحدة وتذكرت السنوات الماضية: «الغارات التي قمتُ بها والسفن التي نهبتُها والكنوز التي جمعتُها دون أي هدف والتي تخلّصتُ منها دونما سبب يُذكر» تأملت فيما سيأتي من سنوات فلم أجد سوى الرتابة المملّة ذاتها في انتظاري.

عقدتُ النية على أمرٍ «أريد... أرغب في...؟!»، لم أعلم ما كنتُ بحاجة إليه لكنني أدركتُ بأني لم أعد أطيق حياة القراصنة.

هل كنتُ أرغب بالموت؟

ربّما...!

لذلك قمتُ بعملية «استحضار» أخرى عبر مياه البحر... فجأةً تلبّدتْ السماء بالغيوم، كحراشف سمكة (إيليش) ملفوظة نحو الشاطئ. أصبح الهواء لاسعاً، عنيفاً. بدأت الرياح بخلع الصواري وتمزيق الأشرعة فظهر إعصار هائل في الأفق كنتُ قد أيقظتهُ من سباته وسط أغوار المحيط من جهة الشرق. كلما اقترب مني كلما فارت مياه البحر من تحته أكثر.

صرخ القراصنة مذعورين وتشبّثوا بالدعّامات. لكن صراخهم بدا مكبوتاً كصدى ذكريات الماضي. بمجرد أن تملأ الآلام قلبكَ المكلوم يصبح من اليسير الشعور بألم الآخرين. خطر ببالي سؤال أشبه بسارية محطّمة بفعل عاصفة هوجاء: «هل سمعتُ من قبل صرخات كالتي أسمعها الآن؟» لكنني لم أُجب عنه وتركته لتذروه الرياح وتبتلعه الزوابع.

آآآه... أيّها الأحياء يا من ينهضون من أعماق الفوضى ليلتقطوا أنفاسهم ويغوصون من جديد، يتهالك جسدي النحيل كعود ثقاب متشظياً إلى قطع صغيرة، فتتطاير العظام الهشة كالزبد ليتحرر القلب أخيراً.

لكن عندما بدأت تلك الدوّامة تحوم فوق رأسي وتلمع كالسكاكين،

اخترق جسدي بردٌ ثقيل. كنتُ على علم بأنني غير مستعدّة بعد. بدا العالم فجأةً أجمل مما كان عليه، حينئذٍ أردتُ امتلاك ذلك الجمال أكثر من أيّ شيء آخر.

صرختُ بأعلى صوتي: «أرجوكم!».

مَن كنتُ أنادي. من؟ لم أعرف!

ربما تأخرتِ كثيراً **بهاجي أفاتي**.

ثم سمعتُ صوتها.... ضعيفاً يشبه الهمهمة، مقارنةً بتلك العاصفة الهوجاء، قادماً من مكانٍ عميقٍ وهادئ وسط المحيط يتناغم مع اهتزاز السفينة وقلبي في آنٍ. ثم أخرجت ثعابين البحر رؤوسها الصغيرة المتلألئة كالجواهر، أو ربما كان ذلك بريق عيونها المحدقّة بي مباشرةً. لم أعرف متى تلاشى الإعصار عبر الأفق.

بعد أن سكن الموج، امتلأ قلبي بصوت غنائها العذب وحركتها الخفيفة وبريقها الساطع. تلك الثعابين التي اعتادت على النوم داخل كهوف من المرجان لا تصعد إلى سطح الماء إلا عندما تسكب **داروفا** «نجمة الشمال» نورَها الحليبيّ فوق المحيط فيبدو جلدها كاللؤلؤ المصهور وألسنتها كتموّج الفضّة المصقولة، التي نادراً ما نستطيع رؤيتها بالعين الفانية. سألتُها:

- لماذا أنقذتِني؟

لم تُجبني، فالصمت علامة الحب.

ثعابين البحر هي من أخبرني عن مكان الجزيرة وبذلك أنقذتْ حياتي مرة أخرى، أو لعلها هي من قام بذلك. لست متأكدة.

- أخبريني المزيد.

بدأت الثعابين بالكلام:

- وُجِدَت هذه الجزيرة منذ الأزل، والأم الكبرى كذلك، حتى نحن لا نعرف منذ متى مع أننا شهدنا انبثاق الجبال من براعم صخرةٍ تفترش المحيط، كما شهدنا غرق المدينة الكاملة **سامودرا بوري** في أعقاب الفيضان الكبير.

- والتوابل؟

- تفوح رائحتها العطرة من بعيد عبر المحيط الواسع كالعلامات الموسيقية لآلة **الشهناي** (آلة موسيقية).

- والجزيرة؟ ما شكلها؟

- لم نرها سوى من بعيد «بركان هادئ أخضر اللون. وشواطئ برمال حمراء ونتوءات بارزة كالأسنان الرمادية وفي الظلام عندما تتسلق الأم الكبرى قمة البركان، تتحول إلى شعلة من نار وتبدأ بإرسال تعاويذها السحرية مع الرعد مخترقةً السماء.

ـ ألا ترغبن بالذهاب إليها؟

- إنها في غاية الخطورة، فالجزيرة وما يُحيط بها من مياه تسيطر عليها الأم الكبرى بتعاويذ لا تُقهَر. ذات مرةٍ، عندما سمع أخونا الصغير **راتنا ناغ** صوت غنائها القادم من بعيد، غامر واقترب رغم أننا حذّرناه. المسكين، كان جميلاً بعيونٍ من عَقيق، لكنّه كان فضوليّاً...

- وماذا حدث له؟

- مع غروب الشمس وبعد عدة أيام، وصلتنا جثته عائمة، كان جلده المثالي ما يزال ليّناً كالطحالب البحريةِ الطازجة، تفوح منه رائحة التوابل، وفوقه بالضبط يحوم ويزعق بهمجيةٍ طائرٌ بعينين من العقيق.

ـ وأخيراً عرفتُ ما الذي كنتُ أرغب به «جزيرة التوابل».

ـ لا، لا، لا تذهبي إلى هناك، تعالي معنا بدلاً من ذلك، سنمنحكِ اسماً جديداً، وشكلاً جديداً سنطلق عليكِ اسم **ساربا كانيا** «الأفعى العذراء». سنحملكِ على ظهورنا ونسبح بكِ عبر البحار السبعة، سترين مدينة **سامودرا بوري** النائمة في أعماق المحيط، ربما تقومين أنتِ بإيقاظها.

ـ لقد تأخّرتم كثيراً يا أصدقائي.

بدأ ضوء الفجر الشاحب يلمع فوق سطح الماء وأصبح جلد الثعابين شفافاً بلون الأمواج. بدأ نداء التوابل يجري في عروقي دون توقف، أدرتُ

ظهري للثعابين وتخيّلتُ الجزيرة تنتظر قدومي.

بدا فحيح الثعابين حزيناً وغاضباً. بدأت تضرب مياه البحر المالحة بذيولها حتى تشكل الزبد. سمعتُها توبخني...

- الحمقاء، ستخسر كل شيء «صوتها، بصرها، اسمها، وربما حياتها، ما كان علينا أن نخبرها عن الجزيرة».

سمعتُ أكبرهن تقول:

- ربما كانت ستعلم بوجودها بطريقة أخرى، انظروا إلى بريق التوابل يتلألأ على بشرتها، لا بدّ أنه قدرها.

وقبل أن يغلق المحيط بواباته الغامضة، أرشدني إلى الطريق. كانت تلك آخر مرة أرى فيها ثعابين البحر. كانت أحد المخلوقات التي منعتني التوابل من رؤيتها بعد الآن.

سمعتُ أنه حتى في **أمريكا**، هناك أفاعٍ وسط المحيط وراء جسر **ريد جولد** عند نهاية الخليج. لم أذهب لرؤيتها، لأنه مُحرّمٌ عليّ مغادرة المتجر. «لا يجب أن تعرفوا السبب الحقيقي».

أخشى ألا ترغب برؤيتي. ربما، لن تسامحني لأنني فضّلتُ التوابل عليها.

وضعتُ آخر زبدية حليب تحت صندوق الحرف اليدوية. سندت ظهري بيدي كي أنهض. لطالما أتعبني هذا الجسد الهرم الذي أسكن فيه حين حضرت إلى **أمريكا**، إضافة لأوجاعه التي لا تنتهي. هذا ما حذّرتني منه الأم الكبرى. أتذكّر أحياناً تحذيراتها الأخرى التي لم أكن أؤمن بها.

أعرف أني سأقوم غداً بجمع الزبادي الفارغة دون أن ألمح أفعى واحدة. مع ذلك ربما سأحاول يوماً ما الوقوف وسط ضباب الليل في بستان من أشجار السرو المتشابكة بين الفقمات السُّوداء وأغنّي لها. سأضع على لساني عشبة **شالبارني** «عشبة الذاكرة والإقناع» وأردد الكلمات السحرية القديمة حتى لو لم يظهر أي منها، سأكون قد حاولت على الأقل.

قد أطلب من **هارون** أخذي إلى هناك يوم إجازته. فهو يعمل سائقاً

لدى السيدة **كاباديا** التي تملك سيارة **رولز رويس**. ها أنذا أسمع صوت خطواته الرشيقة في الخارج. دخل مسرعاً إلى المتجر، تفوح منه رائحة الصنوبر و**الأخروت** (الجوز)، «الثمرة المجعّدة من تلال كشمير، المدينة التي ولد فيها:

- أوه ...سيدتي، سيدتي لديّ أخبار لكِ.

قفز من فوق المشمّع العتيق دون أن يلمسه، كان ينادني بلهفة كالأطفال، لطالما كانت هذه طريقته في التحدث، منذ أن عرفته للمرة الأولى، عندما كان يحضر برفقة السيدة **كاباديا** المتعجرفة ليحمل لها أغراضها. لم تتغير طريقة سلامه رغم الحزن الواضح في عينيه وكأنه يقول «أنا أعمل لديها لفترة وجيزة فقط»

أذكر عندما عاد تلك الليلة وحيداً ومدّ لي يديه الخشنتين...

- سيدتي، أرجوكِ، اقرئي لي كفّي.

- لا أستطيع قراءة المستقبل.

وهذه هي الحقيقة. لم تعلّمنا الأم الكبرى القيام بذلك. لطالما كانت تقول: «ستحرمكم قراءة المستقبل من الأمل ومن العمل بجدّ، كما أنها ستزعزع ثقتكنّ بالتوابل»

احتجّ **هارون**:

- أخبرني أحمد أنكِ ساعدته في الحصول على فيزا، لا، لا تنكري ذلك. كما أنكِ أعطيتِي **نجيب مختار** وقد كان على وشك أن يُطرد من عمله، وصفة شاي خاصة ليغليها ويشربها. سبحان الله. نُقِل مديره الظالم بطريقة ما إلى **كليفلاند** وحلّ **نجيب** محلّهُ.

- لستُ أنا من فعل ذلك، إنه **الداشمول** (عشبة الجذور العشرة).

لكنه لم يسحب يديه الصلبتين الواثقتين، فأشرتُ بإصبعي إلى الخطوط القاسية، وسألته:

- ما سبب هذه الرضوض؟

- آاااه، في طريقي إلى هذه البلاد، عملتُ في جرف الفحم على متن السفينة ثم في ورشة لتصليح السيارات، كلّها من تأثير مفتاح البراغي والإطارات المطاطية والمعدنية الثقيلة، كما عملتُ في الطرقات بآلات ثقب الصخور، وصبّ الزفت.

- وقبل ذلك؟

- أجل، عندما كنتُ في بلادي كنّا نعمل بالملاحة في **دال ليك**، أنا ووالدي وجدّي، فكنّا ننقل السيّاح الأوروبيين والأمريكان **بالشيكارا** (المركب). كان دخلنا السنوي جيداً ما سمح لنا بتطريز المقاعد بالحرير الأحمر.

لم أعد أرغب بسماع المزيد. فقد أحسستُ بماضيه الصعب والمظلم كرعد الشتاء من الأورام البارزة في راحتَيْ يدَيه.

سحبتُ علبةً من **الشاندان** (مسحوق من خشب الصندل) كي تساعده على نسيان ذكرياته المؤلمة ورششتُ مسحوقها الحريري فوق خطوط الحياة المرسومة على راحتي يديه متجنبةً لمس بشرته.

- افركها جيّداً.

فعل ما طلبتُه، لكنّه شرد وأكمل سرد قصّته وهو يفرك:

ذات يوم حدثت معارك خطيرة وتوقف السياح عن القدوم. نزل المتمردون من الجبال يحملون الرشاشات وعيونهم مليئة بالشرّ. اخترقوا شوارع مدينة **سريناغار** «مدينة الأمل». أخبرتُ والدي **أباجان** أنه علينا المغادرة فوراً لكن جدّي صرخ في وجهي: «**توبا توبا**» (وطننا الأم) أين سنذهب؟ هذه أرض أجدادنا.

«هدّأتُهُ...»

- إشش.

حرّرتُهُ من أحزانه التي بدأت تحلق بخفّة وسط هواء المتجر تحوم فوق رؤوسنا لتجد لها مكاناً آخر، كما تفعل كلُّ الأحزان المُحرَّرة عادةً.

لكنه استمرّ في الكلام بنبرة متقطّعة كالحجر المكسور .

- وعنـد بحـيرة القريـة اقـترب المتمـرّدون ليقبضـوا عـلى الشـبّان. حـاول والـدي **أباجـان** الوقـوف في وجههـم فأطلقـوا عليـه النـار وعـلى جـدّي الـذي كان نائماً كذلـك. كانـت الدمـاء في كلّ مـكان وأصبـح حريـر **الشـيكارا** (المركـب) الأحمر أكثر احمراراً، تمنّيتُ لو أني...

بينـما كان رذاذ **الشـاندان** (مسـحوق خشـب الصنـدل) يـذوب في راحتَـي يديه، استيقظ فجأةً. بدا مصاباً بالدوار.

- ماذا كنتُ أقول؟

- طلبتَ مني أن أقرأ لك مستقبلك.

- أوه ...طبعاً.

ارتسـمت عـلى شـفتيه ببـطء، ابتسـامة مفجعـة. يبـدو أنـه نـسي سـبب مجيئه إلى هنا.

- والآن **هارون**...هنـاك أشـياء توحـي بالتفـاؤل، سـتحصل لـك أمـور جيـدة في هـذه البـلاد التـي تدعـى **أمريـكا** سـتكون سـعيداً وثريـاً وربمـا تقـع في حـب فتاة جميلة عينيها كزهرة اللوتس.

- آآآاااااه.

ثم اندفع فجأةً وقبّلَ يديَّ قبل أن أتمكن من منعه.

- أشكركِ، سيّدتي.

أصبـح شـعره المجعّـد يتـلألأ كالسـماء الصيفيـة عنـد حلـول الظـلام. أحرقـت شـفتاه بـشرتي وأوردتي. مـا كان عـليّ السـماح لـه بلمـسي. لكنّـه سـبقني. لقـد حذّرتنـا الأم الكـبرى مـن لمـس البـشر. لكننـي لم أسـتطع مقاومة شـفتيه البريئتين الممتنّتَـين والمتحمّسـتَين شـعرت بدفئهـما فـوق راحـة يـدي، وبأحزانـه التـي أصبحـت كاليراعـات العالقـة في شـعري. وفي الوقـت ذاتـه، شـعرتُ ببعـض الخـوف عـلى نفـسي وعليـه أيضـاً، صحيـح أني لا أسـتطيع التنبـؤ بالمسـتقبل، لكنـي خشـيتُ مـن ذلـك النبـض اليائـس في معصميـه. كانـت دمـاؤه تجـري بسرعة كبيرة وكأن خطراً ما على وشك الحدوث.

خـرج مـن المتجـر، مـرحٌ ومـسرور غـير مكـترث للمخاطـر القابعـة في الخـارج. ولِـمَ الخـوف؟ فقـد وعدتُـهُ بالسـعادة والحـب والترقيـة. أنـا مـن تسـتطيع منـح تأشـيرات دخـول، أنـا **تيلـو** المسـؤولة عـن تحقيـق أحـلام المهاجرين.

- أوه،... **هـارون**، أُرسـل لـك صلـواتي وسـط الهـواء الخفيـف الـذي خلّفتـهُ وراءك. أرجوك يا خشب الصندل احفظه من كل سوء، احمِي بريق عينيه.

فجـأةً، سـمعتُ دوي انفجـار في الخـارج. ربمـا اشـتعال وقـود في إحـدى الحافلات أو صوت إطلاق نار، انقطعتُ عن ترتيل صلواتي.

بعـد ثلاثـة أشـهر أدركـتُ بأننـي كنـتُ مخطئـةً لكنـي سـعيدة لأن **هـارون** أصبـح أكـثر ابتهاجـاً مـن ذي قبـل. لم تعـد الابتسـامة تفـارق أسـنانه البيضـاء اللامعة. حضر هذا الصباح وخاطبني بعبارات أمريكية جديدة:

- سـيدتي، لـن تصدقـي مـا حصـل، لقـد اسـتقلتُ مـن وظيفتـي، لم أعـد سائقاً تحت رحمة تلك السيدة المتعجرفة **كابـاديا**.

انتظرتُ كي يفسر لي:

أولئـك الأثريـاء الحمقـى يظنـون بأنهـم مازالـوا في الهنـد، يعاملوننـا **كالجانـوارز** (الحيوانـات)، أوامرهـم وطلباتهـم لا تنتهـي. ناكريـن للجميـل، رغـم أننا نقضي عمرنا في خدمتهم.

- هل من جديد **هارون**؟

- اسـمعي مـا حصـل: في الأمـس، كنـتُ جالسـاً أمـام مطعـم **ماكدونالـد** قـرب مركـز رخيـص لخدمـات الغسـيل الذاتيـة في الشـارع الرابـع. عندمـا وضـع أحدهـم يـده عـلى كتفـي مـن الخلـف، قفـزتُ مـن الذعـر. لأنـه كـما تذكريـن حـدث اشـتباك في الشـهر المـاضي حـين هـددني أحدهـم لأخـذ المـال بالقـوة. بـدأتُ أصـلّي. لكـن عندمـا التفـتّ للـوراء، آاااه ... الحمـد للـه!. لم يكـن سـوى صديقـي **موجيبـار** الـذي كان يعيـش في قريـة عمّـي الواقعـة قـرب مدينـة **باهالغـاون**. لم أكـن أعـرف أنـه يعيـش الآن في أمريـكا. يبـدو أن أوضاعـه جيـدة.

فهو يملك سيارة تاكسي إضافية ويبحث عن سائق. أخبرني إن الأجر سخيّ ويناسب صديقاً مثله كان يعيش في **كشمير**. كما قال بأنه قد يبيعني إياها فيما بعد. ما أجمل أن يكون المرء سيد نفسه، وافقتُ على عرضه وذهبتُ مباشرة لأخبر تلك السيدة المتعجرفة أنني لم أعد بحاجة إلى وظيفتها. (قهقه) ليتكِ رأيتِ وجهها، أصبح بنفسجي اللون **كالبرنجال** (الباذنجان). ابتداءً من الغد سأقود سيارة أجرة سوداء -صفراء كزهرة عبّاد الشمس.

كررتُ ما قاله بحماقة: «سيارة أجرة؟». شعرتُ بوخزة خفيفة في معدتي. لم أعرف سببها.

- عليّ أن أشكرك، لن أنسى صنيعكِ هذا ما حييت، والآن تعالي معي إلى الخارج لتري سيارة التاكسي الجديدة، هيا لا تترددي، يستطيع المتجر التخلي عنكِ لدقيقة واحدة.

«أوه ...**هارون**! ألمح في عينيك المتضرعتين، أنك لن تحضى بالسعادة الحقيقية إلا عندما تلتقي بنصفك الآخر. هل تعرف أحداً آخر في بلاد الغربة هذه؟ لا بدّ لي أن أطأ الأرض الإسمنتية المُحرّمة لشوارع **أمريكا**، وأترك المتجر للحظات، مع أنه من المفروض «ألا أفعل ذلك...»

سمعتُ من ورائي صوت حفيف مكتوم أو ربما كان ذلك صوت البخار المنبعث من حاملات الوقود الواقعة تحت الأرض.

كانت التاكسي تقف في الخارج بهيكلها الناعم واللطيف بلون الزبدة. لكنني شعرتُ فجأةً بقشعريرةٍ قبل أن يطلب مني **هارون** لمسها قائلاً: «المسيها سيّدتي».

«تفجرت رؤية غير متوقعة من تحت جفوني كمن أشعل ألعاباً نارية بعشوائية وكظلام الليل فُتحت أبواب السيارة بجنون وكذلك صندوق التابلو. رأيتُ شخصاً منهاراً فوق المقود. هل كان رجلاً أم امرأة؟ هل كان الشعر مجعداً ولامعاً كشعر الخروف؟ هل هناك كدمات على الجلد؟ أم

أن هبوط الظلام هو السبب؟»

رحلت الرؤية فجأةً.

- سيدتي، هل أنتِ على ما يرام؟ وجهكِ شاحب كالصحف القديمة، يبدو أن إدارة ذلك المتجر لوحدكِ قد سبّبت لكِ التعب، قلت لكِ مراراً أن تضعي إعلاناً في صحيفة **إينديا ويست** تطلبين فيه موظفة تساعدكِ.

- أنا بخير **هارون**! السيارة جميلة جداً، لكن توخَّى الحذر.

- أوه ...سيدتي العزيزة، أنتِ تهتمين بي كثيراً، كما كانت تفعل جدتي عندما كنتُ في القرية، حسناً، أعطني حجاباً سحرياً كي أضعه في السيارة لجلب الحظ. عليَّ الذهاب الآن، وعدتُ الشباب أن ألاقيهم عند مطعم **أكبر** لشراء وجبات مميزة لهم.

«ربما يحتاج **هارون** إلى بعض الـ ...

لكنه رحل قبل أن أعرف اسم البهار الذي يحتاجه، فقد أغلق باب السيارة بسرعة خاطفة وشغل المحرّك الذي بدا صوته كدندنة رجلٍ متفائل، انبعثت رائحة خفيفة من البنزين توحي بروح المغامرة.

تيلو...لا تكوني خيالية.

في المتجر، كان استياء التوابل ينتظرني. طلبتُ المغفرة. لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير **بهارون** وسط الهواء البنّي المحترق. شعرتُ بطعم النحاس في لساني ككابوس تحاول الهرب منه بصعوبة لأنك لو استغرقت في النوم ستعيشه مرة أخرى. لكن **عيناك** ثقيلتان للغاية من شدة النعاس.

قد أكون مخطئة هذه المرة أيضاً.

لماذا لا أستطيع تصديق ذلك؟.

كالوا جيرا «بذور الكمون الأسود» ذكرتُ اسمها قبل أن تعود تلك الرؤية المخيفة «عظام متكسرة... دماء... صرخة خفيفة كخيط أحمر خانق» عليَّ الحصول على القليل من بهار **كالوا جيرا** تابل (الكوكب المظلم) **كيتو**. الحامي من العين الشريرة بلونه الأسود المائل للزرقة، يلمع

كغابة **السوندربان** «عندما اكتشفوه هناك أول مرة» كان شكله كدمعة العين ورائحته برّية وجافة كرائحة النمور، يجب الحصول عليه كي أحمي **هارون** من الخطر الذي يُخبِّئه له القدر.

ربما عرفتم مسبقاً أن اليدين هي من يستخلص القوة السحرية من التوابل، يُطلق عليها في العادة اسم «السلاح الحراري»!

لذلك، عندما تحضر الفتيات إلى الجزيرة أول ما تقوم به الأم الكبرى هو فحصها لليدين. كانت تقول مبررةً:

«اليد الجيدة لا تكون خفيفة كثيراً ولا ثقيلة كثيراً، الأيدي الخفيفة كمخلوقات الرياح تتأرجح هنا وهناك ولاتتبع إلا نزوتها. بينما تُسحب الأيدي الثقيلة التي تتعارض روحها مع وزنها فهي ليست إلا طبقات من اللحم تلتهمها ديدان الأرض، اليد الجيدة خالية من البقع البنيّة التي تُشير إلى مزاج صاحبتها السيء، حين تبسطها بثبات وترفعها نحو الشمس يجب أن تكون محكمة وخالية من الفراغات بين الأصابع حتى لا تنزلق منها التوابل والتعاويذ ويجب ألا تكون باردة وجافة كبطن الأفعى فعلى عاشقة التوابل أن تستشعر ألم الآخرين ومن المفروض ألا تكون يدها دافئة ورطبة كزفير عاشقٍ ينتظر عند زجاج النافذة، لأن واجبها يحتم عليها أن تتخلى عن عواطفها، هناك ختمٌ لزهرةٍ غير مرئية وسط اليد الجيدة، كزهرة الزنبق «رمز الفضيلة» تتوهج كاللؤلؤ عند منتصف الليل.

هل تملك أياديكم كل هذه المواصفات؟.

وأنا أيضاً لا تملك يداي كل ذلك.

قد يتعجب البعض، «إذاً، كيف أصبحتِ سيدةً للتوابل؟»

مهلاً!...سأخبركم بكل شيء.

منذ أن دلّتني الأفعى الكبرى على الطريق، أبحرتُ مع طاقمي ليلاً نهاراً بلا هوادة حتى استنفدوا كل قواهم. لم يجرؤوا على الاستفسار، إلى أين؟ ولماذا؟.

«وذات مساء شاهدنا عبر الأفق وصمةً تشبه الدخان أو الغيوم، لكنني عرفتُ أنه الملاذ أخيراً. فأصدرتُ أوامري، كان القراصنة نائمين من شدة التعب فقمتُ بالغطس وسط المحيط المظلم.

كانت الجزيرة بعيدة لكنني كنتُ واثقة من بلوغها. بدأتُ بالترنيم كي أتخفف من ثقلي وبدأتُ بدفع الموج الذي أصبح بخفة الهواء. لكن بما أن الجزيرة كانت لا تزال بعيدة توقفتُ عن الترنيم لتصبح ذراعاي وساقاي ثقيلة وتخرج عن سيطرتي وتلاشت قواي السحرية في هذه المياه الخاضعة لتأثير سحر مشعوذة قواها تفوق كل ما أملك. بدأتُ أتخبط بالموج وأبتلع مياه البحر المالحة كأيّ سباحٍ عادي، إلى أن تمكنتُ أخيراً من الوصول إلى الشاطئ بعد أن فقدتُ الوعي تماماً وغرقتُ في دوامة من الأحلام.

لا يمكنني تذكّر تلك الأحلام لكني لن أنسى الصوت الذي أيقظني منها. كان صوتاً بارداً ولطيفاً، لم يخلُو من قهقهة ساخرة، يصل إلى أعماق القلب.

«ما الذي قذفه لنا إله البحر على الشاطئ هذا الصباح؟»

كانت الأم الكبرى محاطةً بتلميذاتها ومن ورائها هالة من ضوء الشمس تعكس طيف من الألوان على رموشها. زحفتُ على ركبتيّ وحنيتُ رأسي نحو الأسفل برموشٍ ممتلئة بالرمال. أدركتُ ـ هنا في هذه اللحظة ـ أنني كنت عارية تماماً فقد جرّدني البحر من كل شيء،«ثيابي وقواي السحرية والغرور الذي لم يكن يفارقني» وقذفني لأجثو عند قدميها بهذا الجسد القبيح الداكن.

وبدافع الخجل سحبتُ شعري المغطّى بالملح لأستر نفسي وغطّيتُ صدري بذراعَيّ وحنيتُ رأسي. لكنها خلعت شالها ووضعته حول كتفيّ. كان ناعماً ورمادياً كحمامة سلام يفوح برائحة التوابل كلغزٍ لطالما وددتُ معرفته. كانت يديها ناعمة ببشرة محترقة ومجعّدة حتى المرفقَين، وكأنها كانت تُعرضهما لأشعة الشمس لوقتٍ طويل.

- من تكونين يا طفلتي؟

«من أكون؟ لم أعد أتذكّر. فقد تلاشى اسمي تماماً تحت شمس تلك الجزيرة، كنجمة في ليلة عابرة لم يعد لها وجود. استطعتُ تذكّره فقط بعد أن علّمتنا الأم خواص عشبة الذاكرة وساعدني ذلك على تذكّر الحيوات السابقة أيضاً».

- ماذا تريدين مني؟

«حدّقتُ في وجهها بصمتٍ، بدَت مُسنّةً وجميلة بتجاعيدها الفضية، لكن ليس كالجمال الذي يصفُ به الذكور النساء. لم تخلُ نبرة صوتها من اللطف كالرياح الأتية من أشجار القرفة التي خلفها، ورغم ظني أنها قرأت ما يدور داخلي «ربما أحضرت كلّ تلميذاتها إلى هنا بالطريقة نفسها». تنهّدت الأم قليلاً من شدّة التعب. فأدركتُ حينها أنه ليس من السهل تحمّل عبء العشق. أمسكَت يديّ اللتين أصبحتا مشتعلتين وفجأةً أصبحتا خفيفتين وثقيلتين ورطبتين في الوقت نفسه. ثم ظهر بعض النمش عليهما كالذي نجده على جسد طائر الزقزاق الذهبي. بدت راحتا يدَيّ كنبتة شوكيّة على وشك التفتح.

أفلتت الأمُّ الكبرى يديّ واندفعتْ بتردّد نحو الخلف.

ـ لا.

في كل عام تُعاد آلاف الفتيات إلى ديارهنّ لأنهن لا تمتلكن اليدين المناسبتين. لا يهمّ إن كنّ قادراتٍ على قراءة المستقبل أو السفر عبر السماء. فقوانين الأم الكبرى صارمة بشكل لا يصدَّق.

تقوم آلاف الفتيات سنوياً بإلقاء أنفسهن في البحر أثناء عودتهن خائبات إلى الديار؛ لأن الموت أرحم لهن من العيش كنساءٍ عادياتٍ تنشغلن بالطبخ والغسيل والاستحمام في البحيرة، تنجبن أطفالاً قد يغادرون المنزل يوماً ما. ولن تفارق صورة الأم الكبرى ذاكراتهنّ أينما ذهبن فتتحولن إلى أطياف مائية، مجرد أرواح من الضباب والملح تبكين بصوتٍ كصوت النورس.

ربما كنتُ على وشك أن أكون واحدةً منهن لأن عظام يديّ مخالفة للشروط. فذلك ما جعل الأم الكبرى تمتنع عن لمس يديّ مرّةً أخرى. رغم

ذلك، لطالما دفعني تَوقِي للانتماء إليها_كتلك الأمواج التي كنتُ أصارعها طوال الليل_ بالبقاء على الجزيرة، مع أني لا أملك كل الكفاءات المطلوبة.

تُعدّ العظام أهمّ ما يميّز اليد الجيدة، إذ يجب أن تكون ناعمة كحجر الصوان المصقول ومتكيّفة مع لمسة الأم الكبرى عندما تُمسك راحة يدك بيديها الدافئتين وتضع فيها التوابل بهدوء تام.

يجب على اليدين أن تدندن للتوابل.

بعد فترة من الزمن، أخبرتني الأم الكبرى وهي تهزّ رأسها أسفاً:

- كان عليّ إعادتكِ إلى ديارك، كانت يداكِ كبركانٍ على وشك الانفجار، كانتا محفوفتين بالمخاطر، لكنني لم أستطع.

- لماذا لم تفعلي أيتها الأم العظيمة؟.

- أنتِ الوحيدة التي استجابت التوابل ليديها، لقد جعلتِ التوابل تغنّي لكِ.

القرفة

دعوني أخبركم عن الفلفل الحارّ.

يُعدّ الفلفل الحارّ **لانكا** الأكثر فعّالية بين التوابل والأكثر جمالاً بلونه الأحمر الفاقع. ويسمّى أيضاً: بالخطر. يغنّي الفلفل الحار بصوت الصقر المُحلّق فوق التلال القاحلة:

- اسمي **لانكا**، ابن **آغني** إله النار انزلقتُ من بين أصابعه لأضيف نكهة جديدة إلى هذه الأرض القاحلة.

أوه...**لانكا**، أظن أنني مغرمة بك.

ينمو الفلفل الحارّ **لانكا** وسط الجزيرة داخل فوهة بركانٍ هادئ. لا يسمح لنا بالاقتراب منه حتى نبلغ المستوى الثالث من التدريب.

الفلفل الحارّ، تابل الخميس الأحمر «يوم الحساب». اليوم الذي نقوم فيه بحصد ما زرعناه...يوم العذاب والهلاك.

- أوه...**لانكا**، **لانكا**، يتدحرج اسمك أحياناً فوق لساني لأتذوّق طعمه الحارّ المُغري.

لطالما حذّرتنا الأم الكبرى من مفعولك الخارق.

- اسمعن يا فتيات، استعملنه فقط كعلاج أخير، من السهل أن نشعل حريقاً، لكن إخماده لن يكون سهلاً أبداً.

- أوه **لانكا**، هذا ما يجعلني أتردد في استخدامك، أنت الذي سمّى **رافانا** (مخلوق أسطوري شرير متعدّد الرؤوس)، مملكته المسحورة باسمك. مدينة المليون جوهرة، التي تحولت إلى رماد، لقد أغويتني أكثر من مرة، خصوصاً عندما دخل **جاغجيت** إلى المتجر.

في الغرفة الداخلية للمتجر فوق الرفّ العلوي هناك إناء مغلق بإحكام، بداخله أصابع حمراء متوهجة. عندما سأفتحه يوماً ما، ستسقط أصابع الفلفل الحار على الأرض وتشتعل. طبعاً عندما لا يكون هناك أي حلّ آخر أوه **لانكا**، يا من ولد من النار، يا من يطرد الشرّ.

دخل **جاغجيت** المتجر بصحبة والدته. كان يختبئ خلفها متمسكاً بثوبها رغم أنه في الحادية عشر من عمره تقريباً وطويل كالخيزران البرّي.

- أوه **جاغجيت**، كُفّ عن التشبث بي كالفتيات، أحضر لي رزمة **سابو باباد** «رقائق مستديرة من العجين المُتبّل».

جاغجيت ذو المعصمين النحيلين الضعيفين، الذي يعاني الكثير من المشاكل في المدرسة لأنه لا يزال يتكلم بلهجة أهل **البنجاب** «ولاية هندية». الصبي الذي وضعه الأستاذ في الصف الأخير بجانب طالب كسول، عيناه بلون الحليب. عندما وصل إلى **أمريكا** كانت أول كلمة إنكليزية تعلّمها «Idiot» (الأبله).

لحقتُ به، وجدته يحدّق برفوف رقائق العجين، كان مرتبكاً. كانت أسماء الأنواع مطبوعة على الرزم بالأحرف الهندية والإنكليزية. أعطيتهُ رقائق من **سابو باباد** وهمستُ في أذنه:

- انظر، هذه هي، الرقائق البيضاء المستديرة، ستعرف مكانها لوحدك في المرة القادمة.

أوه...**جاغجيت** الخجول ذو العمامة الخضراء التي يسخر منها زملاؤك في المدرسة. هل تدرك أن اسمك يعني: «فاتح العالم».

بدأت أمه تصرخ من بعيد:

- ما الذي يؤخرك **جاغي**، لا تقل لي إنك لم تعثر على الرقائق، هل أنت أعمى لهذه الدرجة؟ أكل الشيب رأسي وأنا أنتظر عودتك من الداخل.

كان زملاؤه في المدرسة يسحبون العمامة من فوق رأسه «عمامة خضراء بلون صدر الببغاء». ثم يبدؤون بتفتيت القماش وهم يضحكون على شعره الطويل غير المقصوص. طبعاً بعد أن يطرحونه أرضاً.

كانت ثاني كلمة إنكليزية تعلّمها «Asshole» الأحمق. كانت ركبتاه تنزفان فوق الحصى.

لطالما عضّ على شفتيه كي يحبس بكاءه. ثم يرتدي عمامته الملطخة بالطين، قبل أن يدخل إلى المنزل.

- **جاغجيت** دائماً ما تلوث ثياب المدرسة بالطين، أزرار ضائعة، قميص ممزق، أيها **البادماش** (الشقي) هل تظن أنني أملك جبلاً من المال؟.

في الليل، يبقى مستيقظاً وهو يحدّق إلى النجوم المضيئة كاليراعات في مزرعة جدّته، خارج مدينة **جلندر** . كانت الجدّة تغنّي للمطر بلغة أهل **البنجاب** وهي تجمع حزماً من نبات **الساج الأخضر**،«كلون عمامة رأسه».

«أوه، ...**جاغجيت** هل يعودون لمضايقتك بعد أن تغمض عينيك؟ هل هناك حلّ آخر برأيك؟ ضحكاتهم الساخرة، طريقتهم في البصق، أيديهم التي تسحب سروالك أمام الفتيات اللواتي تقهقهن..... أوه، المخنث.

«هيا يا ابن العاهرة، تكلّم الإنكليزية، ارفع صوتك، أيها الزنجي المدلل»

بعد كل ذلك... تأتي والدتك...

«**جاغي** لماذا لا تريد الذهاب إلى المدرسة؟ وماذا بشأن والدك المسكين، الذي يقضي كل يومه في المصنع من أجلك؟ ربما صفعتان قد تفيان بالغرض، أيها المدلل.

تقدمت والدته لتدفع الحساب:

- هاكِ بعض الحلويات الهندية.

ـ أوه...لا، لا مدام.

ـ على حساب المحل.

«لمحتُهُ يحدّق بتلهف إلى قطع الحلويات البنّية بنكهة القرنفل والهال والقرفة. ابتسم لي ابتسامة خفيفة خجولة».

هذه لك **جاغجيت** بعض القرنفل والهال المطحون لإنعاش الفم.

«هذه الليلة، سأنثر بعض القرنفل في الهواء من أجلك. ستقوم رياح الشمال بحمله إلى أستاذ المدرسة كي يفتح بصيرته. إضافةً إلى بعض **اللافانغ** «القرنفل» تابل الشفقة، الذي سيجعل والدتك تترك حوض الغسيل، لتحضنك بين ذراعيها المنقوعين بالصابون، وتخاطبكَ قائلةً: عزيزي **جاغي**، أخبرني بكل ما حصل.

كما وضعتُ عوداً من القرفة، حشرتهُ خلسةً في عمامتك قبل أن تخرج من المتجر. **دالتشيني** (القرفة) «صانع الأصدقاء»، لونها بنّي دافئ، كلون البشرة السمراء. ستجمعك مع رفيق تركض وتضحك وتفرح معه، وهو يحدثك قائلاً: «انظر، هذه هي **أمريكا**، ليست بلاداً سيئة لهذه الدرجة».

القرفة، البهار الذي يقضي على الأعداء ويمدّكَ بقوةٍ تصل إلى ساقيك وذراعيك وفمك، هو من سيجعلهم يهابونك كلما رأوك.

عندما اجتزنا طقوس التطهير وأصبحنا جاهزات لمغادرة الجزيرة، كي نواجه مصائرنا المختلفة خاطبتنا الأم الكبرى قائلة:

«اسمعن يا فتيات، حان الوقت لتحصلنَ على أسمائكن الجديدة. لأنكن عندما وصلتنّ إلى هذه الجزيرة، تخلّيتُنّ عن أسمائكن القديمة، وبقيتنّ من دون أسماء منذ ذلك الحين، لكن دعوني أسألكنّ ثانيةً وللمرّة الأخيرة: «هل أنتنّ راغبات بأن تصبحن عاشقات للتوابل؟»، لم يفُت الأوان بعد. بإمكانكنّ أن تختَرن حياةً أسهل، هل أنتن مستعدّات للتخلّي عن أجسادكنّ الجميلة والعيش داخل جسدٍ قبيح وهرم مع سلسلة لا تنتهي من الخدمات؟ هل أنتن قادرات على عدم مغادرة المكان الذي ستعملن فيه، متجر، مدرسة، أو ربما مستشفى؟ هل أنتن مستعدّات لتكريس حبّكنّ للتوابل فقط؟».

كانت زميلاتي تقفن بجانبي بأثوابهن المبللة بمياه البحر التي سكبتها الأم عليهن. كنّ صامتات. ترتجفن قليلاً. وقد بدت أكثرُهن جمالاً، الأكثرَ ارتباكاً بيننا. آه... عرفتُ الآن كيف يفترش الغرور أعماق القلب. الغرور «الوجه الآخر للخوف من العيش دون حبيب».

في ذلك اليوم وبما أنني التلميذة الأكثر ذكاءً والتي برعت في تنفيذ كل التعويذات والترنيمات، واستطاعت التحدث بطلاقة إلى التوابل، حتى الخطيرة منها والأكثر غروراً وتطلّعاً، فقد رَمقتُ الجميع بنظرة ملؤها السخرية والشفقة، ثم نَظرتُ مباشرةً في عيني الأم الكبرى وبشجاعة أعلنت لها:

- أنا مستعدّة.

«بما أنني لستُ جميلة، فليس لديّ ما أخسره».

وخزني تحديق الأم الكبرى في وجهي، كنبتةٍ شائكة.

لكنها قالت في النهاية:

- ممتاز.

وطلبت منا الاقتراب، عبر ضباب البحر، كان نور الجزيرة اللؤلؤي يغطي المكان. وفي السماء يبدو قوس قزح كأجنحة طائر العنقاء. ركعت أول فتاة، فانحنت الأم الكبرى لتكتب لها اسمها الجديد على جبينها. وعندما بدأت بالكلام، تغيّرت ملامح الفتيات، فقد ارتسم شيء جديد على وجه كل منهن.

- سيكون اسمكِ **أباراجيتا** (المرأة التي لا تُقهَر) نسبةً للزهرة التي ندهن جفوننا بعصارتها، والتي ستقودكِ إلى النصر.

- أما أنتِ، فسأُطلق عليكِ اسم **بيا**. نسبةً لشجرة **البيال** التي يعطي رمادها الكثير من الحيوية والنشاط.

- وسيكون اسمكِ أنتِ...

«قاطعتُها»

- أمَّنا الكبرى، سيكون اسمي، **تيلو**.

- **تيلو؟**

كان الاستياء واضحاً عليها. نظر الجميع إليّ بخوف.

- أجل، **تيلو**... اختصاراً من **تيلوتاما**.

كنتُ خائفة أنا أيضاً. لكنني حاولتُ إخفاء ذلك.

كم كنتُ ساذجة عندما اعتقدتُ أنني قادرة على إخفاء ما بداخلي عن الأم الكبرى، خصوصاً أنها هي من علّمني كيف أقرأ قلوب الآخرين.

- لم تسببي لنا سوى المشاكل منذ وصولكِ إلى هنا، ربما هوايتك اختراق القوانين، يبدو أنه كان عليّ إعادتكِ إلى ديارك عندما التقيتكِ أول مرة.

ما زلتُ أتساءل لم تكن غاضبة كثيراً في ذلك اليوم. هل أشبهها بشيء، ربما جعلتها تتذكّر شبابها؟.

سمعتُ صوت حفيف أغصان شجر **البانيان**، أو ربما كانت الأم تتنهّد:

- هل تعرفين معنى اسم «**تيلو**»؟

كنتُ مستعدّةً لهذا السؤال المتوَقّع:

- بالطبع يا أمّنا، (**تيل**، **تيلو**) تعني «بذرة السمسم» والتي تتأثر بكوكب الزهرة، لونها ذهبي ضارب إلى البنّي وكأنها لامست ناراً حامية. زهرتها صغيرة وقويمة ومسنونة لدرجة تجعل الأمهات يتمنّين أن تملك بناتهن أنوفاً تشبهها وعندما نعجنها معً خشب الصندل تصبح دواءً يشفي من أمراض القلب والكبد ولو قمنا بقليها في زيتها المستخلص منها، فإنها تساعد على تجديد الروح والتخلص من اليأس، سيكون اسمي، **تيلوتاما**، روح السمسم، بذرة الحياة، سيدة الازدهار والأمل.

ضحكت الأم بصوتٍ جافّ كأوراق شجرةٍ متيبسة:

- تعجبني ثقتكِ بنفسكِ يا فتاة، لقد اخترتِ اسم أكثر الحوريات جمالاً في بلاط **إندرا** (إله المطر)، **تيلوتاما** «أكثر الراقصات روعةً»، «جوهرة بين النساء»، لا تقولي إنكِ لستِ على علمٍ بذلك.

نكّستُ رأسي وعدتُ كالسابق مجرّد فتاة جاهلة، تقف عارية على

الشـاطئ، تتعـثر فـوق الحجـارة الزلقـة وهـي في يومهـا الأول. لطالمـا كانـت تحرجنـي هكـذا. كنـتُ عـلى وشـك كرههـا لـو لم أكـن أحبهـا في الأصـل. فقـد كانـت الأم الأولى بالنسـبة لي. خصوصـاً بعـد أن تخلّيـتُ عـن الأمومـة إلى الأبـد. بدأت تداعب شعري بأطراف أصابعها السحريّة:

- آاه... يـا صغـيرتي، لقـد تبعتِـي قلبـكِ، أليـس كذلـك؟ لكـن، تذكّـري عندمـا عـَيّن **براهـما** (الإلـه الخالـق عنـد الهنـدوس) **تيلوتامـا**، لتكـون زعيمـة الراقصـات في بلاط **إندرا**، حذّرها من عشق الرجال وأمرها أن تكرّس كلَّ حبِّها للرقص.

- بالطبع يا أمّنا.

شـعرتُ بفـرح عـارم، لأننـي انتـصرت بعـد عـراكٍ طويـل وحصلـتُ أخـيراً على ما أريد. انحنيتُ وقبّلتُ راحتيها الجافّتين:

- هل من عادتي خرق القانون؟ ألم أقطع عهداً على نفسي؟.

بـدأت الأم تكتـب اسـمي الجديـد عـلى جبينـي. أخـيراً وإلى الأبـد. بعـد كل تلـك الأسـماء التـي اتخذتُهـا. اسـمي الحقيقـي الـذي يجـب أن لا يعرفـه أحـد غـير أخـواتي عـلى الجزيـرة. كان إصبعهـا بـارداً، يتحـرك بخفّـة كالزيـت الصـافي. امتلأ الهواء بالشذا النقيّ لبذور السمسم.

- تذكّـري أيضـاً يـا صغـيرتي... لقـد عصـتْ **تيلوتامـا** أوامـر **براهـما**، فأخفقـت ونُفيـت، حيـث عاشـت بـين البـشر كفانيـةٍ بسـبعة أرواح، هل تسـمعين؟ سـبعة أرواح قاتلـة مـن المـرض والشـيخوخة، حيـثُ ينظـر البـشر إليـكِ باشـمئزاز، مـن منظر الجذام الذي لن يفارق جسدكِ السقيم.

- لكنني لن أخفق يا أمّنا، أعدُكِ بذلك.

لم أكـن أرتجـف عندمـا وعدتُهـا. قلبـي مفعَـمٌ بالثقـة وبعشـقي للتوابـل. كـما أصبحـت أذنـاي مليئتَـين بالموسـيقى التـي سـنرقص عليهـا معـاً. فنحـن نملـك القـوى السـحرية ذاتهـا. لسـتُ بحاجـةٍ إلى حـبّ أيّ رجـلٍ فـانٍ. أؤمـن بذلك كلّياً.

الحلبة

أعطني يدك، افتحها، أغلقها الآن... هل تشعر بذلك؟.

نبات **الحلبة** الصلب كالحصى، عندما يفترش راحة اليد، يبدو لونه الأنيق كالرمال المتجمعة عند أسفل جدولٍ ضيّق. لكن، عندما تضعه في الماء، يتفتّح كالزهرة.

ضع بذورها بين أسنانك وتذوَّق طعمها الحلو- المرّ، كطعم الأعشاب المائية البرّية أو الإوز البرّي. **الحلبة** «تابل يوم الثلاثاء»، حين يكون الهواء أخضر اللون كالطحالب المبتلّة. أضع هذا البهار عادةً في لحاف مدروز مع بعض أوراق **البيبيول** (شجرة التين) ومن ثم أبدأ بسرد القصص كما كنتُ أفعل على الجزيرة. لكن الفرق هنا أنه ما من أحد ينصت لها.

«أيتّها **الحلبة**، ساعدتَني حين حضرت **راتنا** إليّ وقد شعرت باشتعال السمّ في رحمها نزولاً عند رغبات زوجها الهائم، كما طلبتُ منك العون عندما هجر **راماسوامي** زوجته، والتفت نحو ملذّاتٍ جديدة».

استمعوا لأغنية الحلبة:

«أنا **الحلبة** منعشةٌ كرياح النهر عندما تلامس اللسان، أزرع الرغبات في الأراضي القاحلة».

ناديتُكِ عندما أراني **ألوك** «الذي يحبّ الرجال» الجروح المتقرّحة على

جلده»، وقد اعترف: «هذا ما حصل». وعندما رفعت لي **بينيتا** وجهها الحزين الذي **بدا** كالزهرة المحترقة، كانت تعاني من ورم كروي ككتلة من الرصاص في صدرها، لطالما نصحها الأطباء باستئصاله. أما زوجها، فقد كان يحوم داخل المتجر بخطوات متوترة، ويسأل: ماذا أفعل؟ أرجوكِ!.

«أنا الحلبة! أجدِّد جمال الأجساد البشرية، لتصبح قادرة على الحب»

ميشي (بذور الحلبة) بذور منقّطة. كانت **شاباري** (أكبر مُعمّرة في العالم) هي أوّل من قام بزراعتها. يسخر الشباب من مفعولها ويظنّون أنهم لن يحتاجوا إليها. لكنهم يوماً ما وفي أقرب وقت ممكن سيدركون أنهم كانوا مخطئين.

أجل... جميعهم، حتى شلّة فتيات **الجهنمية** «نبتة الجوهرة القرمزية».

عندما تدخل فتيات **الجهنمية** متجر التوابل كسرب من حشرات اليعسوب، تُحرّك ضحكاتهن شيئاً ما بداخلي «أمواج مالحة ودافئة تحبس الأنفاس وتسبِّب الغرق». وعندما تتجولن في المتجر المظلم العتيق «ككتل من الغبار المتلألئ العائم وسط خيوط من أشعة الشمس المتسللة إلى الداخل» أشعر_ وللمرّة الأولى_ بالخجل من قذارة المتجر وأتمنّى لو كان جديداً ونظيفاً.

للبعضهنّ شعر أسود مجدول بأناقة، لامع كخشب الأبنوس، أما الأخريات، فشعرهنّ متموّج كالشلّال، ينسدل حول وجوههن الواثقة والمرتاحة وكأنهن لم تتعرضن لأية مشاكل من قبل.

تلبسن عادةً أساور متعددة الألوان وأقراطاً كبيرة متأرجحة تلامس الأطراف الناعمة للرقبة وأحذية ذات كعوب عالية برّاقة، تبدو الشفاه والأظافر المطليّة كأزهار **الجهنمية** القرمزية.

كنّ دائماً تخترن الفستق لتحضير **البولاو** (طبق هندي) وبذور **الخشخاش** لتحضير **الروغان جوش** (طبق هندي)، معتمدات طبعاً على وصفات الطعام الموجودة في كتب الطبخ. لاحظتُ أنهن لا تُفضِّلن الأرزّ والطحين والبقول والكمّون والكزبرة.

لا تستطيع فتيات الجهنمية رؤية وجهي الحقيقي، خصوصاً عندما تبدأن بالأسئلة: «هل **الراسمالاي** (حلوى هندية) طازجة؟ أين تضعين **الأمشور** (مسحوق المانجو)؟

كن تتحدثن معي بنبرة عالية، يسمعها الأصم ويدركها الأبله، تشبه إلى حدٍّ ما تغريد الشحرور.

شعرتُ بالغضب للحظة وصرختُ داخلي: «غبيّات، يبدو أن المَسكرة قد أصابتهن بالعمى» بدأتُ أفتل أوراق الغار بأصابعي اللواتي ألقَينَ بها باستهتار فوق الكاشير.

بإمكاني جعلهن أميرات، «تسبحن وسط محيط من العسل والزيت، تحيَيْنْ في قصور من السكّر، تُحوّلن كل شيء إلى ذهبٍ بزهرة ياقوتية واحدة موضوعة فوق راحة اليد. القليل من مرهم جذورِ اللوتس فوق حلمة الصدر ستجعل الرجال يجثون تحت أقدامهن». طبعاً... إن أردتُ ذلك أو بالأحرى لو استطعت.

«تعتقدن أنهن متميزات محظوظات وبعيدات عن كل المخاطر. لكن قطرة واحدة من عصارة **الجوز** فوق نبات (اللفاح)، طبعاً بعد أن أهمس أسمائهن فوقه، سيحصل ما لا ...

فجأةً، سقطت من قبضتي حفنة من **الغار** كنتُ أفتت أوراقه وطَفَتْ رغبة جامحة داخلي، كنمرٍ مفترس كان مختبئاً لسنوات.

بإمكاني غلي بتلات الورد مع بعض الكافور وطحنها بعد ذلك مع ريش الطاووس. بعدها، سأبدأ بهمس بعض الكلمات السحرية لأتخلص من هذا القناع الذي ارتديتهُ عندما غادرتُ الجزيرة. وعندما يسقط القناع على الأرض كجلد الأفعى القديم، ستخرج **تيلو** الحقيقية، مرتديةً وشاحاً برّاقاً من الألماس. وستصبح تلك الفتيات كالطين المكشوط من الأحذية عند عتبة الباب، مقارنةً بجمالها.

جرحتُ راحة يدي بأظافري. تأتي الدماء... بالألم والعار.

أخبرتني الأم الكبرى قبل أن أغادر الجزيرة:

سيكون هناك الكثير من الإغراءات، خصوصاً يديكِ اللتين تشبهان الحمم البركانية وتريدان الكثير من هذا العالم الواسع، سيكون قلبكِ المشتعل قادراً على الحب بسهولة، كما سيكون مستعداً للكراهية والحسد. تذكري الهدف الوحيد من القوى السحرية التي تملكينها؟

«سامحيني يا أمنا!»

شعرتُ بالندم ومسحتُ يديّ بطرف ثوب الساري الذي كنتُ أرتديه «ثوب قديم مُرقّع وملطخ، يحميني من الغرور الذي يحرق جدران جمجمتي. زفرتُ البخار الأحمر الضبابي وعندما تنفست، تشبّثتُ برائحة التوابل الزكية المنعشة القوية.

استعدتُ وعيي مجدداً .

ثم بدأتُ أبارك فتيات (الجهنمية) «باركتُ عظام المرفقين والوركين المخفيين تحت أثواب **السلوار** (ثوب هندي شعبي) الحريرية وجينزات **كالفين كلاين** التي كانت بعضهن تلبسنها».

ازداد شعوري بالندم، فشرعتُ أباركُ أيضاً راحات اليدين الرطبة، المُمسكة بزجاجاتٍ تحوي مخلل الليمون وعلب من أوراق **شجر الباترا** (نوع من الأشجار يعبدها الهندوس). حيث ستشرعن بطبخها هذه الليلة للعرسان أو العشاق، لأنهن على استعداد دائم للزواج أو بالأحرى للـ..

أغمضتُ عينيّ وتخيلتُ كيف ستكون السهرة...

«أضواء خافتة، وسائد حريرية بلون الليل مطرزة بمرايا صغيرة، موسيقى هادئة من بعيد **ساكسفون أو سيتار** (آلة موسيقية) «ثم تبدأن بتقديم البرياني المطبوخ بالسمن للرجال، إضافةً لزبادي **الرايتا** (لبن بالخيار والتوابل) وبعض أوراق شجر **الباترا** المُتبلة بالحلبة.

أما بالنسبة للحلويات ...

«**جولاب جامون** (حلوى كرات الحليب) بلون الورود الداكنة»

«بعد أن تخبو عيون الرجال، كالورود تحت سماءٍ عاصفة، تبدأ الفتيات بتذوق كرات الحليب، فيثير منظرهن شهوة الرجال الذين لن يتوقفوا عن المرح طوال الليل».

أستطيع رؤية كل ذلك، يا للروعة، لكنني حزينة...

تخلصتُ من الحسد الذي كان يملأ قلبي. فالفتيات لسن إلا مخلوقات بشرية ولدن لغايات معينة وأنا أيضاً خُلقتُ لهدف معين. خرج كل الحسد من جسدي كخروج القيح الأخضر من الحلق.

بينما كنتُ أحزم كل مشتريات الفتيات، بدأتُ بهمس كلمات مباركة، وقدّمتُ لهن حزمة جديدة من أوراق **الغار** الهشة والسليمة ... مجاناً.

«من أجلكن يا عزيزاتي، يا من تتوهج أجسادهن العارية في السرير كالزعفران وتفوح أفواههن برائحة الحلبة و**البان باراغ** (نبات التنبول)، و**الإيلاتش** (الهال)، احتفظتُ بها كلها في مكانٍ آمنٍ لتبقى عطرة، خصبة مغرية».

اعتدتُ وقت النوم، أن أضع سكيناً تحت الفراش. لطالما كنتُ أفعل ذلك، حتى أصبحت الشفرة الضاغطة على الطرف الأيسر، تُشعرني وكأنني نائمة قرب عشيقٍ ما.

تيلو، أنتِ بارعة في الكلام عن العشاق.

أحب هذه السكين (مع أنها ليست لي). أعطتني إياها الأم الكبرى قبل أن أترك الجزيرة. «كم أذكر ذلك اليوم... كانت أجنحة الفراشات البرتقالية لا تتحرك من الحزن» كانت تُعطي كل واحدة منا هدية تذكارية. حصل بعضهن على آلة الفلوت وحصلت أخريات علَى البخور أو نول للخياطة. وحصل قليلون فقط على أقلام حبر. أنا الوحيدة التي حصلت على سكين.

همست الأم في أذني بينما كانت تضعها في يدي «لتبقي عفيفة».

كانت السكين باردة كمياه المحيط، حادّة ومرنة، كورقة **اليوكا** (نبات صحراوي) التي تنمو عند أطراف البراكين. عندما انحنيتُ لأقبّل النصل،

سمعتُ طنينها... كانت تغني لي.

أضافت الأم... «لتوقظكِ من الأحلام».

تريدني بهذه السكين أن أتخلص من الماضي ومن المستقبل أيضاً.

تريدني أن أهدهد للبحر ما حييت.

أضعها كل ليلة تحت الفراش وفي كل صباح، أُخرجها وألفّها بقطعة قماش سميكة ثم أضعها في الكيس الذي أربطه عادةً حول خصري. لأن للسكين استعمالات أخرى أيضاً ... وكلها خطيرة.

لا بد أنكم تتساءلون، كيف يبدو شكلها؟

شكلها عادي ومألوف، كأي سكين. فهذه هي طبيعة السحر الحقيقي، والذي يكمن في قلب حياتنا اليومية حيث يقوم بتحقيق المعجزات، طبعاً عندما نستطيع النظر إلى أبعد من أنوفنا. وبالتالي تستطيعون شراء مثل هذه السكين من أي متجر «**ثريفتي**، **بي ليس**، أو **سوبرماركت سيفوي**».

أصبح المقبض الخشبي للسكين باهتاً من التعرق، ولم يعد النصل يلمع كالسابق. أوه ... لكنه حادّ وفعّال بشكل لا يُصدق.

لو سألني أحدكم «كم من الوقت عشتُ على الجزيرة» لن أستطيع الإجابة، لأن للوقت معنى مختلف في ذلك المكان. كنا نعيش أيامنا بهدوء. رغم ذلك، كان الوقت يمضي بسرعة كبتلة زهرةٍ جرفها تيار سريع نحو البحر. وإن لم نُمسك بها ونتعلم من دروسها، ستضيع منا إلى الأبد. ربما تُفاجئكم الدروس التي تعلمتُها على الجزيرة. لا بد أنكم تظنون أن حياة عاشقات التوابل مليئة بالغموض والألغاز والمخاطر. أنا لا أنكر ذلك لأن ما تعلمناه من السحر باستخدام لتحقيق أهداف معينة قد يُدمر حياتنا إن أسئنا استخدامه. لكننا في الحقيقة كنا نقضي معظم وقتنا في التنظيف والخياطة وإشعال المصابيح وقطف السبانخ البرية وتحميص خبز **الشباتي**، وتجديل الشعر. تعلمنا الأناقة والاجتهاد في العمل والتعاون. كما كنا نتسترّ على بعضنا البعض، تجنباً لغضب الأم الكبرى، التي كان لسانها

يلسع كالبرق. لطالما تساءلت «هل صحيح أن التعصب أو التستر يساهم في ترسيخ المعنى الحقيقي للزمالة؟». والأهم، أننا تعلمنا كيف نواسي زميلاتنا ونشعر بأحزانهن دون النطق بكلمة واحدة. وبذلك، لم تعد حياتنا مختلفة كثيراً عن حياة الفتيات اللواتي كن في قريتنا الأصلية. لطالما شعرتُ بالغيظ واعتبرت تلك النشاطات مجرد مضيعة للوقت «أنا من تحتقر الحياة الرتيبة، أعرف أنني خلقتُ لغايات أسمى». أصبحت أتساءل الآن إن كان كل ما تعلمتهُ على الجزيرة جدير بالاهتمام.

ذات يوم وبعد أن مضى على بقائنا في الجزيرة وقتاً طويلاً، صعدنا مع الأم الكبرى إلى الجبل حيث البركان النائم.

- اسمعن أيتها السيدات، لقد علّمتكن كل ما أعرف، بعضكن تعلّمن الكثير والبعض الآخر تعلّم القليل.

«حدّقت في وجهي بتركيز...»

- وهناك من تعلّمت القليل لكنها تدّعي معرفة الكثير.

«ابتسمتُ وظننتُ أنها تمزح. فقد كنتُ على يقين أنني أملك مهارات لا تملكها الفتيات الأخريات».

«انتبهت الأم لابتسامتي»

ليس لدي ما أقدمه لكنّ أكثر من ذلك، يجب أن تخترن الآن الأماكن التي ستذهبن إليها.

هبّت رياح عاصفة برائحة غامضة، وبدأ رماد البركان الأسود يدغدغ أصابع أقدامنا، طوقتنا قمة البركان، فجلسنا بصمتٍ ننتظر ماذا سيحدث.

أخذت الأم الأغصان التي أعطتنا إياها من قبل، ثم لوحت بها لتتحول إلى مروحة. لم نكن نعرف ما نوع تلك الأغصان. رغم كل ما تعلمناه، كانت تُخفي عنا الكثير. بدأت تلوح بالمروحة، فتشكلت من حولنا زوبعة من الضباب.

- انظرن يا فتيات.

انبثقت صور لأماكن متعددة، من خلال الضباب الحليبي الكثيف «ناطحات سحاب قرب بحيرة كبيرة كالمحيط، نساء ورجال بيض يرتدون معاطف من الفرو الأبيض يسيرون فوق الثلوج التي تغطي أرصفة الطرقات ويعبرون الشارع بحذر لتجنب الزنوج، فتيات سمراوات تضعن أحمر الشفاه وتتكئن على شرفات حيّ فقير، بانتظار الزبائن، قصر من الرخام، جدرانه مزينة بشظايا من الزجاج، قادرة على تقطيع إنسان، طريق وعر مليء بمتسولين يبدون كالأشباح من شدة الفقر، امرأة تنظر من خلال نافذة منزلها إلى عالم خارج متناولها وعلى جبينها **سندور الزواج** (بقعة حمراء تضعها الفتاة الهندية عندما تصبح متزوجة) الذي يبدو ككتلة من الدم. شوارع ضيقة مرصوفة بالحصى، منازل مغلقة، رجال يرتدون الطرابيش ويأكلون تمر المدجول، يبصقون على أي هندي يمر من أمامهم»

هبّت من حولنا رائحة من الكراهية والخوف. بدأت الأم الكبرى تتمتم...

- تورونتو، كالكوتا، روالبيندي، كوالالمبور، دار السلام.

ظهرت صور جديدة «عواميد إضاءة محترقة ممتدة عبر الشوارع. واجهات محلات الشوي. أزقة من القرميد مكتوب عليها بالبخاخ الأسود، ثوب زفاف، صوت آلة **الشهناي**، عروس ترتدي **الشراره** (ثوب الزفاف في الهند) وتقابل للمرة الأولى الرجل العجوز الذي أجبرها والدها على الزواج منه. عمال يرتدون العمامات ويحتسون الخمر ويلعبون الورق قرب المجاري المفتوحة، مصانع الملابس التي تفوح برائحة النشاء والعرق وغارات الهجرة، نساء مُقيدات ومحبوسات داخل شاحنات صغيرة، أطفال يسعلون ويقاومون الإغماء وسط الغاز الحارق للرئة، صراخ يتعالى قائلاً: أيها **الهندوستاني** اللعين، اللعنة عليكم يا معشر الهنود، عد إلى ديارك أيها الباكستاني. زنوج يرتدون قمصاناً ملونة ويتجولون في الشوارع المكتظة، ويحدّقون بمكيفات التبريد من وراء نوافذ المحلات الهندية. حشدٌ كبير من المُصلين يتدافعون ويرددون الصلوات، يحملون على أكتافهم مجسّم

ضخم لرأس فيل متوجهين إلى بقعة مليئة بالسموم.

تابعت الأم...

- لندن، دكا، هاسنابور، بوبال، بومباي، لاغوس.

ظهرت صور لوجوه سمراء حزينة، تنظر إلينا دون أن تعلم بوجودنا، وتصرخ من بعيد. نظرنا إليهم بصمت من شدة الدهشة.

كنا ندرك صعوبة مغادرة الجزيرة التي اعتادنا العيش فيها متنعمات بقطرات المطر الدافئة التي تتساقط علينا كحبوب الرّمان. وعندما كنا نستيقظ على صوت العصافير، وننام عند سماع غناء الأم الكبرى. ونسبح عاريات وبدون خجل وسط بحيرات من أزهار اللوتس الزرقاء. أدركنا الفرق الكبير بين كل ذلك الجمال، والعيش في عالم البشر المليء بالقسوة والظلم. لكن ما رأيناه في الوجوه الحزينة أمر آخر تماماً.

- لوس أنجلوس، نيوجيرسي، هونغ كونغ، كولومبو، سنغافورة، جوهانسبرغ.

أصبحت صور البلدان تمرّ بسرعة خاطفة من أمام أعيننا. بدأت الفتيات بالاختيار. كانت أصواتهن منخفضة من الريبة عندما نظرن إلى الصور المتراقصة في الهواء. لم يعد هناك أية مهام أخرى على هذه الجزيرة.

- وداعاً يا أمنا، سأختار تلك البلاد الواسعة.

- وأنا سأختار هذه.

- أمنا الكبرى، أنا خائفة، قومي أنتِ بالاختيار عني.

بدأت الأم بمساعدة الفتيات في اختيار الأماكن التي ستعشن فيها بقية حياتهن «**دبي، أسانسول، فانكوفر، إسلام آباد،! باتنا، ديترويت، ميناء إسبانيا**».

بقي فقط بعض الصور المتطايرة في الهواء. لكنني لم أختر أياً منها. انتظرتُ قليلاً. لم أعرف لماذا.

وأخيراً رأيتُها «صفوف من أشجار الكينا والصنوبر، عشب جاف كجلد

الأسد، بريق من الزجاج والخشب الأحمر المصقول، فيلات **كاليفورنيا** الفخمة المُشيدة فوق تلال متداعية.

تغيرت الصور بينما كنتُ أشاهد...

«مساكن قذرة مكومة كصناديق الحبوب، أولاد متسخون يطاردون بعضهم البعض وسط شارع من الإسمنت والأسلاك الشائكة.

هبط الليل فجأةً فظهرت صور جديدة «رجال بمعاطف ممزقة، محتشدون حول حريق مشتعل داخل حاوية قمامة، ومن بعيد انحسرت المياه واحترقت الأضواء البعيدة الجميلة على قمم الجسور.

مع كل ذلك انتظرت البلاد التي امتلأت أحيائها بالرصاص، من يأتي لمساعدتها بفارغ الصبر. عرفتُ اسمها قبل أن تنطقه الأم الكبرى:

ـ **أوكلاند**، المدينة الثانية عند الخليج، مدينتي.

خاطبتني الأم:

- أوه ... **تيلو**، يجب أن تختاري البلد المناسب، فكري، فكري جيداً. من الأفضل أن تختاري مستوطنة هندية أو سوق في مدينة إفريقية أو أي مكان آخر في العالم **قطر، باريس، سيدني، كينغستون، تشاغواناس**.

- لماذا أيتها الأم الكبرى؟

«تنهدت ونظرت نحو الأفق للمرة الأولى لم تنظر في عينيّ مباشرةً انتظرتُ لوهلة، قالت أخيراً:

- لدي شعور غريب.

يبدو أنها رأت ما لم تخبرني به، بدت ضعيفةً لوهلة، لم أرها تحني ظهرها بهذا الشكل من قبل. بدأتُ أقفز بتحد، أردتُ عبور الحافة التي بدت كأسنان الأسد. أخبرتُها أن ذلك المكان هو الأنسب لي، حدّقت بي جيداً ثم قالت «اذهبي إذاً، لن أمنعك».

قلتُ في نفسي بينما كنتُ أطير داخل دوامة من الفرح، لقد ربحتِ يا **تيلو**، ربحتِ.

في السـاعات الأخـيرة مـن الليـل، جمعنـا بعـض الحطـب ووضعنـاه في منتصـف الـبركان، اسـتعداداً للرحيـل. بدأنـا بالرقـص حولـه وغنينـا **للشـمباتي** (طائـر خـرافي) الـذي ينبعـث مجـدداً مـن النـيران، كـما سـيحدث لنـا بعـد قليـل. كنـتُ آخـر مـن تقـف في الصـف. وبينـما كنـا نطـوف حـول محرقـة الجثـث، نظـرتُ إلى وجـوه زميـلاتي. لم تجفـل أيٌّ منهـن عندمـا اندلعـت النـيران بكلمة واحدة من الأم الكبرى.

نـيران **الشـمباتي**. منـذ أن وصلنـا إلى الجزيـرة، سـمعنا عـن هـذا المخلـوق، ورأينـا صـوراً لـه مطبوعـة عـلى بـاب غرفـة نـوم الأم الكـبرى، بعلامـات سـحرية عـلى شـكل «طائـر كـبير يرفـع منقـاره النـاري نحـو السـماء». عنـد الطـرف الآخـر مـن بـاب الغرفـة، حيـث السريـر المُحـرّم علينـا لمسـهُ (نحـن عاشـقات التوابـل)، هنـاك علامـة سـحرية واحـدة معكوسـة، حيـث وجدنـا رأس الطائـر مغـروز بعمـق وسـط حريـق كبـير. لم نجـرؤ عـلى سـؤالها عـن معنـى ذلـك. لكنها أوضحت لنا فيما بعد ...

«اسـمعن جيـداً يـا فتيـات، بـين الفينـة والأخـرى، تصبـح عاشـقة التوابـل متمـردة، وقـد تنغمـس في الملـذات وربمـا تفشـل في أداء واجبهـا، وبالتـالي يتـم اسـتدعائها، سـيصلها إنـذار واحـد، لديهـا ثلاثـة أيـام فقـط لتسـوية شـؤونها. ستشـتعل نـيران **الشـمباتي** لأجلهـا مرة أخرى، لكـن عندما تلمس النيران جسـدها هـذه المـرة، ستشـعر بجلدهـا يحـترق، سـيحول اللهب جسـدها إلى قطـع صغيرة متفحمـة وسـتبدأ بالـصراخ، خصوصـاً بعـد أن تشـمّ رائحـة عظامهـا المتهشـمة وجلدهـا المتفسـخ، بعـد ذلك...فـردَت الأم ذراعيهـا وفتحـت راحتي يديهـا اللتين تحررتا من الخطوط التي كانت مرسومة عليهما من قبل.

تساءلتُ:

ـ كيف سيحدث ذلك؟.

ـ التوابل هي من يقرر...

«بعـض السـيدات يُسـمح لهـن بالعـودة إلى الجزيـرة للتعلـم والبـدء مـن

جديـد، أمـا البعـض الآخـر فسـتكون هـذه النهايـة بالنسـبة لهـن؟ الصرخـة الأخيرة، حيث ستصبح أجسادهن المتفحمة كبيت العنكبوت المهترئ.

تذكـرتُ كل تلـك التعليـمات بينـما كنـتُ أراقـب زميـلاتي الواحـدة تلـو الأخـرى، بـدأن بالسـير فـوق النـار وعندمـا وصلـن إلى الوسـط، اختفـين فجـأةً. شـعرتُ بحـزنٍ عميـق لم أشـعر بـه مـن قبـل، لطالمـا عرفـتُ لسـنوات أن هـذا اليـوم آتٍ لا محالـة، لقـد اختفـت كل السـيدات الطاهـرات كالمرمـر عـبر لهيـب مـن النـيران المقدسـة. وحدهـن فقـط في هـذا العـالم تعرفـن مـن أكـون وتقدرن على الشعور بكل ما أشعر به.

عندمـا جـاء دوري، أغمضـتُ عينـيّ. هـل كنـتُ خائفـة؟ في الحقيقـة، صدّقـت مـا قالتـه الأم الكـبرى «لـن تحترقـي... لـن تشـعري بـالألم، سـتبعثين في جسـدٍ جديـد، تشـعرين وكأنـه جسـدكِ الحقيقـي منـذ الأزل». لم ألمـح علامـاتُ خـوفٍ عـلى وجـوه زميـلاتي قبـل اختفائهـن وسـط النـيران. رغـم ذلـك، بـدت الأمـور صعبـة. عـليّ «أن أواجـه وللمـرة الثالثـة نهايـة حيـاة قصـيرة، والدخـول في حياة جديدة مختلفة كلياً».

في ذلـك الحـين، لم يخطـر في بـالي أن بـين الجزيـرة و**أمريـكا** مجـرّة مـن الليـالي الطويلـة. لمسـت الأم مرفقـي برفـق كمـن تلامـس بتـلات الزهـرة بأطراف الأصابع.

- **تيلو**، انتظري...

خلـف ذلـك الدخـان، لمحـتُ بريقـاً في عينيهـا. ربمـا دمـوع. شـعرتُ بوخـزة في قلبـي وحدثـتُ نفـسي «أمنـا الكـبرى، خـذي كل القـوى السـحرية التـي أعطيتنـي إياهـا ودعينـي أبقـى هنـا بجانبـك، ليـس هنـاك أجمـل مـن أن يخـدم المـرء مـن يحـب». لكـن السـنوات والأيـام واللحظـات التـي جرفتنـي إلى هذا المكان، تمنعني من ذلك. فهي لا ترحم.

عرفتُ أنها شعرت بالصراع الذي كان يدور داخلي...

- **تيلـو**، ابنتـي العنيـدة، كثـيرة المشـاكل، الأكـثر موهبـةً، الأقـرب إلى قلبـي.

التي اختارت **أمريكا** بكل تلهف وحماس، لدي شيءٌ لكِ.

سحبت شريحة من جذور الزنجبيل من بين ثنايا ثوبها ووضعتها فوق لساني، لتمدّني بالصمود، وأحافظ على وعودي.

«أيها **الزنجبيل** اللاذع، كنتَ آخر ما تذوقهُ لساني قبل أن أختفي وسط نيران **الشمباتي**».

شعرتُ بألسنة اللهيب وهي تلعقُ جسدي الذائب، ثم سَحبت أصابع نارية لطيفة جفوني نحو الأسفل، **بدا** ذلك كالحلم.

عندما استيقظتُ في **أمريكا** بغمضة عين، فوق سرير من الرماد، شعرتُ بأنني عشت في هذه البلاد لزمن طويل وبدت جدران المتجر من حولي كدرعٍ حام. كانت التوابل مصفوفة بدقة متناهية فوق الرفوف. تنتظر قدومي لنبدأ حياتنا معاً، لقد كُنتَ أول نكهة حادّة تذوقتها... أيها الزنجبيل.

عندما تصبح السماء بلون الزرنيخ الأحمر مع اقتراب الغروب والضباب، وعندما تُلقي شجرة النخيل الهزيلة المنتصبة عند موقف الحافلة ظلّها الطويل الوعر على باب المتجر، أدركُ أنه حان وقت الإغلاق. فأبدأ بإنزال المصاريع الخشبية لتحجب عني ضوء القمر الشاحب. الذي يخترق زجاج النافذة الرمادية، إنها المرآة الوحيدة في المتجر، تتذبذب صورة انعكاس وجهي للحظة. فأغمضُ عينيّ وأبتعد عنها.على عاشقة التوابل وبمجرد أن تسكن في جسدها الجديد، الكف عن النظر إلى انعكاس صورة وجهها إلى الأبد. لم يسبب لي هذا القانون أية مشاكل لأنني أدركُ تماماً كم أنا عجوزٌ وهرمة وقبيحة إن جاز التعبير.

قد يتساءل البعض «هل هذا ما أشعر به دائماً؟»

لا ...

آاااه ... عندما استيقظتُ أولَ مرةٍ داخل هذا المتجر الهادئ، تدفقت رائحة الإسمنت الرطب من الجدران واخترقت جسدي. رفعتُ ذراعي بصعوبة، كان

ثقيلاً من تراكم طبقات الجلد الطرية المجعدة، استنكرتُ ذلك ضمنياً «ليس هذا ما كنتُ أتوقعه». بينما كنتُ أنهض، بدأت ركبتاي ترتجفان بقوة وتحرّك ألمٌ فظيع في عظام أصابع يدي الملتوية، يداي الجميلتان.

انتابتني موجة عارمة من الغضب أو بالأحرى الندم. تُرى، من المُلام؟

لقد حذرتنا الأم الكبرى مئة مرة «أوه ... **تيلو**، أيتها الحمقاء، المتسرعة، تظنين أنكِ تعرفين الكثير.

بعد فترة، تلاشى كل الغضب والألم. ربما اعتدتُ على وضعي الجديد، أو قد يكون غناء التوابل السبب في تحسن الأمور، لأنني عندما أحملها بين أصابعي الهرمة، تبدأ الغناء_ بحماس أكثر من ذي قبل_ بنغمات صادقة وعالية من شدة النشوة. وكأنها تعلم أنني أصبحتُ مُلكها للأبد.

كم كنتُ سعيدة... ومازلت.

بحلول الليل، أُغلق باب المتجر من الداخل وأقفله بمزلاج، وأثبت القضيب المعدني مكانه. ثم أبدأ بالتصفيق عند كل زاوية وأتمتم بكلمات سحرية لأطرد الفئران والجرذان والعفاريت التي تتسبب بالعفن الفطري للعدس والصلصات المحفوظة بجرار زجاجية مختومة بإحكام، ولأطرد أيضاً الفتيان الذين يتجولون خلسةً في الليل «شلة من المراهقين بذقون ناعمة كحبة المشمش وأجساد متشوقة لممارسة الجنس، يشتهون ما لا يستطيعون الحصول عليه، يصرخون في داخلهم ...لِمَ الحرمان طالما الرغبة موجودة؟».

ثم تصبح جدران المتجر معتمة أكثر من قبل وغير مرئية للعيون الغريبة. لدرجة تجعل كل من في الخارج يظن أنه لا يرى سوى ظلال وامضة فوق بقعةٍ فارغة.

حان الآن الوقت لأمد السرير في الوسط حيث الأرضية مائلة قليلاً. في السقف مصباح واحد يعكس ظلالاً عملاقة تُخفيها طبقة الدخان. ويتوزع من حولي، دلوٌ كبير من طحين **الباجرا** (نبات الدخن)، وبراميل صغيرة متينة من زيت **بذور اللفت**، وأكياس من ملح البحر المتلألئ، لأشعر وكأنني ما زلتُ

على الجزيرة. ثم تبدأ التوابل بهمس الأسرار وتحقيق الأحلام.

وأنا أيضاً أبدأ بعيش أحلامي الخاصة «عندما أستلقي في الفراش، أشعر بنبضٍ قوي من الألم والخوف والحب، أستطيع في الليل أن أحيا في مخيلتي الحياة الطبيعية التي تخليتُ عنها من أجل التوابل، «**تيلو**» التي أصبحت تعيش حياةً هادئة ومدروسة ورتيبة، قد يكون طعم الحزن والأمل عند البشر، لذيذ ككأسٍ من النبيذ. كانت الأفكار في ذهني تأخذ أشكالاً متعددة، وجوه وكلمات، وربما غرفة، في حال استطعتُ عصر مخيلتي بشكل أفضل، قررتُ أن أحلم أولاً بالفتيان المراهقين، أولئك الذين تبدو أصواتهم في الليل كطقطقة الأسلاك الكهربائية قبل هبوب العاصفة...

«أوه ... نحن الشبان الأقوياء الجامحون، حين نعبر الشوارع في الليل ونبدأ بالصفير والتأرجح كالأشباح، يختبئ الناس في بيوتهم كالصراصير عندما يشعرون بوجودنا، نحن ملوك الشوارع، نحن من يشعل اللهيب في أفواه العاشقات، عاشقاتنا اللواتي سيتسببن لنا بالموت، فالموت حباً أفضل بكثير من الحب نفسه وسنسعى للحصول عليه دائماً»

أزعجتني صور فتيان الليل بعيونهم البيضاء الشاحبة كالأسيد الحارق. فقررت إخفاء صورهم وسط الظلام الذي نسجهم. علماً أن اختفائهم المؤقت لا يعني أنهم قد رحلوا للأبد. ثم بدأتُ بحلم جديد «امرأة تقف في المطبخ، تطهو الأرز الذي اشترته من متجري وتفوحً من جسدها رائحة عطرة كرائحة حبوب الأرز المتزحلقة من بين أصابعها والتي كانت تتأكد من جودتها. ساعد بخار الأرز بتنعيم بشرتها وتلطيف البقع الموجودة تحت عينيها، كما أنه جعل شعرها المربوط مشدوداً وأكثر أناقة. إنه يوم استلام الرواتب، جعلها ذلك تبدأ بقلي بذور الخردل، التي بدأت تفرقع في المقلاة، إضافةً إلى **البرنجال** (الباذنجان) واليقطين المرّ، الذي أصبح لونه الأصفر مائل إلى الاحمرار. ثم بدأت بخلط **الغارام ماسالا** (الخليط الحارّ: بهارات هندية مشكلة) مع القليل من كاري القرنبيط، لتحصل على بعض

الصبر والأمل، أليست هذه المرأة كمئات النساء الهنديات اللواتي تطبخن حلوى **الخير** (حلوى الأرز وجوز الهند) على نار هادئة، في فترة ما بعد الظهر، حيث تُضفن فوقها بعض حبوب الهال «من متجري» لتحقيق أحلام بسيطة تحمينا من الجنون؟

بدأت أفكارها تتدافع في رأسي، فكرةً تلو الأخرى ...

«قضيتُ فترة المساء وأنا أتنقل بين المطبخ والنافذة الأمامية المطلة على الشارع، أنتظر عودة الأولاد من المدرسة. بقيتُ على هذه الحال منذ حادثة فتاة **الغوبتا** (امرأة ثرية تقدم المساعدات للفقراء) في الأسبوع المنصرم. كما أنني أفعل ذلك حتى في النهار، فلتحمنا الآلهة، أنا قلقة أيضاً على زوجي، ربما يُطرد من العمل، ناهيك عن الشجار مع المدير والمرابين، ربما ذهب ثانيةً مع أصدقائه إلى (**بايليز**) ونسي الوقت، حينما أضع طوق الزفاف حول رقبته، لم أعد أشعر كالسابق بشعور الأم والزوجة. ينتابني شعور بالخوف كمن تسير فوق نصل سكين حادّ، للقاء ذئبٍ شرس عند نهاية الطرف والأسوأ من كل ذلك الأفواه التي تطاردني حتى في أحلامي. أفواه منهارة من الجوع، لم تتناول الطعام منذ أيام في هذا الشهر، تصرخ في وجهي (أماه ...أعطنا ملعقة أخرى إضافية، إنه لذيذ جداً، أرجوكِ أماه، ملعقة واحدة فقط. أرجوكِ، فأشيح بنظري بعيداً وأحبس بكائي.

بدأتُ أحلم بالرجال... تُرى؟ أين هم؟ فقد وصلتني أفكارهم برائحة أرضٍ عطشى، في سنةٍ من الرياح الموسمية التعيسة وقادتني إلى غرفٍ مليئة بصورٍ معلقةٍ على الجدران، مقصوصة من التقويم السنوي القديم «**شاطئ جوهو في مومباي**، **المعبد الذهبي في الهند** (معبد السيخ)، **زينات** (ممثلة هندية مشهورة) بفستانها الأصفر البرّاق» أراهم الآن يخلعون أحذيتهم ويرفعون أقدامهم المتورّمة بتثاقلٍ فوق طاولة عتيقة، يتنفسون الصعداء، ويستنشقون رائحة **الكزبرة** المطحونة و**السونف المُحمّص** (بذور الشمّرة)، ويشعرون بالإغراء عند سماع صوت خشخشة خلخال النساء، ويمسكون

بزجاجات بيرة (تاج محل) التي تُباع في متجري، ويبدؤون بعضّ شفاههم من الشهوة. أشعر بطعم الدم المالح المنبعث من أفكارهم ومشاكلهم.

«آاااه ... إن هذه البيرة لذيذة عندما تنزل رغوتها الحلوة في الحلق، لكن المذاق يصبح مُرّاً بعد لحظات، كحلم قديم لم ينتهي بعد، لم يخبرنا أحدٌ أن الحياة في أمريكا صعبة لهذه الدرجة، فرك الأرضية المتشحمة طوال النهار، الاستلقاء لساعات تحت المحرّك الذي يسرّب زيتاً أسوداً، قيادة الشاحنات الضخمة التي تملأ الرئتين بالقطران، الوقوف خلف كاشير فندق رخيص، يُلزمنا بالابتسام أثناء تسليم مفاتيح الغرفة للعاهرات، أجل، يجب أن نبتسم دائماً، حتى عندما يقول الأمريكان «أيها الهنود الأنذال يا مَنْ تسعون للاستيلاء على البلاد وسرقة وظائفنا» هجوم رجال الشرطة علينا في حال مررنا بأحياء الأثرياء. ظننا أننا سنعيش حياةً مستقرة كما كنا في الوطن «مدينة **تريشي، كاراجبور، بريلي**»، تحت صوت أزيز المروحة المعلقة في السقف، داخل غرفة من الموزاييك وأرضية خضراء، متكئين على وسادات مريحة من الساتان، حيث كان الخدم يحضرون لنا **اللاسي المُثلج** (مشروب الزبادي: شراب هندي) المزين ببتلات حمراء، لكن هنا، لا يكفّ صاحب السكن عن رفع رسوم الإيجار، في الأسبوع المنصرم، تعطلت السيارة، فغضب الأولاد كثيراً، لا تقلق يا عزيزي **فيربهي**، ستوصلنا الحافلة هذا الأسبوع إلى بحيرة **تاهو** وسنذهب أنا و**ديليب وبهيّة** إلى الكازينو للعب القمار، ربما يحالفنا الحظ مثل **أرجون سينغ** الذي فاز باليانصيب وذهب مباشرةً في اليوم التالي إلى شارع 11-7 وبصق في وجه مديره «تباً لك ولوظيفتكَ القذرة».

الآن، حان وقت العشاء... نادت الأمهات الأولاد الذين تركوا كتابة وظائفهم وهرعوا مسرعين إلى الطاولة... وصلت الأطباق الساخنة «الأرز، **الراجما** (الفاصولياء الحمراء)، **كاريلا سبجي** (القرع المُرّ)، **الخير** (حلوى الأرز وجوز الهند).

أرى فتاةً يافعة، شعرها مجدول من الطرفين ومدهون بالزيت، تجلس على طاولة العشاء باحترام كما علّمتها أمها. عندما رفعت بيديها طبق **الخير**، تطايرت أفكارها كعصفور دوري تحول فجأةً إلى طائر **رفراف أزرق**، أثناء تحليقه بين الأزقة المتسخة...

«وأخيراً حصلنا على طبق من **الخير** بعد طول انتظار، بعد أن أكل أبي وأخي الكبير، بقي هناك المزيد لي، وحتى لوالدتي التي تتناول البقايا دائماً. آاااه ما أطيب الخير مع اللوز والزبيب و**الإيلاتش** (حبوب الهال)، التي استطعنا شراءها لأن السيدة العجوز صاحبة المتجر خفّضت لنا السعر عندما رأتنا نحدّق بالواجهة. عندما تذوقتُ أول كرة، ارتسمت خطوط من الحليب الأبيض على شفتيَّ، شعرت بأنها ليلة رأس السنة، وبدأتُ أتمتم ببعض الأمنيات «منزل كبير بطابقين مع حديقة أمامية للأزهار، بدون حبال غسيل ممدودة في الخارج. غرف كثيرة وسرير خاص لكل فرد، حمامات واسعة ومياه ساخنة دائماً، سيارة جديدة ذات إطارات ذهبية وفرش أبيض كفرو القطط وربما دراجة نارية حمراء تحبس الأنفاس عندما يقوم شقيقك الأكبر بالطيران وأنتِ متشبثة به من الخلف، وحذاء جديد لوالدتي بدلاً من الحذاء المهترئ الذي ترقعه بورق الجرائد، إضافةً لأقراط ذهبية جديدة لتبدو كالعارضات على التلفاز، أما بالنسبة لي ... أريد الكثير من دمى (الباربي) ... باربي ترتدي ثوب النوم، وأخرى ترتدي ثوب التخرّج، باربي بملابس السباحة، مع كعب عالٍ فضي وتضع أحمر شفاه، وحمالة صدر، لها خصر نحيل وشعر ذهبي والأهم من كل ذلك، بشرة شديدة البياض، أعرف أنه من الخطأ قول هذا، يجب أن أكون فخورة ببشرتي الهندية السمراء، كما علّمتني أمي.

كم أرغب ببشرة أمريكية بيضاء وشعر أميركي أشقر وعيون أمريكية زرقاء، عندها ... سيعجب بي كل من يراني قائلاً: «واووووووو».

الحلتيت

لكل يوم في المتجر لون ورائحة مختلفة، ولحن مميز أيضاً، طبعاً في حال كنتم تمتلكون أذناً موسيقية. فالجمعة مثلاً، عندما ينتابني شعور بالضجر، أبدأ بسماع صوت دندنة، كصوت تذبذب محرّك سيارة على وشك الانطلاق، نسمعه عادةً أسفل شارع ممتد عبر حقول مفتوحة يميل لونها إلى النيلي. حيث تنبعث رائحة ما على طول الطريق، لا نعرف سببها في البداية، ثم ندرك فجأةً أن الفرامل معطلة.

ربما كان حضور ذلك الأمريكي العازب إلى المتجر مساء يوم الجمعة، ملائماً نوعاً ما، حيث تزامن مع ظهور القمر المكتمل، العائم خلف لوحة إعلانات مقصوصة عند أسفل الطريق، عليها صورة امرأة ترتدي فستان سهرة أسود، وتحمل كأساً من ويسكي (تشيفاز). كانت الأضواء الأمامية للسيارات القادمة، تنعكس على الحزام البرّاق لفستانها، الذي أصبح يلمع كحجر الراين، كما بدت عيونها كالدخان، وشفتاها كحبات الرمان. شعرتُ بوخزة مؤلمة. بدا صوت السيارات المسرعة كئيباً، كهبوب الرياح وسط جزيرة من الخيزران.

أردتُ أن أخبره أنني على وشك الإغلاق، لكن عندما نظرتُ في عينيه لم أستطع ذلك.

لا تظنـوا أني لم أقابـل مواطنـين أمريـكان مـن قبـل، فهـم يحـضرون إلى المتجـر دائمـاً «أسـتاذ جامعـة ببذلـة تويديـة مرقعـة عنـد كـوع السـترة، سـيدات بتنانـير طويلـة ترابيـة اللـون، قابلـت الكثـير مـن أعضـاء حركـة **هـاري كريشـنا** (منظمـة دينيـة تأسسـت في نيويـورك، تسـتقي معتقداتهـا الأساسـية مـن الكتـب الهندوسـية المقدسـة) بجلابياتهـم البيضـاء المجعـدة ورؤوسـهم الحليقة! طـلاب مـدارس يحملـون حقائبهـم الثقيلـة عـلى ظهورهـم ويرتـدون سراويـل جينـز لم تُغسـل منـذ فـترة طويلـة و**هبيـين** (الهبيـز) بشـعورهم الشـعثة والمزينة بالخـرز، كانـوا يحـضرون لـشراء بـذور الكزبـرة الطازجـة والطبيعيـة طبعـاً، أو السـمن النقـي حسـب النظـام الغـذائي الموافـق **للكارمـا** (مفهـوم أخلاقـي وسـلوكي عنـد الهنـدوس والبوذيـين) أو بقايـا مـن حلـوى (بارفيـه) بنصـف السـعر. لطالمـا كانـوا يهمسـون في أذني بصـوت أجـش «هـل لديـكِ بعـض الحشيش؟»

بعـد تلبيـة كل طلباتهـم يغـادرون المتجـر فأنـسى وجوههـم كليـاً. لكننـي أشـعر بالإغـراء أحيانـاً. فحـين يحـضر **كويـسي** مثـلاً، ببشرتـه السـمراء كلـون النبيـذ وشـعره الملفـوف بأناقـة كسـحاب الليـل، يمـشي بصمـت كالمحـارب الشـجاع بجسـده الرشـيق والقـوي، أتشـوق لمعرفـة الكثـير عنـه. ألمـح تلـك الندبـة عـلى جبهتـه، تبـدو كالـبرق، الكدمـة الواضحـة عـلى مفاصـل أصابـع يـده اليـسرى، أود سـؤاله عـن السـبب، لكننـي لا أسـتطيع فذلـك غـير مسـموح بـه. تذكـرتُ قـول الأم الكـبرى «تذكّـرن سـبب ذهابكـن إلى تلـك البلـدان، لتسـاعدن أبنـاء عرقنـا فقـط، أمـا الآخريـن عليهـم اللجـوء إلى أماكـن أخـرى لتلبية احتياجاتهم»

لذلـك كنـت أحـرص عـلى أن يتعـالى ضجيـج المتجـر عـلى صـوت ضربـات قلـب **كويـسي**، أتجاهـل رغباتـه التـي تبـدو دائمـاً كلـون المـروج أيـام الطفولـة. أقـوم بـوزن مشـترياته وحزمهـا «الحمّـص والكمّـون المطحـون، باقتـين مـن الكزبـرة» وعندمـا يخـبرني كالعـادة بأنـه سـيقوم بتحضـير بعـض **الباكـورا** (طبـق

مقبلات هندي) لصديقته، أشجعه قائلةً «جيد جداً» وألوح له مودّعةً بكلمات قليلة، بعد أن أكون قد توقفت عن التفكير به، ليصبح عقلي مقفلاً بإحكام.

لكن من الصعب عليّ فعل الشيء نفسه اتجاه ذلك العازب الأمريكي. لا يتعلق الأمر بلباسه «سروال وحذاء أسود، سترة جلدية سوداء» رغم خبرتي القليلة، بإمكاني التكهن بأنها غالية الثمن قطعاً. ولا حتى بطريقة وقفته «جسد نحيل، ورك منحنٍ، يد ناعمة منزلقة في جيب سرواله، يتأرجح على كعبيه قليلاً» ولا حتى وجهه الوسيم، رغم أنه آسر تماماً بعظام وجنتيه المائلة والموحية بالعناد وخطوط فكّه الحادّة وشعره الكثيف الأسود المائل للزرقة المسترسل فوق جبينه بكياسة عفوية، عينيه الداكنتين وبصيص النور الوامض فيهما. لا يوحي مظهره بالعزوبية سوى فكرة نسجتُها في زاوية ذهني. لا أعرف ما جعلني أنجذب إليه.

تكهنت مسبقاً بكل طلبات الزبائن، لكن لم أستطع التكهن بما كان يريده.

عندما سألتهُ بصوتي الضعيف والذي بدى مرتعشاً لسوء الحظ.

أجابني بهدوء ...

- أوه ... ألقي نظرة فقط.

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة مفاجئة غير متوازنة وحدّق بي من تحت حاجبيه المستقيمين وكأنه يعرف حقاً من أكون، داخل ذلك الجسد الهرم، ربما أعجبه ما رأى رغم أن ذلك شبه مستحيل.

بقي يحدّق مباشرةً في عينيّ، تماماً كما كانت تفعل الأم الكبرى. شعرتُ ببعض الخوف، وكأن شيئاً كان مربوطاً داخلي بإحكام قد انحل فجأةً.

أوه ... أشعر بالخطر.

والآن، لم أعد قادرة على قراءته مطلقاً. اخترقتُ جسده وبدأتُ البحث، لكنني ضعتُ وسط غمامة حريرية. وكل ما عرفته هو استقامة حاجبيه وقد بدا أنه مستمتعٌ باستعراضهما. من السخف أن يعلم ما كنتُ أفعله.

لكنني أردتُهُ أن يعرف ويستمتع. لطالما رمقني الجميع بنظرة رعب أو لا مبالاة. عندما أفكر بذلك ينتابني شعور عارم بالوحدة، ويثقل عليَّ الحزن كأني أغرق في أعماق المياه المظلمة. تفاجأتُ للحظة، لم أكن أعلم بأنه يمكن لعاشقات التوابل أن تشعرن بالوحدة أيضاً. أردتُ أن أخبره، وأنا أيضاً أبدو أمريكية، ظننتُ أن شكلي قد اكتمل عندما التقيتُ بالتوابل، لكن عندما رأيتُك لم أعد متأكدة من صحة ذلك.

أردتُهُ أن يفهم.

تردد في ذهني صدى أو بالأحرى، أغنية من حجر ...

«على عاشقة التوابل أن تنزع كل رغباتها من صدرها وتملأ ما تشعر به من فراغ بتأمين احتياجات الزبائن فقط»

كان ذلك صوتي، قادم من مكان وزمان بعيد. حاولتُ تجاهله بأن أدير ظهري له، لكن بدلاً من ذلك... خاطبتُ الأمريكي بنبرة بائعة...

- أهلاً وسهلاً، لكنني على وشك الإغلاق.

بدأتُ أشغل نفسي بترتيب رزم **رقائق العجين المُتبل** (البابار)، وتعبئة **الراوا** (القمح المطحون) بأكياس الورق ولصق الأسعار عليها برفق ونقل صندوق **الأتا** (دقيق القمح) إلى الجانب الآخر من المدخل.

- مهلاً، دعيني أساعدك.

وبينما كنتُ مستغرقة بنبرة صوته التي تشبه **البيسان** (دقيق الحمّص) الذهبي المحمّص الممزوج بالسكّر، لمس يدي بيده التي وضعها على حافة الصندوق.

ما من كلمات تصف ذلك الشعور، لقد اخترقت تلك اللمسة جسدي كشفرة من النار، رغم ذلك، تمنيتُ أن يستمر ذلك الألم الجميل دون توقف. سحبتُ يدي بسرعة خاطفة تنفيذاً لقوانين الأم الكبرى، لكن الإحساس لم يزول. فاجأتني فكرة أنه لم يرغب أحد بمساعدتي من قبل، خاطبني صديقي الأمريكي:

- لديكِ مكانٌ جميل هنا، أجواؤه غاية في الروعة.

«أجل، أعرف أنني تماديت عندما دعوته *صديقي*. فمن المفروض أن أقول، *أرجوك أن تذهب، لقد تأخر الوقت، إلى اللقاء*. وبدلاً من ذلك عرضتُ عليه رزمةً من **الدهانيا** (بذور الكزبرة) لتقوية البصر، حباتها كروية الشكل كالكرة الأرضية.»

خاطبته:

- عندما تنقعها وتشربها، سيغسل منقوعها ذنوبك القديمة.

«تيلو! ما بكِ، توقفي عن التحدث إليه...»

سحبت تلك الغمامة الحريرية الكلمات من قلبي ووضعتها في قلبه. أومأ برأسه وتلمّس الكرات الصغيرة بأصابعه برفق. لم يندهش وكأن ما كنت أقوله طبيعي للغاية. ثم فتحتُ غطاء إحدى العلب وتحسستُ المسحوق الناعم بأصابعي.

هل ترغب ببعض **الأمشور** (مسحوق المانجو) المصنوع من الملح الأسود والمانجو المطحون المجفف لتقوية حاسة التذوق وإحياء الحب من جديد؟

«تيلو، كفّي عن الثرثرة كالمراهقات...»

انحنى قليلاً ليشمّ رائحته ثم رفع عينيه مبتسماً.

- آاااه ... لم أعرف رائحة كهذه من قبل، لكنها تعجبني.

ثم ابتعد وقال بجدية:

ـ تسببتُ في تأخيرك، يجب أن تُغلقي المتجر الآن.

«**تيلوتاما**، لا أظن أن هناك من يفوقكِ ذكاءً، هل ظننتِ أنكِ ستثيرين اهتمامه؟»

عند الباب، لوّح لي مودّعاً، أو ربما كان يُبعد العث الطائر عن وجهه. حزنتُ كثيراً لخروجه من المتجر صفر اليدين، ولأنني لم أتمكن من العثور على ما كان يبحث عنه. سمعتُ صوتاً داخلي يُنبئني بأني قد فقدتُ هذا الرجل، الوحيد الذي لم أتمكن من قراءة قلبه.

فجأةً وقبل أن يختفي، ابتسم عند الباب ابتسامةً برّاقة كحجر الراين.

- سأراك قريباً.

قالها كما لو أنه يعني ذلك حقاً وكأنه ينتظر ذلك بفارغ الصبر.

بعد أن غادر العازب الأمريكي، بدأتُ أتجول في المتجر بحزن واستياء، كنت تائهة. ظننتُ بأنني تخلصت من ذلك السمّ القديم الذي تدفق من جديد بكثافة ولزوجة مضاعفة. لم أستطع قفل الباب فإغلاقه تأكيد بأنه لن يعود. في الخارج، كانت أضواء الشوارع تومض من وراء الزجاج. يتشبث الرجال والنساء بياقات معاطفهم، متوجهين نحو ميترو الأنفاق، ليختفوا وسط صخب وقعقعة القطار. غطى ضبابٌ أصفر الشوارع المهجورة ومن بعيد سمعت صوت نحيب **السيرينات** أثناء اللحاق بهنَّ (عرائس بحر تدفع أصواتهن العذبة البحارة إلى رمي أنفسهم في البحر والغرق أثناء اللحاق بهن)، لطالما تذكرنا قصتهن أن السعادة قصيرة الأجل. لكني لم أعرهنّ أي اهتمام.

بدأتُ البحث عن تابله المفضل.

كانت قد أخبرتنا الأم الكبرى بعد أن لقنتنا العلاجات الأساسية.

«تساعدنا التوابل المتنوعة في حل مختلف المشاكل، لكل شخص تابله الخاص، ليس لكنّ، بل لأولئك (الذين)يحضرون إلى المتجر فقط. لا يُسمح لسيدات التوابل باستخدام البهارات لتحقيق غاياتهنَّ الشخصية. يسمى التابل المخصص لكل زبون **بالمحمول** (جذر البهار) ويختلف من شخص لآخر، يساعد المحمول في جلب الحظ والنجاح والسعادة وتجنب سوء الحظ، حين تجدن صعوبة في مساعدة أحد ما، عليكن بالبحث في أعماق أنفسكن عن محمول ذلك الشخص».

أيها الأمريكي العازب، كيف أبدأ؟ لطالما افتخرتُ بقدرتي على العلاج السريع.

بحثتُ بين الرفوف... **كالوا جيرا** (الكمون الأسود أو حبة البركة)؟ **النانخة** (الكراوية)؟ **تشون** (خليط من مسحوق المانجو مع جذور الزنجبيل)؟ أو ربما **الزيزفون الأبيض** اللاذع المكسو بأوراق **التنبول**؟ لا شيء يبدو مناسباً، أو حتى قويماً.

قد تكون روحي المشتتة هي السبب... أنا **تيلو** التي لم تعد قادرة على التوقف عن التفكير بتلك العينين العميقتين الغامقتين المليئتين بالمخاطر، كإحدى الليالي الاستوائية.

لماذا أستمر بتلقيبه بالعازب؟ وأنا أتجول بتوتر في قسم العدس وبينما أغرز ذراعيّ المضطربين بعمق في صندوق من **الراجما** (الفاصولياء الحمراء) تدحرجت القرون الحمراء الباردة على جلدي. شعرتُ به وهو يفتح باب منزله. ثم ظهرت فجأةً امرأة شقراء نهضت عن الأريكة واقتربت منه لتعانقه.

لا، لا يمكن أن يكون ما أتخيله حقيقياً، لن أسمح بذلك.

دخل البيت وأشعل الضوء ثم ضغط زراً، فكسر صوت **السارود** (آلة موسيقية) هدوء الغرفة. ثم استلقى فوق أريكة اشتراها من مدينة **جايبور**، فهو يعشق كل ما يتعلق بالهند. بدأ يفكر بما رآه اليوم «متجر يفوح برائحة كل الأشياء الجميلة في هذا العالم، امرأة عجوز تنظر إليه بعينين يافعتين...

توقفي عن الرغبات الفارغة، لمَ المجازفة؟

أخبرتنا الأم الكبرى:

«إن بدأتِ بنسج رغباتكِ في مخيلتك ستفقدين الرؤى الحقيقية، وستشعرين بالتشوش ولن تطيع التوابل أوامركِ بعد الآن».

تراجعي يا **تيلو** قبل فوات الأوان.

أجبرتُ عقلي على التوقف عن التفكير. من الآن فصاعداً، سأثق بيديّ فقط، حيث ستخبرني عظام أصابعي الموسيقية عن كل ما يحتاجه ذلك العازب الأمريكي.

لم أقفل المتجر بعد، بدا كزجاجة كريستال متوهجة في ظلام الليل. وأصبح المدخل رمادياً من العث الطائر. لكنني كنتُ مشغولة بأمور أهم.

دخلتُ الغرفة الداخلية وأغمضتُ عينيّ. توهجت يداي كالفوانيس في الظلام. تلمّستُ الرفوف المُغبّرة بأصابعي، أناشدكِ يا أصابع الفوسفور، يا أصابع المرجان، أخبريني أرجوكِ ما الحل؟

عدتُ أراه من جديد، دخل غرفة نومه وخلع حذائه. سحب غطاء السرير الحريري، خلع قميصه ورماه على الأرض. بدأت أضواء الشموع تتراقص فوق كتفيه العاريين وظهره المقوس وأردافه القوية المشدودة، عندما خلع سرواله، كان يقف باستقامة ورشاقة وكأنه تمثال من العاج.

ها هو الآن، على وشك أن يستدير...

اندفعت السوائل الحلوة والساخنة في فمي دون توقف، في الحقيقة، رغم كل المغامرات التي عشتها «عرّافة، ملكة قراصنة، متدربة على فنون التوابل» لم أرَ في حياتي رجلاً عارياً من قبل ولم أسعى لذلك حتى.

طلبت مني يداي التوقف

«ليس الآن، أرجوكِ أيتها الآيادي السحرية، ليس الآن، تريثي للحظة واحدة فقط» لكنها عنيدة وترفض الانصياع وكأنها ليست لي. كانت تُمسك بشيءٍ بلوري وقاسي، كتلة نابضة بالحياة ذات رائحة حادّة، أيقظتني من أفكاري.

انهارت الصور في عقلي، وتلاشت كالغبار والأحلام. تنهدتُ وفتحتُ عيني رغماً عني. فوجدتُ في يدي كتلةً صلبة من **الحلتيت**.

فجأةً، سمعت صوت ضجيج في الغرفة الأخرى وكأن شيئاً يتحطم. أو ربما كان الليل يخترق زجاج النوافذ.

«كتلة صلبة ولامعة كأحجار كوكب المريخ، ترشد حاملها على طريق المجد والشهرة وتحميه من إغراءات **فينوس** (كوكب الزهرة) **الحلتيت** الأصفر المُهلك، للتخلص من الرقّة ولجعل قلب الإنسان صلباً كالحجر».

هبّت رياح خفيفة، تحمل معها رائحة المعاطف المبللة. وأصبحت

الأرضيـة مـن تحتـي مكسـوة بالجليـد. اقتربـتُ مـن بـاب المتجـر بصعوبـة. تصلبـت أوصـالي وبـدا القضيـب المعـدني أكـثر ثقـلاً، لدرجـة لم أسـتطع رفعـهُ، يجب استخدام كل قوتي كي أحشره مكانه قبل فوات الأوان.

الهينج (الحلتيت)... ترياق الحب.

اتـكأتُ عـلى البـاب لوهلـة. مدركـةً كسـيدة توابـل، مـا يجـب القيـام بـه، ثـم عـادت الرؤيـة مـن جديـد، لكـن هـذه المـرّة لمحـتُ الخادمـة التـي تعمـل في بيته.

شـعرتُ وكأنهـم يراقبوننـي جميعـاً، كاتمـين أنفاسـهم. بـدا الهـواء في تلـك اللحظة كالحديد الصلب.

عندمـا أصبحـتُ قـادرة عـلى الحركـة مـن جديـد، اقتربـتُ مـن صنـدوق الحـرف اليدويـة، وبـدأتُ بإخـراج كامـل محتوياتـه «أوشـحة الباتيـك (قـماش مصبـوغ عـلى الطريقـة الهنديـة)! أغطيـة ووسـادات مطـرزة بالمرايـا الصغيـرة، سـكاكين نحاسـية، منحوتـات عـلى شـكل آلهـة **التيراكوتـا**، بعثرتهـا كلهـا عـلى الأرض، حتـى وجـدتُ مـا كنـتُ أبحـث عنـه «علبـة صغـيرة ناعمـة مـن خشـب الأبنـوس مبطنـة بمخمـل ملمسـه كجنـاح الشـحرور». فتحتُهـا، فسـقطت كـرة مـن **الحلتيـت**، التقطُهـا وكتبـت عليهـا بالطريقـة التـي علمتنـا إياهـا الأم الكبرى، للعازب الأمريكي.

فجـأةً، سـمعتُ مـن حـولي صـوت طنـين مريـح، ولامـس نسـيمٌ عليـل وجنتـي بلطـف وتنفسـت الصعـداء. مـلأني ذلـك بالرضـا أو ربمـا كانـت تلـك دموعي؟ أنا **تيلو** التي لم تعرف البكاء من قبل.

تفاديـتُ النظـر إلى ملايـين التوابـل الدقيقـة المتألقـة، التـي كانـت تُحـدق بي من كل الاتجاهات وكأنها مسامير حادّة من الفولاذ تنتظر أن أمشي فوقها.

منـذ أن أصبحـتُ عاشـقة للتوابـل، هـذه أول مـرة أخفـي فيهـا أفـكاري الخاصـة عـن التوابـل. يبـدو أن الخدعـة ناجحـة ظاهريـاً، أو ربمـا تـداري التوابل مشاعري لبعض الوقت؟

حشرتُ علبة **الحلتيت** خلف الرف المُغبّر تحت الكاشير بانتظار قدومه، ثم استلقيتُ في الفراش، كانت التوابل الهادئة من حولي تهدهد بتناغم مع إيقاعات الليل، وبدت رياح محبتها ثقيلة كثوب ساري بسبع طبقات، ترتديه نساء مدينة **بيناراسي** وقت الزفاف.

الكثير من الحب، أكاد أختنق؟

عندما نامت كل التوابل، كشفتُ عن الغرفة السرّية داخلي وألقيتُ عليها نظرة، لم يفاجئني ما رأيت. لن أعطيها له، كرة من **الحلتيت** الصلب، لتقسية القلوب، مخصصة لصديقي الأمريكي...

لا يهمني ما تريده التوابل.

على الأقل، ليس الآن، أو ربما لن يحصل ذلك أبداً.

لم أعرف الإجابة عن ذلك، لكني شعرتُ في أعماقي برعشةٍ خفيفة. ربما تحذير من زلازل على وشك الوقوع.

ينحدر أثرياء الهنود من تلال وامضة كالنجوم لدرجةٍ تجعلك تنسى أن ما تراه مجرد مصابيح الإنارة لا غير. وتلمع سياراتهم كالتفاح المشمّع، وتصطف كالبجع فوق الحفر الموجودة خارج المتجر.

حين تتوقف السيارة يقفز السائق بزيّه الرسمي ليمسك بالمقبض الذهبي للباب الخلفي ويفتحه بنعومة فائقة، فينزل من السيارة صندل ذهبي أنيق، بداخله قدم بيضاء مقوسة تقريباً، بأصابع كبتلات الورود، مطوية بازدراء لتجنب القمامة المركونة «أوراق، قشور متعفنة، غائط الكلاب، واقيات ذكرية مثقوبة، أُلقيت من النوافذ الخلفية للسيارات».

نادراً ما يتحدث الهنود الأثرياء وكأن أموالهم الكثيرة قد سدّت حناجرهم، كما أنهم لا يدخلون إلى المتجر إلا عندما يسمعون أصدقاؤهم «أوه ... إنه متجر غريب، يجب زيارته ولو مرة واحدة على الأقل». وبإشارة واحدة، يأتي السائق لحمل المشتريات «أرز بسمتي بحبوب طويلة، معتق في كيس من القنب الهندي كي يصبح حلو المذاق، طحين عالي

الجـودة مـن ماركـة (الفيـل) الأصليـة، زيـت خـردل معبـأ بزجاجـات غاليـة الثمن رغم توفر العبوات الاقتصادية».

هنا، يشعر السائق بالذهول من ثقل الحمولة، لكن مهلاً، هناك المزيد ...

«**كالاباش خياري** (نبات قرعي) مستورد من **الفلبين**، **ميثي ساغ** (أوراق الحلبة) لامعة كالزمرد، زرعتُها في صندوق ووضعتُهُ عند النافذة الخلفية للمتجر، علبة كبيرة من **الزعفران** ذي النوعية النادرة جداً (مياسم صغيرة متوهجة كاللهب، وخضراء كبراعم المانجو)»

عندما أقول «سيكون سعرها مخفضاً بعد أسبوع من الآن»... ينظر إليّ الهنود الأثرياء ببرود واستهزاء، ثم يأمرون السائق بحمل رطلين إضافيين، فأخفي ابتسامتي ببراعة.

بعد ذلك، يتقصد أثرياء الهنود رفع رقابهم وذقونهم عالياً، لتتناسب مع منزلتهم الاجتماعية، فيبدون بذلك أطول وأكثر جاذبية وأناقة وأكثر ثراءً بالطبع. ثم يغادرون المتجر بأجسادهم الثقيلة كحقائب المال، ويستقلون سياراتهم اللامعة، مخلّفين وراءهم رائحة الأوراق النقدية القديمة المفتتة.

يرسل بعض الأثرياء قوائم بالطلبات ولأن الثراء مهنة صعبة. فهم منشغلون بثرائهم طوال النهار «حفلات غداء لتأسيس جمعية خيرية، بإشراف ملاعب الغولف، تُقام على متن سفينة فخمة، داخل غرفة من العقيق الأحمر، مع صفقة جديدة لشراء سيارات **لامبرغيني** حديثة، وعلب سيجار مرصعة باللازورد».

حتى أن بعضهم نسوّا بأنهم هنود، فتراهم يتناولون الكافيار فقط.

واضبتُ على حرق بعض **التولسي** (الريحان) لهم كل مساء، نبات التواضع. للتخلص من الغرور. أعرف طعمه جيداً. لطالما كانت الأم الكبرى تحرق القليل منه، وتضعه على لساني، ريحان الإله المقدّس **راما**، لإخماد التوق الشديد للسلطة ومنع الأفكار الدنيوية من الظهور. فحتى الأثرياء في باطنهم، ليسوا سوى أناس عاديين كبقية البشر.

كان عليّ أن أتذكّر مراراً وتكراراً كل ما علّمتنا إياه الأم الكبرى.

«لا تشفقن على أنفسكن، أشفقن على أولئك فقط (الذين) يثيرون غضبكن، فهم بحاجة ماسّة لمساعدتكن»

هناك شيءٌ آخر عليّ أن أخبركم به ...

عندما أتأمل بعمق حياة الأثرياء، أشعر أحياناً بأني أضطر للتعاطف معهم، واستغرب لذلك«من كان ليصدق ...» فمثلاً «يعود **أنانت سوني** نهاية كل يوم، من مؤتمر شركة الفيديو ليجلس بجانب سرير والدته ويفرك يديها المصابتين بالتهاب المفاصل. وتحدّق زوجة الدكتور **لالشانداني** بصمت من وراء نافذة غرفة نومها الفخمة، لأن زوجها يقيم علاقة مع امرأة أخرى في المدينة. و**براميلا فيجه** تبيع منازل بملايين الدولارات، وترسل المال لشقيقتها التي تعيش في ملجأ مهدم للنساء، و**راجيش** الذي استولت الدولة على شركته في اليوم نفسه الذي أحضر فيه الطبيب نتيجة الخزعة الطبية ليخبره قائلاً أنصحكَ البدء بالعلاج الكيماوي».

والآن، تقف أمامي مباشرةً، امرأة ترتدي سروالَ جينز واسعاً من ماركة **بيل بلاس**، وحذاء من **غوتشي**، تشتري رزماً كثيرة من خبز **النان** المسطّح، لحفلة الليلة. بدأت تنقر بأصابعها المطلية بالأحمر الياقوتي، بينما كنتُ أحزم لها الأرغفة البنيّة المسطحة، وتثرثر بتوتر، هيا بسرعة، أنا مستعجلة.

في أعماقها كانت تفكر بابنها المراهق فقط، الذي أصبح يتصرف بغرابة في الآونة الأخيرة، بدأ يتسكع مع أولاد يثيرون قلقها، يرتدون أقراط براقة وسترات سوداء وأحذية ثقيلة كالتي يرتدونها وقت الحرب، ويركبون دراجات نارية، يحدّقون بنظرات باردة ومخيفة، والأهم من كل ذلك، تشققات أفواههم، والتي أصبح لابنها مثلها، أيمكن أن يكون ولدها...؟ لكن رفض عقلها الإقرار بتلك الكلمة، لم تستطع حتى أن تهمسها لنفسها، فرغم كل تلك الطبقات السميكة من كريم الأساس وأحمر الشفاه وظل العيون الأرجواني الكثيف لم يخلُ وجهها من بعض الحب.

«أشكرك أيتها المرأة الثرية لأنك جعلتني أتذكر أن وراء كل ذلك القناع المشرق والمطلي بالذهب والألماس، وجهٌ مُعرّض للخطر في أية لحظة»

حشرتُ خلسةً في زاوية حقيبة يدها الثمينة من ماركة **غوتشي** أيضاً حبةً من **الهارتوكي** (اللوز الهندي) «بذرة مسحوقة على شكل رحم» ليس لها اسم في أمريكا. يساعد **الهارتوكي** الأمهات على تحمّل الآلام التي تبدأ منذ الولادة وتستمر إلى الأبد. حيث يتشابك الألم مع الفرح، كالحبل السرّي المربوط حول عنق الرضيع.

حلّ يوم السبت كالنور الخاطف لقوس قزح، انعكست ألوانه على جناح طائرٍ أسود، أو كتوسع التنورة أثناء رقصة **الكاشاك** (رقصة هندية شعبية)، تزداد توسعاً كلما ازدادت سرعة الحركة. يذكّرني يوم السبت بصوت الطبول القادم من ستيريو السيارات التي يقودها الشباب بتهور، وبدون أي هدف. في السبت عروض تحبس الأنفاس، ففي هذا اليوم، أقوم بتعليق لافتات معينة«**ميثي** طازج (بذور الحلبة) انتاج وطني بسعر مخفض بمناسبة مهرجان **الديوالي** (مهرجان الأنوار/ عيد هندوسي)، أحدث أفلام النجوم الكبار (**جوهي تشاولا، عامر خان**)، استأجر ليومين بتكلفة يوم واحد.

كما علّقتُ لافتة جريئة، فحواها ...

«اسألني إن لم تعثر على ما تريد ...!»

في يوم السبت، يحضر الكثير من الناس. لدرجةٍ تجعل جدران المتجر تأخذ نفساً عميقاً لاحتضانهم جميعاً. ويتكلمون بلهجات ولكنات مختلفة «الهندية الرسمية، الأوريا، لهجة أهل آسام، الأردية، التاميلية، الإنكليزية». وبطبقات صوتية مرتفعة كالعلامات الموسيقية لآلة التانبورا (آلة وتريّة). كانت أصواتهم تطلب أكثر مما ينطقون به، كانوا يحضرون للحصول على السعادة، التي يصعب عليهم الوصول إليها. وبالتالي، كان من واجبي أن أنصت بتركيز للفراغات بين كلماتهم، وأزنها بين راحتي يدي الجوفاء كالمرجان، وبينما أقوم بوزن وحزم مشترياتهم، أبدأ بهمس بعض الكلمات

السحرية لأكياس التوابل والأرز ورزم العجين، وأقوم في الوقت نفسه بتنبيه الزبائن بحزم مصطنع « من فضلك، لا تلمس الميثاي (حلوى هندية)، إن كسر أحدكم زجاجة الزيت، عليه أن يدفع ثمنها».

في الحقيقة، أنا أحب كل زبائن يوم السبت.

لا تظنوا أن التعساء هم وحدهم من يزور المتجر، هناك العديد من السعداء يحضرون أيضاً «أب حنون يحمل ابنته على كتفيه، ويشتري بعض **اللدو** (حلوى هندية)، قبل أن يذهبوا إلى حديقة الحيوانات. زوجان متقاعدان، حيث تُمسك الزوجة بكوع زوجها المتكئ على عكازه. ربات بيوت تحضرن بعد الظهر للتسوق والثرثرة، عَالِم كمبيوتر شاب يرغب بمفاجئة والديه بمهاراته الجديدة في الطبخ». فتراهم جميعاً يدخلون المتجر بهدوء ويتنقلون بين الأقسام بخفة. وأنا أسمع أحاديثهم، ألاحظ توهجاً خفيفاً يكتنفهم.

« انظر يا عزيزي، باقات من **البودينا** (النعناع)، خضراء كالغابات التي كنا نزورها أيام الطفولة، أمسكها بيدك واستنشق رائحتها القوية والطازجة، إنها تجلب السرور، افتح كيساً من الكاجو المفلفل وامضغ حفنة منه، واستمتع بالمذاق الحارّ وصوت الطحن وحركة الخدود المتراقصة والدموع اللذيذة التي ستملأ عينيكَ السعيدتين؛ ما رأيكَ بمسحوق الكركم الأحمر كلبِّ زهرة (الكركديه) التي وضعناها فوق جبيننا لتجلب لنا الحظ قبل زواجنا؟ انظر، انظر، صابون (ميسور) الهندي، المصنوع من زيت خشب الصندل، رائحته عطرة ومنعشة. هل تذكر؟ لقد اشتريتَ لي نفس الماركة في شهر العسل، عندما كنا في الهند، آآاه... ذكريات الزمن الجميل، ما أجمل الحياة».

همستُ ببعض الرُقى لأبارك وجودهم في متجري وأعبر لهم عن امتناني لسماحهم لي بمشاركتهم فرحتهم. لكنني عندما ألتفتُ لأقابل غيرهم، تتلاشى صور وجوههم من ذاكرتي فوراً. لأن هناك الكثير ممن يحتاج مساعدتي ...

«فعندما يحضر **مانو** مثلاً، والبالغ من العمر سبعة عشر عاماً، بسترته الحمراء الفاقعة من ماركة (49ers)، ويصيح في المتجر بصوت عالٍ، معلناً رغبته بشراء كيس من **الباجرا آتا** (دقيق الدخن) لوالدته، قبل أن يذهب للعب كرة السلّة في المدرسة. يُعدّ مانو الأعلى منزلةً في ثانوية (ريدج فيلد)، لكنه غالباً ما تملكه الغضب من والده لرفضه حضور الحفلات الراقصة، حيث كان يحتج عليه قائلاً: «هذا ليس عدلاً» فيصيح والده في وجهه «كل تلك الحفلات المنحرفة والتي لا تخلو من شرب البيرة والويسكي والرقص مع الفتيات الأمريكيات الرخيصات اللواتي لا تلبسن سوى التنانير القصيرة، ما الذي تخطط له أيها الخليع؟». ثم يخرج مانو من المنزل خلسةً، على رؤوس أصابعه المخفية تحت حذاء (نايك) ثمين، اشتراه بالمال الذي كسبهُ من تنظيف الحمامات في فندق عمّه الرخيص، والذي كان مستعداً لخلعه لو أنه عرف الطريق الصحيح».

عزيزي (مانو)، سأعطيكَ لوحاً من حلوى السمسم المغمورة بدبس السكّر. حيلة صغيرة لتهدئة الأعصاب، لتفتح قلبك، وتشعر بحبّ والدك المخفي وراء كل ذلك التوبيخ، وخوفه عليك من الضياع في أمريكا.

« وعندما تدخل **داكشا** إلى المتجر، مرتديةً زي الممرضات الأبيض الناصع كالنشاء، وكذلك حذاءها وابتسامتها المشرقة... أسألها كالمعتاد «**داكشا**؟ ما الذي تحتاجينه اليوم؟» فتجيبني «أوه... عمّتي، اليوم عيد **الإيكاداشي** كما تعلمين (عيد عند الهندوس، تُحرّم فيه الحراثة) اليوم الحادي عشر لظهور القمر وبما أن حماتي أرملة، يُحرّمُ عليها أكل الأرز. فظننتُ أنه من الأفضل شراء بعض القمح المطحون، لأصنع لها حلوى **الداليا**، وبما أنني هنا، سأشتري أيضاً بعضاً من **الميثي** (بذور الحلبة)، فزوجي يعشق **الميثي باراثا** (خبز البراتا الهندي)».

كنتُ أراقب وجهها بينما كانت تتفحص الأوراق المُرّة الخضراء، لاحظتُ اختفاء البريق الذي كان يُضيء عينيها، ولمحتُ ابتسامتها الحزينة، ففي كل

ليلة، تعود **داكشا** من المستشفى لتطبخ وتصنع **خبز الشباتي** الساخن بالسمن الطازج، لأن حماتها تؤمن بأن الطعام المُفرّز في الثلاجة لا يصلح سوى للخدم والكلاب فقط. فتقضي فترة المساء بالغلي والقلي وتتبيل الطعام وتقديمه، والجلي وتنشيف الصحون، بينما يجلس الجميع على المائدة، ويعربون عن سعادتهم قائلين: «يمممممم، كم هو لذيذ، المزيد من فضلك». لأن زوجها من الرجال الذين يؤمنون بأن المطبخ المكان المناسب للمرأة.

وعندما أسألُها «لماذا تُرهقين نفسكِ؟»، تُجيبني:

« آآآه يا عمتي، أعرف ذلك، لكن ما العمل؟ في النهاية، علينا أن نعتني بكبار السن، سأتسبب بالكثير من المشاكل لو رفضتُ تأدية كل تلك الواجبات، أتمنى أحياناً لو...

«توقفت **داكشا** عن الكلام»، فقد نسيت الكلمات المناسبة، **داكشا**، المرأة التي لا ينصتُ إليها أحد. أسمع صوت صراخها المكبوت في الداخل، وذعرها من المصائب التي تشهدها في المستشفى كل يوم»كالشباب الذين تُقابلهم في جناح الإيدز، بأجسادهم التي تزداد ضعفاً كل يوم، ناهيك عن هشاشة الجلد المتورم والعظام المهترئة، وعيونهم الجاحظة التي تنتظر الموت الوشيك».

« **داكشا**... سأعطيكِ بذرةً من الفلفل الأسود، قومي بغليها جيداً، ثم اشربيها لترخي حنجرتكِ، عندها ستتعلمين كيف تقولين « لا»، هذه الكلمة التي تجد كل نساء الهند صعوبةً في نطقها، أريدكِ من الآن فصاعداً أن تقولي « لا ... اسمعوني جميعاً.

وقبل أن تغادري، أريدكِ أن تأخذي بعض ثمار **الأملا**_ التي يجب أن أتناولها أنا أيضاً_ لتساعدكِ على تحمّل الآلام المزمنة، التي تنمو تدريجياً كغيمةٍ وسط الرياح الموسمية، حيث تحجب ضوء الشمس كلما ازداد حجمها.

« والآن، حضر فينود الذي يملك متجراً لبيع السلع الهندية، على

الجانب الآخر من المبنى. فهو يحضر عادةً بدافع المنافسة، كنت قد لمحتُهُ يزن بيدين خبيرتين خمسة أرطال من العدس، ليتأكد من أنها ليست أفضل من النوع الذي يبيعه في متجره. كان يشعر بالغيظ دائماً عندما يكتشف أن بضاعتي أفضل بكثير من بضاعته. عندما أسأله «أخي **فينود**، كيف تسير أمور العمل معك؟»، يقفز من الدهشة، لأنه يظن أنني لا أعرفه. أعطيتهُ كيساً محتوياته مختلفة الألوان «أخضر، بني، أسود»، وقلت له «هدية من الإدارة»، وبينما بدأ يشمّ رائحته بارتياب، أخفيت ضحكتي براحة يدي، ثم نطق أخيراً «آاااه ... أوراق الكاري» كان يُحدث نفسه «امرأة مغفلة 2.49$ فقط للكيس الواحد؟». ثم حشر في جيبه كيس الأوراق المجففة، ذات الأعواد القاسية السوداء، التي ستساعده على التخلص من الجشع والحد من انعدام الثقة بالنفس».

في يوم السبت، عندما يكون المتجر مكتظاً بالزبائن والرغبات المكبوتة، تخترق ذهني بعض الرؤى المستقبلية التي لا أستطيع التحكم بها، كما أنني لا أثق بمصداقيتها كلياً، حيث رأيتُ أناساً سيحضرون قريباً إلى المتجر. لم أعرف متى بالضبط، ربما بعد يوم أو سنة أو في زمن آخر. كانت الوجوه التي رأيتُها ضبابية وغير واضحة، وكأنني أراها من وراء زجاجة مليئة بفحم الكوك. لم أعرها الكثير من الاهتمام، فأنا مشغولة جداً، وسعيدة بما يُخبئه لي القدر.

لكن بدت الإضاءة اليوم وردية اللون، كزهور الدفلى المتفتحة حديثاً وكانت الإذاعة الهندية تبث أغنية عن فتاة نحيلة الخصر، ترتدي خلخالاً فضياً. انتابني الفضول لأعرف شكلها وشممتُ فجأةً في الجو رائحةً تشبه إلى حد ما رائحة الطيور البحرية. ما جعلني أرغب بفتح النافذة. ألقيتُ نظرةً إلى الخارج، فرأيتُ سيدةً ترتدي ثوباً فضفاضاً، تقف خلف عربة بقالة، ومجموعة من الأولاد متكئين بكسل على جدران ملوثة ببخاخات الكتابة، قرب صالون **مايشا** للسيدات. سمعتُ صوتاً ينادني من الخلف. ثم مرّت سيارة كاديلاك طويلة، لونها أزرق ضارب إلى الخضرة، ولها

زعانف كسمكة القرش، بدأ الزبون بالتذمر لأنني ربطتُ له الكيس مرتين، اعتذرتُ له لكنني كنتُ مشغولة بتذكّر «هل حضر العازب الأمريكي بسيارته؟ أم سيراً على الأقدام؟».

أجل، أعترف بذلك، إنه وراء إهمالي لزبائني. أود رؤيته ثانيةً.أُصبت بخيبة أمل عندما التفتُ ولم أجده بين الزبائن. رعشةٌ مفاجئة ألمت بي، حدثتُ نفسي «وعدني أنه سيأتي ثانيةً» وغضبتُ لأنه لم يفي بوعده، انتابتني رغبةٌ عارمة فقمت برمي طبق الحلويات على الأرض لتتدحرج كرات **اللدو والراسجولا** فوق الأرضية المُغبّرة، فالتصق الدبق وشظايا الزجاج بنعال الأحذية. كانت العيون المصدومة للزبائن تُحدّق بي مندهشة، لقد تعبتُ من تلبية رغباتهم، أود تحقيق رغباتي ولو لمرة واحدة فقط.

سيكون ذلك سهلاً، صدقوني، كل ما عليّ فعلهُ هو حرق بعض جذور اللوتس مع **البريشنيبارني** (عشبة معمّرة) في المساء، وعندما أتمتم ببعض الكلمات السحرية، لن يستطيع الابتعاد عن المتجر كثيراً. عندها سيقف هو أمامي بدلاً من هذا الزبون البدين، ذي النظارات السميكة المستديرة، والذي يعتقد أنني لا أملك **تشانا بيسان** (دقيق الحمّص). ولو أردت، لن أجعلهُ يرى هذا الجسد الهرم القبيح، بل سيكتشف جسداً ناعماً ممشوقاً كالمانجو، وصدراً مكتنزاً ليعصره بيديه القويتين وفخذين متناسقين كأوراق شجر الكينا. وسأطلب من نباتات **الأبريق** (نبات آكل للحشرات) و**الأملاكي** (الكشمش: عنب مجفف) أن تزيل عني كل التجاعيد والشيب، وتشدّ جلدي المترهل. والأهم من كل ذلك **الماكارادواج ريجوفيناتور** (كريم الشباب)، الذي قام أطباء **الآلهة الأخوين** (أشويني كومار) بتقديمه **لدانونتاري** (إله الطب عند الهندوس) ليكون في المقام الأول بين المعالجين. يجب دائماً استخدام **الماكارادواج** بحذرٍ شديد، لأن أي جرعة زائدة منه، يمكن أن تسبب الموت، لكني لستُ خائفة، فأنا **تيلو**... التلميذة المفضلة لدى الأم الكبرى.

بـدأ الزبـون البديـن يثرثـر بكلـماتٍ سريعـة، لكنـي لم أكـن أنصـت لـه. تُرى؟ مـا الـذي كانـت لتقولـه الأم الكبرى، لـو علمـت برغبتـي هـذه؟ أغمضتُ عينيّ، مدركةً الذنب الذي أقترفهُ، وتذكرتُ ما قالتهُ لي قبل أن أغادر

- أنتِ أكثر ما يثير قلقي يا صغيرتي.

كنـا نقـف عنـد قمـة البركان. لم يكـن فوقنـا سـوى السـماء المعتمـة. لم تكن نـيران **الشـمباتي** مشـتعلة بعـد. وبـدا الليـل الرمادي-البنفسـجي كالفراشـات الناعمـة فـوق الظـل الداكـن لمحرقـة الجثـث. ومن تحتنـا كانت الأمـواج البيضاء تتلاطـم بهـدوء. شـعرتُ وقتهـا وكأنني في حلـم، كان حزنها وقلقها عـليّ يحيط بي كالضبـاب الكثيـف. وددتُ أن أقـترب لأطبـع قبلـةً عـلى خدهـا الناعـم، لكنني لم أجرؤ. أحسستُ للحظة أنني أنا المُسنة وليست هي.

« عاتبتُها...»

- دائماً ما تشكّين بقدراتي أيتها الأم الكبرى.

- لأننـي أعـرف طبيعتـكِ جيـداً، تيلـو المتألقـة التـي لا تخلـو مـن بعـض العيـوب، كماسـةٍ متصدعـة، قـد تتحطـم وتتحـول لقطـعٍ صغـيرة عندمـا تُلقـى في المرجل الذي يدعى أمريكا.

- ما التصدع الذي تتكلمين عنه؟

- شهوات الحياة، تلك الرغبة العارمة لتذوق كل شيء، الحلو والمرّ.

- لا داعـي للقلـق يـا أمـي، ألـن تحـرق نـيران **الشـمباتي** كل رغبـاتي حـين أمشي فوقها، قبل أن يغيب القمر في السماء؟.

«تنهدت»

- آمل أن يحدث ذلك، خصيصاً لكِ.

«ثم باركتني برسم رموز مقدسة في الهواء.»

همـس الرجـل البديـن مـن وراء أذني، **تشـانا بيسـان** (دقيـق الحمّـص). جسده الثقيل يفوح برائحة مخلل الثوم والوجبات الدسمة.

- ألم تسمعي ما قلت؟ أريد بعض دقيق الحمّص.

فجأةً، أصبحت جمجمتي حارّةً وجافة واخترق رأسي أزيزٍ عالٍ، كأزيز النحل.

«أيها الرجل البديـن، بإمكاني إعطاؤك حفنةً من بذور الخردل وأتمتم ببعض الكلمات فتصاب بالحمى لمدة شهر وتتقيأ كل ما في معدتك من تلك المأكولات الدسمة».

تيلو، هل هذا ما توصّلتِ إليه؟.

تناهى لرأسي صوتاً كأنه صوت المطر، أولعله صوت بكاء التوابل، عضضتُ شفتي بقوة كي تنزف. فالدماء تطهرني وتستأصل السمّ العالق في جسدي السقيم.

- آسفة سيدي، لدي كيس ضخم من دقيق الحمّص في الداخل.

ملأتُ له كيساً صغيراً، ورسمتُ عليه بإصبعي علامة سحرية، كي نصبح نحن الاثنان قادرين على ضبط أنفسنا.

«أوه ... أيتها التوابل لا تقلقي فأنا لم أستغنِ عنكِ، **تيلوتاما** يا روح السمسم، يا من تمنح الحياة والحب والأمل، ساعديني، لا أريد أن أفقد توازني».

أيها العازب الأمريكي، رغم كل ضعفي اتجاهك وتفكيري بك، لكن عليكَ أن تأتي بملء إرادتكَ إن رغبت بالمجيء.

حضر في الصباح الباكر جدّ (جيتا) إلى المتجر للتسوق كالمعتاد، بالرغم من تحذيرات ابنه المتكررة.

- بابا، أخبرتُكَ أن ترتاح، لا يذهب من في مثل سنك للتسوق.

مايزال جدّ جيتا يمشي كالرائد العسكري، رغم أنه تقاعد منذ عشرين سنة. كان يرتدي قميصاً مكوياً ذا ياقة مدببة، وسروالاً رمادياً كالفولاذ، بكسرة مثالية عند الركبة، وحذاءً أسوداً مُلمّعاً ماركة **باتا**، يتماشى مع العقيق اليماني المربوط حول معصم يده اليسرى ليجلب له راحة البال.

أخبرني للمرة الثانية ...

- لم أهنأ بذرّة واحدة من راحة البال، منذ أن غادرتُ قرية **كالاباني** وحضرتُ إلى أمريكا، لطالما حثني ابني **راموا** على المجيء:

«هيا يا بابا، تعال وعش معنا هنا، لماذا تريد أن تكمل حياتك بعيداً عن عائلتكَ، لحمك ودمك؟ وبالأخص حفيدتك».

- أتريدين الحقيقة؟ من الجيد أنه ليس لديكِ حفيدة مثل حفيدتي **جيتا**.

قلتُ لاسترضائه:

- أعرف ما الذي تعنيه أيها الجدّ الطيب، لكن حفيدتك **جيتا** فتاة لطيفة وجميلة ومهذبة أيضاً، أنت مخطئٌ بحقها بالتأكيد، لطالما أتت إلى متجري لتشتري المانجو المخلل الحارّ، وتخبرني بكل أدب كم أنه لذيذ، كما أنها ذكية ومجتهدة، وقد تخرجت من الكلية بمعدّل ممتاز ـ هذا ما قالتهُ لي والدتها ـ وهي تعمل الآن مهندسة في شركة محترمة، أليس هذا صحيحاً؟

«لوّح الجدّ بعكازه المصنوع من خشب الماهوغاني، رافضاً كل ما ذكرتُهُ من مديح».

- «ربما ما تقولينه يناسب أولئك الفتيات الأجنبيات في هذه البلاد، لكن أخبريني سيدتي، عندما تعمل فتاةٌ شابة في مكتب برفقة الكثير من الرجال وتأتي إلى المنزل بعد حلول الظلام، وأحياناً، يقومون بتوصيلها بسياراتهم. أوه، يا للفضيحة، لو كنا في مدينة **جمشيدبور** الآن، لأصبحت سمعتنا كروث البقر بسبب ذلك، من سيقبل الزواج بها؟ لكن عندما أخبر **راموا** بكل هذا، يبتسم في وجهي...بابا، لا تقلق، إنهم مجرد زملاء، فابنتي أذكى من أن يضحك عليها بعض الشبان الأمريكان»

«هدّأتُ من روعه».

- لكن أيها الجدّ الحنون، هذه أمريكا كما تعلم، وحتى في الهند، أصبحت النساء تذهبن للعمل، بل وفي **جمشيدبور** أيضاً.

- هراء، بدأتِ تتكلمين مثل **راموا** وزوجته، أوه، تلك البلهاء **شيلا** قد بالغت في تدليل ابنتها، تمنيتُ أن تصفعها ولو لمرة واحدة، انظري ما

النتيجة. حتى ولو كانت هذه أمريكا كما تقولين، فنحن لا نزال بنغاليين، أصحيح!؟ وبالتالي، يجب فصل الذكور عن الإناث، فعندما تضعين الزيت قرب عيدان الثقاب، اعلمي أنه سيشب الحريق عاجلاً أم آجلاً.

«أعطيتهُ زجاجةً من زيت **براهمي** لتهدئة الأعصاب».

- اسمعني أيها الجدّ الطيب، أنا وأنت مُسنَّانِ بما فيه الكفاية، آن الأوان لنملأ وقتنا بالصلاة والتسبيح وندع الشباب اليافعين يديرون حياتهم كما يحلو لهم.

بقي جدّ **جيتا** يحضر في كل أسبوع، ليروي مشاكله مع حفيدته.

- يوم الأحد، حضرت تلك الفتاة الطائشة إلى المنزل بشعرٍ قصير جداً، ما جعل رقبتها مكشوفة للجميع، سألتُها:

جيتا؟ ما الذي فعلتِه؟ ألا تعلمين أن شعركِ رمز أنوثتكِ؟ هل تعلمين كيف أجابتني؟.

«استطعتُ معرفة الجواب من تغضن ملامح وجهه، لكنني جاملتُهُ وادعيتُ عدم المعرفة».

- ماذا قالت؟

- ضحكت وأزاحت تلك الخصل القصيرة عن وجهها، وقالت « أوه... جدّي، أنا بحاجة لمظهرٍ جديد.

عداكِ عن كل تلكَ المساحيق التي تضعها على وجهها، آاه... في أيامنا، كان المكياج مخصصاً للعاهرات والسيدات الانكليزيات فقط، لم تكن الفتيات الهنديات المحترمات تخجلن من وجههن كما خلقتهُ الآلهة، لن تتصوري ما الذي تحمله معها حتى عندما تذهب إلى وظيفتها.

«تكلم بغضب، أردتُ التبسم، لكنني تراجعتُ وأجبتُهُ.

- أنت تبالغ كثيراً... ربما تكون مجرد تخيلات.

«قاطعني، وصرخ بصوت مرتفع»

- تخيلات؟ هل تعرفين ماذا وجدتُ في حقيبة يدها؟ «مسكرة، أحمر

خدود، كريم أساس، ظلال عيون، والكثير من المستحضرات التي لا أعرف أسماءها، إضافةً إلى أحمر الشفاه الفاقع الذي يجعل كل الرجال يحدقون في شفتيها.

هل تعرفين ما الذي فعلتهُ نهاية الأسبوع الماضي؟ لقد اشترت سيارة جديدة لنفسها، كلفتها آلاف الدولارات، لونها أزرق فاقع يؤذي العيون. أخبرتُ **راموا** «ما هذا الهراء؟ فسيارتكَ القديمة تفي بالغرض، كان عليك توفير ذلك المال لمهرها، لكن ذلك الأحمق ابتسم في وجهي وبرر فعلتها: «هذا مالها، كسبتهُ من وظيفتها، علاوةً أننا سنجد لها عريساً هندياً محترماً، يعيش هنا في أمريكا، ولا يهتم بقضايا المهر.»

عندما رحل، همستُ ببعض الكلمات

«**جيتا**، اسمك يعني (أغنية جميلة) حافظي على صبرك، مزاجك، حيويتك وحبك للحياة. سأحرق من أجلك زهرة **شامباك** عطرة، ليعمّ التفاهم منزلك من جديد. **جيتا**، الشابة (الهندية-الأمريكية) التي اختارت أن تعزف لحناً مختلفاً، سامحي رجلاً عجوزاً يتمسّكُ بماضيه الرتيب بإصرار، لكن بيدين ضعيفتين.

حضر جدّ اليوم **جيتا** بدون سلة التسوق المعتادة، كانت أصابعه المفلطحة والمتيبسة ترتعش من توتره. وقف لفترة أمام الكاشير، وحدّق في طبق **الميثاي** (الحلويات)، لكنه كان شاردٌ في عالمٍ آخر. حين سألتهُ عن طلباته، انفجر في وجهي.

- سيدتي، لن تصدقي.

«تكلم بنبرةٍ عالية، كمن تعرض لفضيحة، ويلتمس لبعض العفة، والقليل من الخوف الذي لم يتمكن من إخفاءه».

- أخبرتُ **راموا** مئة مرة أن طريقتهُ في تربية الأطفال وبالأخص الفتيات غير صحيحة، فكلما طلبت ابنتهُ شيئاً، يُجيبها: حاضر، حاضر، وبّختُهُ كي يتذكر، «هل تذكر عندما كنا في الهند، كنتُ أضربك أنت وأشقاؤك

وشـقيقاتك لأبعدكـم عـن المشـاكل؟ هـل كان ذلـك بدافـع الكراهيـة؟ بالطبـع لا، لكننـي كنـتُ أعـرف واجبـي كأب، أخبرتُـهُ مـرات عديـدة، زوجهـا الآن، لقـد تخرجـت مـن الكليـة، لمـاذا تسـمح للنحـس أن يطـرق بـاب منزلـك؟ انظـر مـا الذي فعلتَهُ الآن.

«سألتُهُ بإلحاح»

- ماذا حدث؟

«ضـاق قلبـي مـن التكهـن، حاولـتُ قـراءة أفـكاره، لكـن بـدا عقلـه كدوامـةٍ من الرماد وأوراق الشجر الميتة».

-وصلتنـي في الأمـس رسـالة مـن صديـقٍ قديـم مـن أيـام الجيـش، اسـمه **جـادو بهاتشـاج**، يقـول فيهـا إنـه يبحـث عـن عـروسٍ مناسـبة لابـن أخيـه الأكـبر «ولـدٌ محـترم، وبغايـة الـذكاء، عمـره ثمـانٍ وعـشرون سـنة فقـط، مـع ذلـك تـم تعينـه كرئيـسٍ لمجلـس الأمـن الفرعـي في المنطقـة، طلـب منـي بعـض المعلومـات عـن **جيتـا** وصـورة لهـا، ربمـا يوافـق عليهـا أهـل العريـس، أفرحنـي الخـبر كثـيراً، وتضرّعـتُ للإلهـة **دورغـا شـاكراً**، وأخـبرت **رامـوا** فـور وصولـه إلى البيـت، لكنـه لم يكـن متحمسـاً، وأخـبرني أن ابنتـه نشـأت في أمريـكا ولـن تكـون قـادرة عـلى التكيـف ضمـن عائلـة كبـيرة متـآزرة في الهنـد، كـما أضافـت زوجتـهُ **شـيلا** أنهـا لا تريـد لابنتُهـا الوحيـدة أن تعيـش بعيـدةً عنهـا، فقلـتُ لهـا: «هـل نسـيتِ يـا امـرأة؟ أنـتِ لا تتكلمـين بعقلانيـة، ألم ترسـلكِ أمـكِ لتعيـشي بعيـدةً عنهـا عندمـا تزوجـتِ؟ يجـب أن تفعـلي مـا يتناسـب ومصلحـة **جيتـا**، فمنـذ الـولادة يُعتـبر بيـت أهـل الـزوج، المنـزل الحقيقـي للأنثـى» وهـل هنـاك أفضـل مـن آل **جـادو** المحترمـين؟ عائلـة عريقـة مـن **البراهمـة** (الكهنـة ورجـال الديـن) يتمتعون بسمعةٍ حسنة، كما أنهم من أشهر عائلات **كالكوتا**.

أجابني **راموا** في النهاية «حسناً، سنأخذ رأي جيتا أولاً».

«أخـذَ نفسـاً عميقـاً، أردتُ مسـح القصـة من دماغـه، لكنني قاومـت رغبتي، وجعلتُهُ يكمل».

- كالعادة، حضرت السيدة **جيتا** عند التاسعة مساءً وأخبرتنا أنها تناولت العشاء مع أصدقائها، مبررة ذلك «ألم أقل لكم في الصباح، أنني سأخرج مع أصدقائي لتناول البيتزا؟» وددتُ تأنيبها «منذ متى كانت الفتيات تتسكعن مع أصدقائهن؟»، لكنني لزمتُ الصمت وتمالكتُ أعصابي، أخبرها والدها بشأن العريس.

هل تعلمين ماذا أجابته؟ «بابا، أنت تمزح بالتأكيد، وأخذت تضحك بجنون وتصيح في وجهه «هل رأيتني أرتدي الحجاب وأجلس في مطبخ مشبع بالبخار طوال النهار؟ وأربط حول خصري حزمة من مفاتيح المنزل؟ فأجابها **راموا** «لا لا يا عزيزتي، لن يكون الوضع كما تتخيلين»، فصرختُ في وجهها وما العيب في ذلك أيتها المتعالية؟ فجدتُكِ (لتحمها الآلهة وتُقدّس روحها الطاهرة) فعلت ذلك طيلة حياتها، أجابتني «لا أقصد الإهانة يا جدّي، لكن تلك الطقوس لا تناسبني وبما أننا في صلب الموضوع، الزواج المُدبَر لا يناسبني أيضاً، عندما أريد الزواج، سأختار الرجل المناسب بنفسي».

«بدأ الغضب يملأ وجه **راموا**، وقطّبت شيلا حاجبيها.

خاطبتهما: هل تسمعان كل ما قالته؟ لذلك طلبتُ منكما إرسالها إلى مدرسة **رام كريشنا** الداخلية في **تشينسورا**.

لكنها سرعان ما قاطعتني واعترفت بأنه حان الوقت لتكشف لنا عن عشيقها الذي لا نعرفه، تصوري!؟ بكل وقاحةٍ، تتكلم عن الحب أمام والديها وأمامي أنا جدُها.

«بعد أن تجاوز **راموا** وزوجته أول صدمة، سألها والدها، «ماذا تقولين الآن؟»، ورمقتها أمها بنظرةٍ مرتابة «من يكون؟»، ثم سألها الاثنان معاً «ما مهنتُهُ؟ هل نعرفه؟».

احمرّ وجهها غضباً وحبست أنفاسها كالغواصين، فعرفتُ أن هناك الكثير من الأخبار السيئة في طريقها إلينا «إنه يعمل في الشركة ويدير الكثير من المشاريع. ثم صمتت لدقيقةٍ كاملة، بعد ذلك صرخت في وجهنا «اسمه **جوان كورديروا**»

يا للهول، تريد الزواج من رجلٍ أبيض، ثم أكملت متضرّعة «ماما، بابا» أرجوكما لا تنزعجا، إنه رجلٌ لطيف للغاية، ستلاحظون ذلك عندما يحضر لزيارتنا، سعيدة لأنني كشفتُ عن سري أخيراً، منذ وقتٍ طويل وأنا أتحين الفرصة المناسبة لذلك، ثم التفتت إليّ وهمست: «جدّي، إنه ليس أبيضاً، بل مكسيكي، لم أفهم قصدها، لكنني عرفتُ أنه أسوأ مما ظننت.

حين شرحت لي، أخبرتُها أنها تُسيء لمنزلتها الاجتماعية وتلطخ سمعة أجدادنا بزواجها من رجلٍ ليس من عرقنا، ينحدر من سلالة المجرمين والمهاجرين غير الشرعيين والذين قضوا معظم حياتهم في الأحياء الفقيرة، لا تقولي لي «أوه جدّي، أنتَ لا تفهمني» هل تظنين أنني لا أتابع نشرات الأخبار؟

«بدأت **شيلا** بالنحيب والبكاء فصَرخت في وجهها «لم أعتقد أنك ستفعلين كل هذا بنا، هل هذا ثمن الحرية التي منحناك إياها؟ لقد حذّرنا أقرباؤنا من قبل، لكننا وثقنا بكِ ولم نعرهم أي اهتمام، بقي **راموا** هادئاً كالصنم. أردتُ لومه بالقول له: «عندما تسمح للبقرة بالخروج من المزرعة، لن تستطيع منعها عن سحق حقول الأرز بحوافرها، لكنني حين رأيتُ وجهه في تلك اللحظة، صُنتُ لساني وأخبرته «في الغد، احجز لي تذكرة طيران إلى الهند يا بني». ثم اقتربت **جيتا** وهزت كتفيه «بابا، قل شيئاً».

«أبعدها عنه بعنف كمن تعرّض لصدمة كهربائية مفاجئة، وقد تشنجت عضلة خده الأيمن بالطريقة ذاتها التي كنتُ ألاحظها دائماً حين كان صغيراً، فهو عندما يغضب تُصيبه هذه الحالة قبل أن يقوم بكسر إبريق أو ضرب صديقه أو فعل أي شيئ من هذا القبيل. عصر قبضتي يديه بعنف، ظننتُ أنه على وشك ضربها، حينها اسودّ كل شيءٍ أمامي، وشعرتُ كأن قطرات صغيرة من الخردل تحرق عينيّ. فحدثت نفسي: *إني مُسن بما فيه الكفاية، صداع مفاجئ ألمّ بي، تمنيتُ لو ضاعت تلك الرسالة المشؤومة قبل أن تصل إلى صندوق البريد*»

لكنه استرخى فجأةً وتكلم بهدوء «لقد وثقتُ بكِ»، كان صوته أقسى من الضرب.

ثم أغمضتُ عينيّ عندما بدأت الأم وابنتها تتشاجران.

- اذهبي إلى غرفتكِ، لا أريد رؤية وجهكِ بعد الآن.

- لن تريه مجدداً، فأنا راحلة ولن أعود.

- افعلي ما يحلو لكِ، سنكمل حياتنا أنا ووالدكِ وكأننا لم ننجب، سيكون ذلك أفضل.

- بابا؟ هل هذا ما تريده؟

صاح **راموا**

- اصمتي.

- حسناً، سأنتقل للعيش مع **جوان**، لقد طلب مني ذلك منذ فترةٍ طويلة، لم أقبل حينها لأنني كنتُ أفكر بكم، أما الآن، اختلف كل شيء.

« بدأت **شيلا** تصرخ وتنشج بانفعالٍ أكثر»

- لا يهم أين ستذهبين، أيتها الفتاة البذيئة الوقحة التي لم تجلب لنا سوى النحس.

«اختلطت أصوات البكاء مع الإغلاق العنيف للأبواب، بدت كالارتطام، ثم سمعتُ صوت محرك السيارة وصرير الفرامل. عندما فتحتُ عينيّ وجدتُ نفسي وحيداً في غرفة المعيشة. لم يكن هناك سوى صوت مذيع الأخبار على شاشة التلفاز يتحدث عن وقوع عاصفةٍ وشيكة في المحيط. ذهبتُ إلى غرفتي لأرتاح، لكني لم أذق طعم النوم».

«أشار بإصبعه إلى أوردة عينيه الحمراء ليُثبت ذلك».

سألتُهُ:

- وماذا حدث هذا الصباح؟

«هز كتفيه بيأس»

- غادرتُ المنزل قبل أن يصحو أحد وبدأتُ أتمشى أمام متجركِ، ذهاباً وإياباً، أنتظر قدومكِ.

- وكيف أساعدكَ؟

- أعرف أنه بإمكانك مساعدتي، سمعتُ بعضهم يتحدث عن نزهة جماعية إلى البنغال، سيتسنى لمن في عمرنا، استنشاق الهواء النقي ولعب الورق، أرجوكِ سيدتي.

«أخفض جدّ **جيتا** رأسه الأبيض المتبجح وعبرَّ عن رغبته بكلمات غريبة عنه وكأنها دخيلة، قادمة من مكانٍ بعيد، أعطيتُهُ رطلاً من مسحوق اللوز و**الكيسار** (الزعفران) ليغليه مع الحليب.

- على الجميع أن يشرب منه قبل النوم فهو يساعد على تلطيف الأجواء وتهذيب الألفاظ وتهدئة المزاج وترتيب الأفكار وليتذكر كل واحدٍ منكم الحب المتواري خلف غضبه.

وأنت أيها الجدّ الطيب الذي تسبب بكل ذلك النزاع، انتبه جيداً لما تقوله من الآن فصاعداً، كفّ عن التحدث في موضوع العودة إلى الهند وعندما تشعر بأنك على وشك أن تتفوه بكلام سيء، قم بابتلاعه مع ملعقة واحدة من شراب **الدراكشا** (العنب) المُركّز هذا.

«أخذ الزجاجة من يدي وشكرني صاغراً»

- رغم ذلك، لا أظن أن ما فعلتُهُ يكفي، ليأخذ الدواء مفعوله، يجب على جيتا أن تحضر إلى المتجر.

- لكنها لن تفعل ذلك.

«تكلم بصوتٍ جافٍ، خالٍ من الأمل. كان منهاراً ومنكمشاً. وبدا بثيابه المعلقة على كتفيه كفزاعة الغربان. خيم الهدوء حولنا لوهلة، ثم استأنف الجدّ.

- ربما تستطيعين أنتِ الذهاب إليها، سأدلكِ على الطريق.

«لاحظتُ في صوته نبرة جديدة لم تخلُ من التردد والاعتذار».

- مستحيل، لا يُسمح لي بمغادرة المتجر.

«لم يجادلني، بل رمقني بنظرة حيوانٍ جريحٍ مسكين».

فجأةً، ودون سابق إنذار بدأتُ أفكر بصديقي العازب الأمريكي، أوه... **جيتا**، أدرك مثلكِ تماماً كيف يمكن للحب أن يُعمي بصيرتك ويسحبكِ كأن

القلب مشدود بحبل، يجعلكِ ذلك تنزفين وتتخلين عن الجميع، لذلك لن أخيّب أملُ جدّك المسكين».

- أوه، حسناً أيها الجدّ، هذه المرة فقط، لن يسبب ذلك الكثير من الضرر على ما أظن.

حلمتُ تلك الليلة بالجزيرة.

لطالما حلمتُ بها، لكن هذه المرّة، كان الحلم مختلفاً، بدت السماء ضبابية ومظلمة أو بالأحرى لم يكن هناك سماء ولا حتى بحر، كانت الجزيرة تطفو وسط فراغ مظلم، خالٍ من الحياة وعندما توضحت الصورة أكثر، رأيتُ نفسي أجلس مع زميلاتي تحت شجرة **بانيان**، كانت الأم الكبرى حينها تسألنا عن الدروس التي تعلمناها.

- ما هو الواجب الرئيسي لعاشقة التوابل؟

«رفعتُ يدي كي أُجيب، لكنها اختارت فتاةً أخرى»

- أن تساعد كل من يحتاج لمساعدتها.

- وكيف عليها أن تشعر اتجاه المحتاجين لمساعدتها؟

«رفعتُ يدي مرةً أخرى، لكنها تجاهلتني ثانيةً، ثم أجابتها إحدى التلميذات»

- أن تحب الجميع على قدم المساواة، لا شيء شخصي.

- وما المسافة التي يجب أن تكون بينها وبينهم؟

«أجابت فتاةٌ أخرى»

- لا بعيدة ولا قريبة جداً، المهم ألا تفقد توازنها.

«نهضتُ بغضب، لماذا لا يمكنها رؤيتي؟ أو هل يكون تجاهلها لي مجرد عقاب مُتعمَد؟ قالت أخيراً:

- آآاه... تيلو، الفتاة القوية الواثقة دائماً، والأنسب للإجابة على هذا السؤال: ماذا يحدث عادةً عندما تخالف عاشقة التوابل القوانين، وتسعى لتحقيق رغباتها الشخصية؟.

- ستقوم نيران **الشمباتي**...

«لكنها قاطعتني»

- لا أقصد ماذا سيحدث لها، بل بل ماذا سيحدث للمحيطين بها.

«أوشكتُ أن أقول لها، لكنكِ لم تُعلّمينا ذلك أيتها الأم الكبرى، لكن أبَى صوتي أن يخرج».

استأنفت الأم كلامها.

- أجل، أعرف ذلك لأنني ظننتُ أنه ما من داعٍ لمعرفة ذلك، ربما أكون مخطئة، اسمعن جيداً، سوف تعرفن الآن كل شيء.

«التفتت إليّ وبدا وجهها كالتلسكوب، بدأ يكبر ويلوح في الأفق، تلاشى كل شيءٍ من حولنا، حتى جسدها وأنفها ووجنتاها وعيناها. لم أعد أرى سوى فتحة وسط الظلام على شكل شفاه، وبدأت تقول:

«عندما تستغل عاشقة التوابل قواها لتحقيق مصالحها وتخالف القوانين القديمة المقدّسة»

«أصبح صوتها الأجش الآن، غائراً وأكثر خشونةً، كان يشبه إلى حدٍ ما قعقعة سلاسل الزنزانة عندما ترتطم بالحجر.»

«تكون بذلك قد خرقت النظام الدقيق للعالم المتوازن، وسوف...»

- وسوف ماذا أيتها الأم؟

« لم تجبني، ثم اتسعت الشفاه المظلمة لتتحول إلى ابتسامةً عريضة أو ربما تكشيرة حزينة، بدأت الجزيرة بالاهتزاز وارتفعت حرارة الأرض، ثم سمعتُ هدير البركان الذي بدأ بقذف الحمم البركانية والرماد. اختفت الأم الكبرى الآن. وكذلك تلميذاتها.

بقيت وحدي على الجزيرة التي أصبحت كطبقٍ قذر ينتظر من ينظفهُ. بدأت الحمم البركانية تتطاير في وجهي كالسهام، حاولتُ تجنبها، لكن الأرض أصبحت ناعمة وصقيلة كالزجاج المنصهر، فانزلقتُ عند الحافة وسقطتُ في الفراغ، كان ذلك أكثر شعور مرعب خضته في حياتي، ثم استيقظت وقد أكملت ما لم تكمله الأم الكبرى.

«ستتحول حياة كل من أحبّتهُم إلى فوضى عارمة، لأن واجبها يُحتم عليها مساعدتهم فقط».

الشمّر

لم تحضر زوجة **أهوجا** إلى المتجر لأشهرٍ، في السابق، لم أعر اهتماماً لمشاكلها الخاصة، فقد حذرتنا الأم الكبيرة...

«ما سيحدث، سيحدث. واجبكنّ فقط هو تقديم التوابل المناسبة للزبون، لا أن تكترثن لنتائجها فيما بعد».

لكن شيئاً ما بداخلي بدأ يتغير تدريجياً منذ أن حضر ذلك الأمريكي إلى المتجر، وكأن حبةً من القمح قد نُزِعت قشرتها القاسية عنها، أو بعض البذور الصلبة التي أصبحت طرية بفعل الرطوبة. لقد اخترقت آمال وأحزان البشر جلدي كشفرةٍ حادّة.

لستُ متأكدة من أنه شيءٌ جيد.

أصبحتُ أفكر بها طوال الليل، ترى؟ هل استخدمت **الكركم** الذي أعطيتُها إياه؟ ربما لم تعد تطبخ طعاماً هندياً، ربما تستعمل توابل منتهية الصلاحية، اشترتها من مكانٍ آخر. تخيلتُ فجأةً كيساً من البهار ينزلق من يدها بينما كانت تفتحه، وقد تناثر المسحوق الأصفر فوق أرضية المطبخ كغبار الذهب المهدور. جاءتني فكرة مخيفة أبعدتُها عن رأسي بكل قوتي، وهي أنه ربما يكون التابل قد فشل في تأدية واجبه، ما يعني أن حياتي كلها قد تفشل قريباً.

بـدلاً مـن ذلـك، تذكّـرتُ كيـف لامسـت أشـعة الشـمس وجههـا اللطيـف قبـل مغادرتهـا المتجـر، لتُخـفِ تلـك الكدمـات الظاهـرة تحـت عينيهـا، يومهـا قمتُ بتوديعها قائلةً:

- فليحمكِ الرب.

لم تنطـق بكلمـة واحـدة، بـل أومـأت برأسـها لتُعبّر عـن شـكرها، لاحظـتُ مـن تحـت نظارتهـا السـوداء، نظرتهـا المرتابـة وكأنهـا تحتـج «بعـد أشـهر مـن الصلوات غير المستجابة، كيف تتوقعين مني أن أؤمن بالرب؟».

وجـدتُ نفـسي مؤخـراً ألجـأ للتبـصر، الـذي اسـتخدمتهُ كضـوء الكشـافة، لأدخـل بـه إلى غرفـة نومهـا المظلمـة، رأيتُهـا تديـر ظهرهـا لزوجهـا الـذي كان يشـخر بعنـف، بينـما تبـكي فـوق وسـادتها وتنهمـر دموعهـا كاللؤلـؤ النقـي، أو ربما تتحول دموعها تلك لتصبح كالأسيد فيقضي على جسدها بالكامل؟.

ما أفعلهُ في غاية الخطورة.

تذكّرتُ ما قالتهُ لنا الأم الكبرى.

الجـأن للتبـصر وسـتدركنّ الطريق، لكن إياكن أن تُخضعنـهُ لرغباتكن الخاصة واحـذرن مـن التطفـل أو التدخل في حيـاة الآخرين الذين يحتاجون لمسـاعدتكن، فمن شأن ذلك أن يزعزع الثقة بينكن وبين التوابل».

«هـل كانـت تنظـر في عينـيّ مبـاشرةً عندمـا كانـت تُحذرنـا؟ ربمـا كانـت على علم بطبيعتي».

«والأهـم، ألا تتقرّبـن كثـيراً، لأنكـن سـترغبن بذلـك، فبالرغـم مـن القَسـم الـذي يُمـلي عليكـنّ المسـاواة مـا بـين الجميـع في تعاملكـن معهـم، سـتلتقين بأشـخاص مميزيـن قـد ترغـبن بمنحهـم بعـض الحنـان، أو ربمـا تشـعرن بالرغبـة في تعويضهـم عنفقدانهـم لأحـد الأحبـاء، أم متوفيـة أو صديـق أو عاشـق، لكـن تذكّـرن أن ذلـك ممنـوع، لأنكـن عندمـا تخـترن التوابـل للزبـون، تقـوم هـي بـأداء واجبهـا، فـلا دور لكـنّ بعـد ذلـك وفي حـال تقرّبـت إحداكـن أكـثر مـن اللازم، سـتتحول الخيـوط السـحرية التـي تربـط بينهـا وبـين الزبـون، إلى شـبكة

من القطران والفولاذ، وسيعلق فيها الطرفين ويتذوقا طعم الهلاك».

أؤمن بذلك، فقد شعرتُ بانهيار الصخور تحتي عندما اقتربتُ من الحافة، وبدأتُ أكرر طوال الليل ما قالتهُ الأم الكبرى، وصرفتُ عن مخيلتي صورة تلك الشقة عبر المدينة، التي سمعتُ منها صوت رجلٍ يصرخ في وجه زوجته بوحشية. تلك الشقة التي بدت كبئرٍ أجوف على وشك الانفجار. شعرتُ بالغيظ لعدم قدرتي على التدخل.

أيتها التوابل ... أعلم أنكِ قادرة على حمايتها.

«هل شعرت ببعض الشك فيما قلته؟ ولو حتى بأثرٍ ضعيف؟ كنفحة من شيءٍ ما يحترق ويتلاشى بسرعةٍ خاطفة بفعل رياحٍ عاتية؟ هل شعرت التوابل بذلك أيضاً؟».

عندما دخلت زوجة **أهوجا** إلى المتجر هذا الصباح، بدت نحيلة أكثر من قبل، واشتد السواد تحت عينيها بشكل ملحوظ. رغم ذلك، كانت بحالة لا بأس بها، حاولت الابتسام قليلاً بخجل وتردد، ثم نطقت أخيراً **ناماستي** (تحياتي). شعرتُ ببعض الارتياح والسرور الذي سال في جسدي كالعسل الحلو فنهضتُ من وراء الكاشير وألقيتُ عليها التحية.

- كيف حالكِ يا ابنتي، كنتُ قلقةً عليكِ، لم تحضري منذ مدةٍ طويلة.

وضعتُ يدي على ذراعها، فصرخت التوابل

كلا **تيلو** ... انتبهي.

أجل أيتها التوابل، لقد فعلتُها عن قصد. لم يكن ذلك صدفة، أنا من بادر بلمس الجلد والدم والعظام. عندما لمستُ بشرتها شعرتُ بنبض يتدفق قوياً لتعبر كل مخاوفها إلى عروقي عبر نيرانٍ باردة وجليدٍ ساخن. أصبح النور ضعيفاً كقبضةٍ عملاقة تحجب ضوء الشمس، أو ربما ظلام حلَّ على عدسة العين بسبب الصدمة. أصابني الدوار، ترى؟ هل هذا ما يشعر به البشر العاديين عندما لا يتسلحون بالسحر؟ إذاً، بماذا تشعر زوجة **أهوجا** الآن؟

كانت التوابل تصيح في وجهي، **بدا** صوتها كأيدٍ ساخنة تضغط فوق الأذنين

«ابتعدي عنها، **تيلو**، ابتعدي قبل أن تحترقي»

شددتُ عضلاتي لأعود إلى بر الأمان، ثم تكلمت **لاليتا** بنبرة متقطعة

- أوه... **ماتاجي** (أيتها الأم المحترمة)، أنا تعيسة للغاية، لا أعرف ماذا أفعل.

«كانت شفتاها شاحبتين كبتلات الورد المجفف، وبدت عيناها كالزجاج المُحطم، بدأت تتأرجح قليلاً ثم ناولتني يدها الأخرى، عندما أمسكتُها فاحت رائحة تُنذر بالشؤم، رائحة احتراق ورماد انبعثت من ألواح الأرضية. رغم ذلك، عصرتُ يدها بإحكام.

قلتُ لها كما تقول كل الأمهات عادةً:

«هش، اهدئي يا طفلتي، سيكون كل شيءٍ على ما يرام.

- أيتها الأم المحترمة، ربما يقع بعض اللوم عليّ أيضاً.

«جلسنا في المطبخ الداخلي الموجود خلف المتجر_ علماً أنه لا يُسمح لي بذلك_ وبدأت أنصت لكلامها هذا خطأي أنا، خطأي أنا، *أغنية رتيبة تعلّمتها معظم نساء العالم*.

- لماذا تقولين ذلك يا ابنتي؟

- في الحقيقة، لم أرغب في الزواج، كانت حياتي ممتعة، أقضي معظم وقتي في الخياطة وأذهب مع صديقاتي إلى السينما، أتناول **الباني بوري** (مقبلات هندية مقرمشة)، وكان لدي حساب مصرفي خاص بي أيضاً، لذلك لم أكن أطلب المال من أبي. لكن عندما طلب مني والديّ الزواج، أجبتهما بالإيجاب إن كان ذلك ما يريدانه، لأنه وكما تعلمين من العار في مجتمعنا ألا تتزوج فتاةٌ ناضجة، لذلك لم أرغب بجلب العار لعائلتي. لكني حتى اللحظة الأخيرة، تمنيتُ لو يحدث أمرٌ ما يعرقل هذا الزواج،آاااه... لو حالفني الحظ قليلاً.

«قدّمتُ لها الشاي الساخن ونقعتُ فيه شريحة من الزنجبيل الطازج، بكوبٍ زجاجي مزخرف ليمدها ببعض الشجاعة.

- ماذا شعرتِ حينما قابلتِ زوجك للمرة الأولى؟

«أخذت رشفةً من الشاي»

- وصل من **أمريكا** قبل ثلاثة أيام من الزفاف، كانت تلك أول مرة أرى فيها وجهه، لكن قبل ذلك وصلتني صورة له طبعاً.

«توقفت فجأةً عن الكلام، فتساءلتُ هل يمكن أن يكونوا قد أرسلوا لها صورة رجلٍ آخر؟، فقد حدث ذلك لكثير من الفتيات...»

- لكن عندما رأيتُهُ أدركتُ أن الصورة قد اُلتقطت قبل سنوات عديدة.

«لم يخلُ صوتها من بعض الغضب، حنت كتفيها بيأس، كما فعلت عندما التقيتُ بها أول مرة.

- لقد فات الأوان، لم أستطع إلغاء حفل الزفاف. فقد أُرسلت الدعوات، ووصل كل الأقرباء من خارج المدينة، كما تم وضع خبر الزواج في الصحيفة اليومية، آآاه ... لقد أنفق والدي المسكين الكثير من المال لأنني البنت الأكبر، لو رفضت، لشوهتُ سمعة شقيقاتي وعائلتي وبالتالي سيتجنبنا الناس «أوه ... لا تتزوجوا من بنات السيد (تشودري) عائلة لا تُطاق، صحيح أني تزوجتُهُ، لكن كان الغيظ يملأ قلبي، كنتُ أشتُمهُ بكل الكلمات البذيئة «كاذب، محتال، حقير، خنزير».

في ليلة الدخلة، لم أنطق بكلمة واحدة، وعندما بدأ يغازلني، أدرتُ لهُ ظهري، حاول لمسي، لكنني دفعتُهُ بكل قوتي.

«تنهدت (لاليتا)، وتنهدتُ أنا أيضاً، وتعاطفت للحظة مع (أهوجا)، لطالما حاول بكرشه الكبير ورأسه الأصلع أن يضاجع هذه الفتاة الرقيقة والقاسية من الداخل كالخيزران الأخضر. لا ألومه على ذلك فنحن جميعاً بحاجة للحب، كانت تؤجله كل ليلة قائلة: «غداً، بعد غد ، انتظر يومين». كان صبوراً جداً، إلى أن سيطر عليه الغضب في النهاية. أعرف كيف تسير الأمور بين الرجال. ربما كان أصدقاؤه يمزحون معه ويتكلمون كما يتكلم الذكور عادةً «هيا يا رجل، أخبرنا، هل طعمُهُ حلو كقصب السكّر، أوه ...

انظروا، انظروا، هناك سواد تحت عينيه، قد يكون صديقنا **أهوجا** يعمل بجدّ طوال الليل».

«استأنفت **لاليتا**

- وعندما حاولتُ صدّهُ مجدداً، أمسك ذراعيَّ بقوة و ...

«توقفت فجأةً عن الكلام. بسبب الخجل ربما، فالزوجات المحترمات لا يتحدثن عن حياتهن الخاصة خصوصاً أمام الغرباء، علماً بأني لم أعد كذلك بالنسبة لها. من المُفاجئ أنها أصبحت جريئة لهذا الحد»

«أوه ... عزيزتي **لاليتا**، ربما ساعدكِ الكركم على فتح فمكِ الجميل كزهرة الصباح، كيف لم يخبركِ أنه ليس من المخجل أن تفتحي قلبكِ، أنا معجبة بجرأتكِ»

بدأت الصور تتزاحم في رأسها المشوش، حتى أصبحت جافة ومتيبسة كالثياب المنسية على حبل الغسيل، استطعتُ رؤية ذراع رجلٍ قوي، يحاول تثبيتها في الفراش، ويفتح فخذيها بركبته الفولاذية، وعندما حاولت أن تخدشه وتعضهُ _طبعاً بدون صوت، لأنه من غير اللائق أن يسمع الجيران ما يجري_ ضربها على رأسها، ضربةً خفيفة جعلتها تسترخي قليلاً، ليتمكن من تحقيق رغباته، لكن الأسوأ من كل ذلك، القُبل التي هاجمتها بعنف بعد الجماع، حيث بلل شفتيها بلعابه اللزج، وبعد أن أشبع رغبتهُ اخذ يعتذر ويهمس في أذنها، حبيبتي، حب حياتي، ملكتي، وبقي يفعل ذلك كل ليلة، حتى جاء وقتُ سفره إلى **أمريكا**.

تابعت **لاليتا**...

- فكرتُ في الهرب بعيداً، لكن لم أعرف إلى أين، كنتُ على علم بمصير الفتيات اللواتي تهربن من المنزل، سينتهي بهنّ الأمر في الشارع، أو ربما تعملن في أماكن تحوي رجالاً أسوأ من زوجي! على الأقل، حافظتُ على شرفي بتواجدي معه، حيث أصبح الجميع يراني كزوجة.

«قالتها بشيءٍ من السخرية، سألتُها بعجل، وأدركتُ حماقتي حتى قبل أن أتفوه بذلك.

- لِمَ لمْ تقولي لأحد، أمك مثلاً، أنك لا تريدين العيش معه؟

«طأطأت زوجة **أهوجا** رأسها، علماً أنها كانت فيما مضى ابنة السيد **تشودري**، وبدأت تبكي، سقطت دموعها في كوب الشاي ليصبح مالح المذاق، فاقتربتُ منها وتجاوزتُ الحدود المسموحة لأمسح وجهها الرطب. ابنة **تشودري** التي أحبها والداها بقدر ما استطاعا، والتي ترعرعت في بيئة صارمة تُقدّس مفهوم الزواج الذي أصبح قدرها المحتوم، لطالما شعر أبواها بحزنها لكنهما لم يملكا الشجاعة الكافية لسؤالها عن السبب، لأنهما لن يستطيعا تقبل الإجابة. وبما أنها أدركت ذلك تماماً، حافظت على صمتها وحبست دموعها لأنها في النهاية تحب والديها وتعرف أنهما بذلا كل ما بوسعهما لتحظى بالمستقبل المناسب لها. لم يفارقها الصمت والدموع على طوال الطريق إلى **أمريكا**. تورمت حنجرتها من الألم المكبوت إلى أن جاء الكركم وحل لها العقدة المربوطة ليخرج كل شيء دفعةً واحدة».

بقيت زوجة **أهوجا** تتكلم لمدة ساعة تقريباً، كانت الكلمات تخرج من فمها بصعوبة كالخزان المسدود.

- كنتُ أكثر حيوية في السابق، مازلتُ أتمنى أن أصبح كبقية النساء الطبيعيات، لم يعد لدينا ما نفتقده في الهند، ربما نستطيع الآن في **أمريكا** أن نبدأ من جديد، بعيداً عن مراقبة المجتمع والعادات البالية التي تفرض على الرجل سلوكاً محدداً وعلى المرأة واجبات معينة. آاااه، لطالما طاردتنا تلك الأصوات المتشددة أينما ذهبنا.

«في مُخيلتي، استطعتُ رؤيتها في تلك الأيام، وهي تحاول إشباع رغبات زوجها، وتخيط ستائر جديدة لتجعل من الشقة الصغيرة منزلاً متكاملاً وتعجن له خبز **البراتا** كي يتناولهُ ساخناً عندما يعود من العمل. ورأيتهُ هو أيضاً، يشتري لها ثوب ساري جديد وزجاجة عطر من ماركة **شانتيلي** أو **الروح** وثوب نوم دانتيل لترتديه في السرير»

- آاااه أيتها الأم المحترمة، عندما يصبح الحليب رائباً، لن يكون بمقدور

سكّر العالم كله أن يُعيده نقياً كما كان، لا أستطيع أن أنسى تلك الليالي التي قضيناها في السرير عندما كنا في الهند، حتى عندما حاول أن يتصرف معي بلطف، كنتُ أعاملهُ بقسوة وخشونة، لم أكن على استعداد لمطارحته الغرام، ما أثار غضبه وجعله يصرخ في وجهي بتلك الكلمات الأمريكية التي تعلّمها، أيتها العاهرة، عندما أمارس الجنس معكِ، أشعر وكأنني أنكح جثةً هامدة. وبعد فترة أصبح يردد: ربما كنتِ تستمتعين مع شخصٍ آخر قبل زواجنا.

بعد ذلك، قام بفرض القوانين المنزلية «الخروج من البيت ممنوع، التكلم على الهاتف ممنوع، سأراقب كل المصاريف من الآن فصاعداً. ثم أصبح يقرأ كل رسائلي قبل أن يُرسلها إلى البريد، عداك عن الاتصالات الهاتفية المتكررة طوال النهار، ليختبرني أو ليتأكد أني ما زلتُ في البيت «عندما أرفع السماعة وأرد (ألو)، أسمع صوت تنفسه البطيء، ثم أقفل الخط»

«حاولت حبس دموعها، وأكملت بصوتٍ مرتجف»

- أيتها الأم المحترمة، اعتدتُ الخوف من الموت، سمعتُ عن نساءٍ قمن بالانتحار، ولطالما تساءلتُ كيف استطعن القيام بذلك لكنني عرفتُ الآن.

«أوه... يا عزيزتي **لاليتا**، هذه ليست الطريقة المناسبة للراحة، ماذا يمكنني أن أفعل كي أساعدكِ؟ فأنا مثلكِ تماماً، أبكي وأتألم بصمت، بقدر ما بكيتِ أنتِ طيلة تلك السنوات»

- وما الفائدة من الحياة؟ لطالما رغبتُ بإنجاب طفل، أكثر من أي شيء في العالم، لكن هل أنجب طفلاً يتربّى في بيتٍ كهذا؟

«أعمتني دموعي، فلم أستطع رؤية التابل المناسب لها، وتذكرتُ ما حذرتنا منه الأم الكبرى

«**تيلو**! لا تقتربي كثيراً من الزبائن»

«أخذتُ نَفَساً عميقاً، وحبستُ الهواء في رئتيّ للحظات_كما تعلّمنا على الجزيرة_ لأطرد كل الأصوات من عقلي، حتى استطعتُ أخيراً رؤية

التابل من خلال الضباب الأحمر، **الشمّر**، تابل يوم الأربعاء، يوم المتوسطين في العمر «أصحاب الأجساد المستسلمة والأفواه المتعبة من الحياة التي ظنوا أنها ستكون مختلفة يوماً ما، **الشمّر**، بُنيّ كالوحل تتراقص أوراقه وقشوره عبر نسيم الخريف ويفوح برائحة التغيير القريب». أخبرتُ **لاليتا** التي لم تتوقف عن نتف **الدوباتا** (وشاح هندي يرمز للتواضع الأنثوي) بأصابعها المتوترة.

- **الشمّر** تابلٌ عجيب، خذي حفنةً من حبوبه الكاملة الخام وتناوليها بعد كل وجبة، لإنعاش النَفَس كما أنها ستساعدك على الهضم وستمدّكِ بالقوة العقلية كي تجدي الحلّ المناسب.

«بدأت **لاليتا** برفع أكمام ثوب **الكورتا** (زي الهند التقليدي) الذي كانت ترتديه لتُريني بعض الكدمات، ثم وقفت وقالت:».

- يجب أن أعود إلى البيت، ربما اتصلَ عشرات المرات، عندما يعود من عمله في المساء، سوف...

«كانت ترتجف من الخوف كرصيف متصدع من حرارة الصيف. شعرتُ بخوفها وكراهيتها وخيبة أملها لأني لم أُقدم لها أكثر من ذلك.

- كما أن الشمّر يُهدّئ الأعصاب ويرفع المزاج.

«ليتني أستطيع قول المزيد، لكن ذلك سيُضعف من قوة التابل».

ضحكت **لاليتا** ضحكةً مريرة وكأنها لم تصدق ما قُلتهُ لها، و**بدا** عليها الندم لأنها كشفت أسرارها لعجوزٍ حمقاء، تؤمن بأن حفنة من البذور الجافة قد تنقذ حياةً منهارة، قالت باستهزاء:

- بالتأكيد ستنفعهُ هذه البذور.

«حملت محفظتها بتوتر دون أن يفارقها الندم لحظةً واحدة. على الأغلب، سترمي الرزمة التي وضعتُها أمامها على الطاولة، في إحدى الأدراج، أو ربما في سلة المهملات، عندما ستشعر بالعار من كل ما اعترفت به أمامي. في المرة القادمة، ستذهب إلى متجرٍ آخر حتى لو اضطُرت لركوب

الحافلة. حاولت التحديق في عينيها بتركيز، لكنها أشاحت بنظرها بعيداً. التفتت لتخرج من المتجر، فلحقتُ بها بجسدي العجوز الثقيل ولمستُ ذراعها ثانيةً، مدركةً أن ذلك ممنوع، اخترق لهيبٌ حارق أطراف أصابعي. تجمدت زوجة **أهوجا** كالصنم الآن، وتبدل لون عينيها ليصبح أفتح، كزيت الخردل بعد التسخين، بدت عازمة على القيام بشيءٍ يتعدى السلوك الطبيعي اليومي. مددتُ يدي الأخرى لألتقط رزمة الشمّر وأضعها في يدها، لكنها اختفت.

«ما المشكلة أيتها التوابل؟»

«نظرتُ حولي بيأس، وشعرتُ بزوجة **أهوجا** تتسابق مع الأفكار التي كانت تدور في رأسها، خشيتُ لوهلة ألا يخضع التابل لأوامري، فقد تجاوزتُ كل الحدود، لكنني أخيراً وجدتُ الرزمة فوق كومة من مجلة **كارينتس** الهندية، كنتُ متأكدة أني لم أركنها هناك.

«أيتها التوابل، هل تمازحينني؟ أم أنكِ تحاولين إخباري شيئاً ما؟»

لا وقت للتفكير، التقطتُ الرزمة ونسخة من المجلة، وخاطبتها:

- ثقي بي، افعلي ما أخبرتك به، يومياً بعد كل وجبة، تناولي القليل من هذه البذور، أنتِ وزوجك، وعندما يفرغ الكيس عودي إلى المتجر وأخبريني في حال لم تجدي أي نتيجة، خذي هذه المجلة أيضاً اقرئيها، ستشغل عقلكِ عن التفكير بالمشاكل.

«تنهدت و أومأت برأسها، فذلك أسهل من الجدال».

- تذكري يا ابنتي، لا داعي لتقلقي، فأنتِ لم تُخطئي عندما فتحتي قلبكِ لي، لا يحق لأي رجلٍ أن يضربكِ ولا حتى زوجكِ، أو في إجبارك على ممارسة علاقة تثير اشمئزازكِ.

«لم تنطق بكلمة واحدة.

- اذهبي الآن، ولا تخافي فزوجكِ لن يتصل هذا الصباح، فهو مشغولٌ جداً اليوم.

- وكيف عرفتِ؟

- نحن المُسنات، لدينا حدس.

«عند باب المتجر، بدأت لاليتا بالهمس».

- صلي لأجلي كي أموت قريباً!

- لا، فأنتِ تستحقين السعادة والاحترام، سأصلي لذلك.

«أناشدكِ أيها **الشمّر**، يا من يشبه عيناً نصف مغمضة يحميها جفنها، قم بواجبك تجاه تلك الفتاة المسكينة»

اقتربتُ من العلبة، وتناولتُ منها قبضةً، تذكرتُ كيف قام الحكيم **فاشيستا** بأكل القليل منه بعد أن ابتلع العفريت **إيلوال** كي لا يخرج إلى الحياة من جديد. شعرتُ برعشة خفيفة وانتظرتُ التابل ليغني، لكنه لزم الصمت وأخذت أطرافه المدببة تلسع راحة راحتي كالأشواك.

«هيا، حدثني أيها **الشمّر**، يا جوهر الحياة، يا من لونهُ كلون عصفورٍ دوري مُنمّش يأتي بالوئام أينما ذهب، يا من يُبعد الأحزان ويمدّنا بالقوة»

عندما وصل الصوت أخيراً، لم يكن غناءً بل دويٌّ هائل يصمّ الآذان.

«ولِمَ أتحدثُ إليكِ؟ بعد أن خالفتِ كل القوانين؟ بعد أن تجاوزتِ الخطوط التي رسمتيها بنفسكِ وعن طيب خاطر؟»

«أيها **الشمّر** العادل، يا من يأخذ القوة من أحدهم ويعطيها للآخر، إن قاما بأكل بذورك في الوقت ذاته، أتوسل إليك كي تساعد زوجة **أهوجا**»

«صرخ التابل في وجهي»

« لِمَ لا تعترفين بخطئكِ وطمعكِ؟ لقد وعدتي أن تُكرسي حياتكِ للتوابل فقط، هل أنتِ نادمة؟»

«تذكرتُ عندما لمستُ يدها وأصابعها الناعمة كريش طائرٍ جريح كيف مسحتُ رموشها الرطبة من الدموع، وكيف عانقتُ وجهها براحة يديّ. آآاه ... ذلك الجلد الحيّ النضر، شعرتُ للحظة بأن الحزام الفولاذي المشدود حول صدري لفترةٍ طويلة، قد تراخى قليلاً».

«اسمعي يا زوجة **أهوجا** _ والتي قد تصبح **لاليتا** قريباً_ أنا أيضاً أعرف معنى الخوف، سألجأ للكذب إن كان ذلك سينفع كلتينا، كنتُ لأضحي بحياتي من أجلك، لو وافقت التوابل على ذلك».

تحيط بي التوابل وتراقبني من بعيد، منتظرة جوابي بهدوء، وكأنها لا تعرفهُ مسبقا، نطقتُ أخيراً ...

ـ لستُ نادمة.

«تلاشى الهواء بسرعة خاطفة، وبدا لساني في فمي كلوحٍ من الخشب، ما جعلني أنطق بصعوبة».

أيتها التوابل، سأدفع ثمن أخطائي بالطريقة التي تجدينها مناسبة»

خيّم هدوء ما قبل العاصفة، تخيلتُ نفسي أدور وأحترق وسط مجرةٍ سوداء دون أن يسمعني أحد، إلى أن انفجرتُ واختفيتُ في الظلام. ثم جاءني الرد أخيراً.

ـ حسناً، كما تشائين.

ـ ما هي عقوبتي؟.

«أصبح الصوت ضعيفاً وبعيداً الآن»

ـ ستعرفين في الوقت المناسب!!!.

عند الغروب، جلستُ أمام الكاشير وبدأتُ بتقطيع بذور **الكالوا جيرا** (الكمون الأسود، أو ما يسمى بحبة البركة) بنصل السكّين السحرية التي أعطتني إياها الأم الكبرى «بذور صغيرة جداً، بحجم بيوض الحشرات». يتطلب هذا العمل الكثير من التركيز، وبينما أقوم بتقطيع البذور الجافة الصلبة، عليّ أن أُردد الكلمات السحرية المحددة، كما يجب حبس الشهيق للحظاتٍ ومن ثم الزفير بعد أن يستقر الوضع ويصبح أكثر أماناً.

لذلك كان عليّ الانتظار إلى أن يحين موعد إغلاق المتجر. عملتُ دون توقف وانتظرتُ قدوم **هارون**، الذي اعتاد المجيء إلى المتجر كل ثلاثاء ليأخذ توابله قبل أن يكمل طريقه إلى المسجد ليُصلّي المغرب في الأيام

الأخيرة، كلما ذكرتُ **هارون** أشعر وكأن يداً صلبة تعصرُ رئتيّ. أصبحت السكين تتراقص نحو الأعلى والأسفل، وبدأت بذور **الكالوا جيرا** تدندن بنشاط كالنحل، كان عليّ فلقُ كل حبة بدقة متناهية في الوسط وأن أحافظ على الإيقاع الصحيح. لا داعي للعجلة، كي لا تتهشم البذور، كما أن البطء الشديد قد يكسر السلسلة المخفية والرابطة بين الحبوب المُقسّمة، ما يبدد قواها السحرية في الهواء. قد يكون هذا ما جعلني لا أنتبهُ لوصوله. تُرى؟ لماذا أصابُ بالاندهاش عندما يتحدث إليّ؟ جرحتُ إصبعي بالسكّين من شدة الدهشة، اقترب مني العازب الأمريكي وبدأ يعتذر.

- أنتِ تنزفين، أنا متأسف للغاية، كان يجب أن أقرع الباب قبل أن أدخل.

- لا لا، لا عليك، إنه مجرد خدشٍ بسيط.

«حدثتُ نفسي، غريب، أنا متأكدة أني أقفلتُ الباب الرئيسي، كيف استطاع الدخول رغم...»

«جرف السرور الكلام بعيداً، بموجةٍ من السعادة المتطايرة كالرذاذ الذهبي. نزفت إصبعي وتساقطت قطرات الدم على كومة **الكالوا جيرا** فأصبح لونها الآن بين الأحمر والأسود. لم أندم على خرابها، لأنني عشتُ لحظات لا تقدر بثمن. اقترب مني أكثر وقبل أن أمنعهُ رفع إصبعي ووضعهُ في فمه، وبدأ يمصهُ. أسنان ناعمة كاللؤلؤ، ملمس حريري رطب من الشفّة الداخلية، لسان مكتنز يداعب جرحي بحنان أصبحنا كالجسد الواحد».

«أوه **تيلو**، لم يكن ذلك متوقعاً»

أردتُ لتلك اللحظة أن تستمر للأبد، لكني سحبتُ يدي رغماً عني.

- أوه... لا،أرجوك، يجب أن أضمدهُ.

وجدتُ في المطبخ كيساً من أوراق شجر **النيم** المجففة، التقطتُ واحدة ووضعتُ عليها بعض العسل وضغطتُها فوق إصبعي، فهي العلاج الأفضل لجروحٍ كهذه. توقف النزيف فجأةً، مُخلفاً وراءه علامة حمراء باهتة

كدليل على ما حدث منذ قليل. قد لا ينزف هذا الجسد السحري المصوغ من النار بالطريقة التي ينزف بها البشر العاديين. قلتُ في نفسي «أيُعقل أن يكون هو السبب؟».

عندما خرجتُ من المطبخ، رأيتهُ جاثياً أمام صندوق الحرف اليدوية وينظر من خلال زجاجةٍ مخدوشة إلى مجموعة من الفيلة الصغيرة المنحوتة من خشب الصندل.

- أتعجبك؟

- يعجبني كل ما هو موجود في هذا المكان.

«ابتسامة علت وجهه، كتفتّح بتلات الورد، وكانت نظراتهُ معبرة أكثر من الكلمات».

«**تيلو**، أنتِ فقط تتخيلين بأنه يستطيع رؤيتكِ من خلال هذا الجسد المُسن»

بدأتُ أبحث في الصندوق عن فيل منحوت بإتقان «العيون والأذنين والخرطوم والذيل، وأنياب صغيرة من العاج، عليها مسحة من المسواك عند النهايات». التقطتُهُ

- هذا لك، احتفظ به.

«رجلٌ آخر كان ليرفض، لكنه شعر بالفرح، عندما وضعتهُ في راحة يده، ونظرتُ إلى أصابعه وهي تعانقهُ بحذر. كانت أظافره تلمع وسط المتجر المعتم.

- ترمز الفيلة إلى الوعود ووجوب الحفاظ عليها.

- وهل تحافظين على وعودكِ دائماً؟

«آآاه... من علّمهُ أن يسأل بهذه الطريقة؟»

- اسمع، **خشب الصندل** يساعد على تخفيف الألم، أما العاج فهو للثبات والقدرة على تحمّل الصعاب.

«ابتسم ولم يخدعهُ تهرّبي، كنتُ أراقب الخطوط التي تتشكل عند زاوية فمه عندما يبتسم، لأرى غمازة خده المثيرة «قعر ناعم مشدود ومكتنز، تمنيتُ لو ألمسه». ولأمنع نفسي، سألتهُ مباشرةً:

- لماذا حضرت؟

«**تيلو**، ماذا لو قال (حضرتُ لأراكِ)؟

- هل يجب أن يكون هناك أسباب للزيارة؟

«حافظ على ابتسامة وجهه الجذابة كشفرة فضية ذات حدّين، أو سحابة صيفية يمكنني التحليق معها بعيداً دون رجعة. تكلمتُ بنبرة صارمة الآن.

- طبعاً، لكن الحكماء فقط يدركون ذلك.

- يمكنكِ إخباري إذاً عن سبب مجيئي، أو ربما تستطيعين معرفة ذلك من نبضي، كما يفعل الأطباء الهنود في بلدكم عادةً!

«أصبحت ملامحهُ جدّيةً الآن» بسط ذراعهُ الممشوق نحوي. شعرتُ بقطع صغيرة من اللازورد تتدفق تحت جلده الناعم، أجبتُهُ بانفعال:

- عن أي أطباء تتحدث؟ فأطباؤنا درسوا في كلية الطب، كأطبائكم تماماً.

«سامحيني أيتها التوابل، رغم كل ذلك، لم أتمالك نفسي وأمسكتُ يدهُ»

«طوقتُ معصمهُ بأصابعي. **بدا** خفيفاً كرغبةٍ غير مُعلنة. فاحت بشرتُهُ برائحة الليمون والملح والشمس المشرقة فوق رملٍ أبيض. هل كنتُ الوحيدة التي لاحظت أننا كنا نتأرجح معاً كأمواج البحر؟»

«فجأةً، هرع **هارون** إلى المتجر، فاتحاً الباب بحذائه وصاح بصوتٍ عالٍ كالبرق».

- سيدتي، سيدتي، ما الذي يجري بحق الجحيم؟

«عقد حاجبيه من الاستياء والريبة. تركتُ يد صديقي الأمريكي، كأي فتاةٍ قروية مُذنبة تخالف الأعراف والتقاليد. وتلعثمت من شدة الخجل ...

- **هارون**؟ لم أدرك أن الوقت قد تأخر.

«خاطبني صديقي الأمريكي بصوتٍ بارد وجريء...

- أرجوكِ، اذهبي واهتمي بزبائنكِ، لستُ مستعجلاً.

«ثم مشى ببطء شديد حتى وصل إلى آخر المتجر، حيث أكياس الفاصولياء الصينية و**اليوريد** (الحمّص الأسود)، وأرز تكساس طويل الحبة

التفتَ **هارون** ليراقب تحركاته، وعض على شفتيه من الغيظ».

- سيدتي العزيزة، عليك أن تكوني حذرة من زبائن المساء، فالحيّ مليء بالمتسكعين وأفراد العصابات.

- هش، اصمت **هارون**.

«تجاهلني، وبدأ يتكلم الإنكليزية ويرفع صوته عمداً ليصل إلى آخر المتجر. كانت المفردات الأجنبية التي لم يكن معتاداً عليها تخرج من لسانه الثقيل بصعوبة. فجأةً، شعرتُ بالإهانة من لهجتُهُ الجلفة إضافةً إلى لضعفه المُلاحظ في النحو. وكأن أحدهم قد صفعني على وجهي الذي اشتد احمراره من شدة الخجل».

- لماذا نسيتِ إقفال الباب الخارجي اليوم؟ ألم تقرئي في صحيفة **إنديا بوست** عدد الأسبوع الماضي، عن الحادثة التي اقتحم فيها أحد المجرمين متجراً في شارع 11-7 وأطلق ثلاث رصاصات على المالك؟ اسمه **ريدي** على ما أظن، وكما تعلمين موقع الحادثة ليس بعيد عنا، من الأفضل أن تطلبي من ذلك الرجل الرحيل وأنا هنا.

«ازداد خجلي لأني تأكدت بأن صديقي الأمريكي قد سمع كل شيء»

- لا تنغرّي بثيابه الفاخرة، على العكس، في الحقيقة، سمعتُ عن هذا النوع من الرجال المتأنقين الذين يتظاهرون بالثراء ليخدعوا الجميع ولنفترض أنه ثري، ما الذي يريده سيدٌ مرموق منا نحن الهنود على أية حال؟ من الأفضل لكِ أن تبتعدي عن ذلك الصنف سيدتي. اسمعي، دعي الأمر لي، أنا أعرف كيف أتخلص منه.

«حاولتُ تذكّر ما كان يرتديه (صديقي الأمريكي)، لكن خانتني ذاكرتي، فشعرتُ بالغضب، أنا **تيلو**، التي لطالما اعتزّت بقدرتها العجيبة على التبصر في كل شيء. وازداد غضبي عندما أدركتُ أن ما قالهُ **هارون** صحيح. كانت الأم الكبرى لتقول الشيء ذاته.

«سيدٌ مرموقٌ مثله، لا ينتمي إلينا، ابتعدي عنه يا **تيلو**»

- اسمع **هارون**، أنا لستُ طفلةً صغيرة، أستطيع العناية بنفسي، كفَّ عن إهانة زبائني وسأكون ممتنة لك.

«كلّمتُهُ بنبرة حادّة قاسية، بدت كلماتي كالمسامير الصدئة. تُرى هل كان ذلك صوتُ الإنكار؟

جفلَ **هارون** من طريقة كلامي معه واحمرّ خجلاً. تكلم برسمية بدا أنه مجروحاً.

- كنتُ قلقاً عليكِ فقط، لكن أظنني تجاوزتُ حدودي.

«صرختُ باستياء»

- **هارون**، لم أكن أقصد.

- لا لا! فأنا لا أملك الحق في التدخل، نسيتُ أني مجرد رجل فقير، سائق تاكسي، من أنا لأنصح سيدة محترمة مثلك؟.

- أرجوك، لا تذهب سأحضّر لكَ توابلَكَ خلال دقائق.

«أصدر باب المتجر صريراً عالياً عندما فتحهُ بعنف»

- لا تزعجي نفسكِ بطلباتي، في النهاية أنا مجرد **كالا آدمي** (رجل أسمر)، ولستُ أبيضاً مثلهُ.

«لقد جرحتُهُ، أجبتُ بانفعال

- **هارون**، أنت تتصرف كالأطفال!

«انحنى باحترام، فبدا انعكاس ظلهِ في الليل كالأفواه المفتوحة

- فليحمكَ الله، سأتأخر عن المسجد، ربما صعد الشيخ إلى المنبر، رافقتك السلامة.

«أغلق الباب خلفهُ بهدوء معلناً نهاية المحادثة قبل أن يسمع ردي عليه.»

- رافقتكَ السلامة **هارون**، فليحمكَ الرب أنتَ أيضاً.

«عندما التفتُّ إلى الكاشير، وقعت عيني على **الكالوا جيرا** (الكمّون الأسود أو حبة البركة) المخصصة لـ **هارون**، والتي تلوثت بدمائي، كما أني وجدتُ بعض البقع الداكنة فوق الكاشير أيضاً، في تلك اللحظة **بدا**

الصمت أسوأ بكثير من الكلام».

حدقتُ بها جيداً ثم جمعتُها بطرف ثوبي ورميتها في سلة المهملات. كانت الأم الكبرى لتصفني: طائشة، مهملة، مُبذّرة.

«تدفق الحزن إلى قلبي مفرزاً رائحةً كرائحة الكبريت المُشتعل إضافةً إلى شعور آخر لم أجرؤ على ذِكره، ربما الندم أو القنوط. بعد لحظات، حدثُ نفسي «سأحلّ مشكلة **هارون** فيما بعد». لكن عندما توجهتُ إلى آخر المتجر حيث وقف صديقي الأمريكي، شعرت بأن عبارة (فيما بعد) أشبه بقِدْرٍ مغلق بإحكام يغلي فوق نارٍ حامية، ما يؤدي حبس البخار فيه إلى الانفجار»

أمسكَ العازب الأمريكي يدي ووضعها على صدره.

- أحياناً أشعر ببعض الألم هنا.

«**تيلو**؟ هل يُدرك مدى خطورة ذلك؟»

«حين لَمَسَتْ راحةُ يدي الهرمة صدرهُ، شعرتُ بنبضات قلبه. كانت منتظمة على نحوٍ غريب كتقطّر الماء فوق حجرٍ قديم، لم يكن يشبه أبداً الترنّح الغليظ لضربات قلبي، والذي **بدا** كأحصنةٍ جامحة تتسابق بحماس عبر جدران كهفٍ مظلم، بذلتُ جهداً في التركيز على ثيابه. أجل **هارون** كنتَ محقاً، كانَ قميصه الحريري ناعماً وأنيقاً تحت أصابعي، كما كان السروال أيضاً من النوع الفاخر، أما السترة بدت مثالية فوق أكتافه. إضافةً إلى اللمعانِ الهادئ لحزامه وحذائه والخاتم البرّاق الذي كان يعتلي أحد أصابعه كالنيران البيضاء. لكنني لم أعر اهتماماً مفرطاً لمظهره الخارجي، لأنه من الداخل مختلف تماماً. وجهتُ كل تركيزي على نبضه الدافئ والمتلألئ في عروقه البارزة ونظرته المثيرة عندما أحدّقُ في عينيه.

عدتُ وجلستُ خلف الكاشير، بينما اتكأ هو على زجاج الطاولة الفاصلة بيننا. كانت التوابل تراقبنا بحذر.

- يبدو قلبكَ بحالةٍ جيدة.

«تخيلتُ بشرتَهُ الناعمة تحت القميص تلمع كالذهب وشعر صدرهِ المثير كالعشب النضر. لا لا، حضرت في ذهني صورة مختلفة تماماً. لم يكن هناك أي شعر على صدره، **بدا** ناعماً كالخشب الأبيض الدافئ الذي كنا نصنع منه الطلاسم على الجزيرة، أجابني.

- أوه... أجل، هذا ما يقوله لي جميع الأطباء.

«أيها الأمريكي العازب، أريد معرفة كل شيءٍ عنك، ما الذي دفعك لمراجعة الأطباء؟ منذ متى بدأت تشعر بهذا الألم؟ لكن عندما حاولتُ النظر بعمق أكثر، لم أرَ سوى انعكاس صورة وجهي في بحيرةٍ زئبقية وهميّة».

- لا بد أنهم أرادوا أن يخبروني أن الألم في رأسي، لكنهم لم يجرؤوا على التصريح بذلك علناً، فربما يؤثر ذلك على عملي.

«ابتسمت عيناهُ في وجهي، وكأنهُ يقول حسناً سأعطيكِ ما تريدين لكن القليل فقط، كان شعرهُ يلمع كجناح طائرٍ أسود تحت أشعة الشمس».

«إنك تتلاعب بأعصابي أيها الأمريكي الوسيم، وقد سَحرتَني بجدارة، أنا **تيلو** التي لم تعرف طعم اللعب في حياتها، شعرتُ فجأةً وكأنني أطير داخل ذلك الجسد الهرم الثقيل».

ابتسمتُ قائلةً:

- قد تحتاجُ لبعض الحب كي يزول الألم من قلبك.

«أدهشتني استجابتي السريعة للعبة الغزل تلك»

ربما يكون الحب هو ما سبب هذا الألم.

«أوه... **تيلو**، أيتها السيدة الوقحة، ماذا الآن؟»

سألني بجدّية:

- هل تعتقدين ذلك حقاً؟ أتظنين أن الحب قادر على شفاء قلبٍ جريح؟

«لم أعرف كيف أجيبه... أنا **تيلو** التي لم تعرف طعم الحب من قبل، وقبل أن أتلفظ بالجواب، ضحكَ متجاهلاً سؤالهُ»

عظيم، ألديكِ حل لمشكلتي؟

«خاب أملي للحظة. لكن لا، هذا أفضل، أجبتُهُ بتردد»

- بالطبع، هناك حلول للجميع دائماً، لحظة واحدة فقط.

«سمعتهُ يردد ورائي»

- لحظة، لا أريد ما يحتاجهُ جميع الناس، ما أريده هو...

«لكنني تجاهلتُه. دخلتُ إلى الداخلية واقتربتُ من جذور اللوتس تحسستُ ليونتها براحة يدي، وأخذتُ نَفَساً عميقاً. ولِمَ لا يا **تيلو**؟ فقد خالفتي كل القوانين، أليس كذلك؟ لكنني تنهدتُ وأعدتُها إلى السلّة».

«آاه **بادمامول** (جذور اللوتس) المثير للشهوة الجنسية، لطالما اقتلعتُ جذورك من أعماق البحيرة عندما كنتُ على الجزيرة، هذه ليست اللحظة المناسبة لك»

عندما عدتُ، نظر إلى يديّ الخاويتين ورفع حاجبهُ متعجباً. كان عليّ أن أعطيه ما وضعتُهُ من قبل في العلبة المصنوعة من خشب الأبنوس، المُخبّأة تحت الكاشير «كرة صلبة من **الهينج** (الحلتيت) لتُعيد التوازن إلى حياتي، وتُبعِدهُ عني للأبد.

بدأت التوابل تضغط عليّ، فانحنيتُ لألتقط العلبة ارتجفت أصابعي مترددة، شعرتُ للحظة بالأسى الذي ستسببه كرة الحلتيت والتي بدأت تفوح برائحة المرار.

«أوه... أرجوكِ أيتها التوابل، أمهليني القليل من الوقت،أحتاج لبعض الوقت فقط»

شددتُ عزيمتي وسحبتُ زجاجةً بنيّة صغيرة من على الرف، ووضعتُها على الكاشير.

- خذ زجاجة **الشوران** هذه (شراب شديد الحلاوة والحموضة، مع بعض المرارة).

«سأل مُمازحاً»

- شراب الحب؟

«أجبتُهُ بحزم»

- لحرقة المعدة، للأشخاص المتسامحين في الحياة، هذا ما تحتاجه حقاً.

«وضعتُ الزجاجة في كيس، ونظرتُ إلى باب المتجر بحدّة».

- تأخر الوقت كثيراً.

- أنا متأسف للغاية لأنني أزعجتك.

«لا أظنُه كذلك، فقد كانت عيناهُ تلمعان من السرور، كالماء المتلألئ تحت ضوء القمر، استطاع بسحرهما سحب الكلمات من فمي عن غير قصد»

- ربما سأعطيكَ شيئاً آخر في المرّة القادمة.

- حسناً، في المرّة القادمة.

«قالها كمن يُقدم هديةً لحبيبته»

حلّ الصباح ولم أتذكّر السكين السحرية، انزلقتُ بسرعة من تحت اللحاف المتشابك وتخليتُ عن بقايا حلم لم أعد أذكر أحداثهُ. تعثرت قدمي بمنضدة الحساب وخاطبتُ السكين مع أني كُنتُ متأكدة أن الأوان قد فات.

«تحدثي إليّ أيتها السكين»

بدا النصل في يدي باهتاً متوعداً، بلونه الرمادي كلون الموت، حوافهُ صدئة من الدم، سقط بعض الرذاذ المعدني على الأرضية عندما فركتُهُ.وضعتُ السكين تحت المياه الجارية في المطبخ، وبدأتُ أردد تعويذات التطهير، وأنا أصنع معجون التمر الهندي والليمون، لأعيد لها قواها، بعد أن تجعّدت أصابعي من الحمض لم أحصل على أية نتيجة، أصبح النصل أكثر فاتحٌ أكثر الآن، **بدا** شكلهُ كحبة إجاص أو ربما كالدمعة، يُنذر بمصائب على وشك الحدوث.

ضغطتُ جبيني على الحائط الإسمنتي البارد. كانت الصور تتدافع في رأسي دون توقف «حفنة فاسدة من **الكالوا جيرا** تُلقى بإهمال في القمامة وتفوح برائحة دماء امرأة، وجه **هارون** البريء المُعرّض للخطر في أية لحظة ومن خلفه بقعة كبيرة يتراوح لونها بين الأحمر والأسود، الأم الكبرى تنظر بعيون حزينة فهي على علم بكل شيء».

«سامحيني يا أمنا العظيمة»

«تخيلتُها توبخني بصوتها الأجش، الذي يصبح حينما تغضب كالأغصان المتكسرة بفعل العواصف...»

«كفى هراءً يا فتاة، كيف أسامحكِ وقد تخطيتِ كل الحدود التي جعلتك تتعثرين كالبلهاء، بالمناسبة، لن أسامحكِ»

لم أكترث لتوبيخها. عوضاً عن ذلك، أجبتها:

«أيتها السكين، أقسم أني لن أتخلى عنكِ مرةً أخرى، إذا أردتِ إراقة دمٍ جديد لتطهير القديم، فأنا جاهزة»

رفعتُ السكين للأعلى وأغمضتُ عينيّ وهَويتُ بها على أصابعي بعنف وانتظرتُ الألم المبرّح ليخترق جمجمتي، لكن عندما فتحتُ عينيّ، لا شيء. نظرتُ إلى الأسفل كان النصل المرتجف والمغروز في خشب المنضدة يبعد إنشاً واحداً عن أصابعي، تساءلت هل رغباتي المكبوتة هي السبب؟ أم أن السكين تعمدت فعل ذلك بمحض إرادتها؟

حدثتُ نفسي «أوه... **تيلو** أيتها الحمقاء، هل ظننتِ أن الإصلاح سيكون سهلاً لهذه الدرجة؟»

دخل **كويسي** المتجر، حاملاً أنبوباً طويلاً من الكرتون تحت إبطه.

- أريد منكِ خدمة سيدتي، هل تمانعين لو علّقتُ هذا الإعلان على واجهة متجركِ؟

«فاجئني طلبهُ، هل كانت الأم الكبرى لتسمح بذلك؟ لستُ متأكدة. مع العلم أن الهنود يفعلون ذلك عادةً، لطالما رأيتُهم يُعلّقون إعلانات ضخمة للأفلام الهندية الجديدة والنجوم الكبار كالممثلة الشهيرة **مادهوري ديكسيت**، وإعلاناتٌ أخرى تدعو الناس للحفلات بكلمات مُضاءة وامضة» حفلة حيّة، ديسكو للرقص **البنجابي** (نوع من الرقص الهندي) خمسة دولارات للبطاقة الواحدة، بإدارة **الدي جي (منسق الصوت) ماني**، خبز شباتي طازج وقطع من كيك (الدوكلا) ماركة **بهافنابين** بأسعار مغرية جداً قمصان خياطة **تاج محل** اتصل على هذا الرقم لتحجز قميصك قبل الحفلة».

تبادر لذهني «لكن **كويسي** شخصٌ غريب، وقد منعتني الأم من الاقتراب من الغرباء». سألتُهُ لاضاعة بعض الوقت.

- عن ماذا يتحدث هذا الإعلان؟

- أوه ... حسناً، انظري سيدتي.

«سحبهُ من الأنبوب وفَرَدَهُ بحذرٍ فوق الكاشير، كان ملصقاً إعلانياً لافتاً للنظر بلونه الذهبي والأسود، عليه صورة رجلٍ يرتدي لباساً موحداً مربوطاً بحزام لامع عند الخصر، حافي القدمين، مصلوب الذراعين، ساقهُ مرفوعة برشاقةٍ في وضعية ركلةٍ قوية. ثم قرأتُ ما كان مكتوباً أسفلها «بطل العالم **كويسي** لتعليم فنون القتال» وتحته العنوان بخطٍ صغيرٍ. ابتسمتُ له

- كنتُ أعرف أنكَ مقاتل»

«ابتسم بخجلٍ

- مقاتل؟ أوه... أجل، شيء من هذا القبيل.

- هل كنتَ تفعل ذلك لفترة طويلة؟

- منذ خمسة عشر عام تقريباً.

«انتبهَ لاهتمامي الواضح»

هل ترغبين بمعرفة كيف بدأ ذلك؟

«قبل أن أجيبه بالموافقة، بدأ سرد قصته بحماسٍ، وقد اتكأ بمرفقيهِ على الكاشير، لطالما أحبَّ **كويسي** سرد القصص البطولية، كانت هذه هوايته التي تجري في عروقه.

كان جسدي ضعيفاً وكنتُ مدمناً على المخدرات في ذلك الحين، من أثر صدمة أو مصيبة مررت بها، لم أعد أذكر. عشتُ حياةً مضطربة وقمت بالكثيرِ من الأمور الجنونية كي أستمر بالتعاطي. وهكذا التقيتُ صدفةً بالذي أصبح فيما بعد مُدرّبي الخاص. قمتُ بتحدّيه ودعوتهُ للقتال حينها، ظناً مني بأني قويٌ جداً، لكنه هزمني في أقل من دقيقة.

في اليوم التالي بحثت عنه وسألتُ عن مكانه، تبعتهُ إلى **الدوجو** (صالة التدريب) حاملاً معي مسدساً محشواً. انتظرتُهُ إلى أن انتهى من حصصه. أردتُهُ أن يدفع الثمن، عندما فتح الباب، صوبتُ المسدس إلى رأسه لكنه لم يكن خائفاً. خاطبني قائلاً «لماذا لا تدخل؟ صنعتُ للتو بعض الشاي الياباني، يمكنك أن تطلق النار عليّ بعد الانتهاء من شربه». لم يكن يكذب. يا له من رجل، لو كنتُ مكانهُ في تلك اللحظة، تخيلي لم يلجأ لعضلاته المفتولة. لم يشعر بالخوف ولا للحظة واحدة، كنتُ مذهولاً فأبعدتُ المسدس عن رأسه ولحقتُ به، تكلمنا في أمورٍ كثيرةٍ وتنقلنا من موضوع لآخر، حتى انتهى الأمر بي إلى المكوث عنده لستْ سنوات. هل تصدقين ذلك؟ للأسف، لم أستسغ طعم ذلك الشاي الياباني الأخضر، لكني مستعد لشرب كوب مضاعف من شاي **دارجيلينغ** الهندي، في أي وقت.

«ضحكنا ضحكةً عميقة لدرجة تساقطت فيها دموعنا، حين تتشارك مع أحدهم ضحكةً كهذه، تشعر وكأن قلبك قد تحرر من عقدٍ كثيرة».

مسحتُ عينيّ، وخاطبته:

ـ بإمكانك لصق إعلانك هنا، رغم أني بصراحةٍ لستُ متأكدة أنه سيجذب انتباه الكثيرين.

نظرنا حولنا إلى الزبائن المتواجدين في المتجر، «سيدتان بدينتان في الأربعين، ترتديان الساري وتتجادلان بشأن المزايا الخاصة لمخللات **باتاك وبيدكار**، **سردارجي** (رجل من جماعة السيخ الذين يتّبعون الديانة السيخية) يرتدي عمامة بيضاء وبيده زجاجة من زيت **نيلجيريس أوكالبتوس** الأصلي لمعالجة السعال، يقترب من الكاشير ليسأل عن ثمنها، بعض الأطفال يلعبون قرب صندوق دقيق القمح، يدخل إلى المتجر شابٌ شعرهُ طويل، يضع نظارات ماركة **ريبان**، يرتدي جينزاً ضيقاً ماركة **ليفايز**، يرمق **كويسي** بريبة م يختفي خلف صندوق العدس».

تحدث **كويسي** بيأس:

«وهو يطوي الملصق الضخم، ليعيدهُ إلى الأنبوب»

ـ سأبحث عن مكانٍ آخر.

«شعرتُ بالأسف لأني خيبتُ أمله، فسحبتُ علبة كبيرة من شاي **دارجيلينغ** الأسود، عالي الجودة، ووضعتُها في كيس أنيق»

ـ هذه لك.

ـ لا، هذا كثير.

ـ لا، لا، قصة نجاحك تستحق أكثر من ذلك.

« رافقته إلى باب المتجر»

ـ عد لزيارتي متى شئت، حظاً طيباً، أتمنى لك حياةً سعيدة وعملاً ناجحاً.

«عنيتُ ذلك حقاً».

في صباح اليوم التالي، حضر **جاغجيت** إلى المتجر وبيده قائمة مشتريات أعطتهُ إياها والدتهُ. كان شعره واقفاً ومتيبساً كالفرشاة ما جعلهُ يبدو أطول. لم أتعرف عليه في البداية. أمعنتُ النظر في عينيه جيداً، أوه... ذلك المراهق.

ـ كيف حالك **جاغجيت**؟

«التفتَ نحوي، كان مرتبكاً، لكنه عندما نظر في عينيّ استرخى قليلاً»

ـ وكيف عرفتي اسمي؟

«كان عابساً يرتدي قميصاً خفيفاً وسروالَ جينز فضفاضاً ماركة **جيربود**، وحذاء مُنحلّ الرباط. بدا كأي شاب أميركي. كما أنه تكلم بإيقاعات متقطعة مثلهم تماماً.

ـ سبق أن أتيت إلى هذا المتجر ثلاث أو أربع مرات برفقة والدتك، منذ سنتين أو ثلاث سنوات تقريباً.

«لم يُعر ما قلتهُ اهتماماً، لا بد أنهُ لم يتذكر»

ـ لا أظنها مدةً طويلة، فقد انتقلنا إلى أمريكا منذ سنتين فقط.

ـ لكنكَ كنتَ صغيراً جداً، من كان ليصدق؟ انظر، لقد أصبحتَ شاباً.

«عـبّرتُ عـن إعجـابي لكنـه لم يُجبنـي، فهـو يعـرف طبـع المسـنين جيـداً، كالجـدّات والعـمّات والخـالات والأمهـات، وتنبيهاتهـن المتكـررة «لا تضيـع وقتـك في اللهـو مـع أصدقائـك، لا تتغيـب عـن المدرسـة، فقـد أرسـل المديـر إنذاريـن حتـى الآن، لا تتأخـر عـن البيـت فالوضـع غـير آمـن. أوه ... عزيـزي **جاغي** هل جئنا إلى أمريكا لنتسكع في الشوارع؟».

«لمحتُـهُ يمـلأ السـلة بسرعـة فائقـة ويضعُهـا بعنـف فـوق الكاشـير، مـع أنـه لم يكمـل القائمـة بعـد. كان ينقـر بحذائـهِ بعصبيـة، فأدركـتُ أنـه عـلى عجلـةٍ من أمره. ربما سيخرج مع أصدقائه».

ـ هل أصبحت الأمور أفضل في المدرسة؟

«رمقني بعدائية»

ـ من أخبرك؟

«لزمـتُ الصمـت. قـضى **جاغجيـت** العامـين الأخيريـن مشـغولاً بالعـراك. نظـرَ في عينـيّ مرتديـاً قنـاع الخشـونة كوجـه آخـر.*لا داعـي للأقنعـة في وجودي.* اختفت معالم الخجل التي كانت مرسومة على وجهه في الماضي»

أجل، المدرسة ممتازة.

ـ هل تدرسُ جيداً؟

ـ بالطبع.

ـ لم يعد زملاؤكَ يسببون لكَ أية إزعاجات؟

«ابتسمَ بمكر، فبرزت أسنانه الحادّة كالإزميل»

ـ لا أحد يجرؤ على العبث معي الآن، لدي الكثير من الأصدقاء.

ـ أصدقاء؟

«قبـل أن يومـئ برأسـه، اسـتطعتُ رؤيتهم من خـلال عينيه «فتيـان يافعون، يرتـدون سـترات زرقـاء غامقـة مـن السـاتان، مطـرزة بشـعار المدرسـة. وقبعـات سـوداء وأحذيـة ماركـة **كارل كاني**، ثمـن الحـذاء الواحـد منهـا مئـة دولار، وقلائـد

ذهبية برّاقة، وأساور محفور عليها اسم كل منهم، خواتم من الألماس المزيف تعتلي أصابعهم الصغيرة». سمعتُ **جاغجيت** يُجيبني في عقله.

«أجل، الأولاد الجامحون، لم يبلغوا السادسة عشر بعد، مع ذلك يقودون سيارات سباق **BMW** مكشوفة عليها علامة **Lotus Turbo** ويسحبون من جيوبهم العميقة صوراً للرؤساء القتلى، هذه لك أيها المحتال، يجنون بعض الدولارات، فلا مشكلة بمن يتسبب بسفك كل هذه الدماء.

يحملون على أكتافهم الكثير من الفتيات المتبرّجات ويدخنون سيجارة واحدة مع بعضهم، يعطون ما تبقى منها لصبي صغير مرَّ من أمامهم، يخاطبهم مذهولاً، لي أنا؟.

أصدقائي الأشداء الذين قضوا معظم وقتهم خارج المدرسة وأصبحوا يدافعون عني كلما تعرضتُ للمشاكل، أصدقائي الذين حملوني عن الأرض ونفضوا التراب عن ثيابي واشتروا لي عبوة كولا باردة في ذلك النهار الحارّ وأخبروني:«سنعتني بك». منذ ذلك الحين، لم أعد أتعرّض لأية مشاكل، أصبحوا بمثابة إخوةٍ لي، بل أكثر من إخوة».

«لمحتُ ما يشبه الامتنان في عينيه. **جاغجيت** الفتى الوحيد، الذي يعيش مع أبوين منهمكين من ضغط العمل. أحضراهُ من ولاية **بنجاب** الهندية ليعيش في أمريكا، وأرغماهُ على الالتزام بالعادات والتقاليد. الفتى الحساس، الذي كان يحبس دمعتهُ حتى تتورم جفونه كالنجوم النازفة، استمر **جاغجيت** في تذكّر أصدقائه».

«كما أنهم أخذوني معهم إلى أماكن عدّة واشتروا لي الطعام واللباس والأحذية والساعات الرياضية وألعاب **نينتندو** وستيريو مع مكبرات صوت تجعل الجدران تهتز من الصخب، وأشياء كثيرة لم أكن أدرك أني بحاجةٍ إليها، كانوا ينصتون لي عندما أتكلم، لم يسخروا من آرائي، علّموني كيف أقاتل وأدافع عن نفسي، أخبروني عن كل الأماكن الحساسة التي يجب عليّ ركلها أثناء العراك، وكيف ألجأ لكوعي وقبضتي وركبتي وحذائي

ومفاتيحي، كما تعلمتُ كيف أستعمل السكين، وبالمقابل، لم يطلبوا مني سوى طلبات بسيطة، *احمل هذا الكيس، ضع هذا الصندوق هناك احتفظ بهذه في خزانتك ليوم غد، قف عند الزاوية وراقب لنا المكان.* من يحتاج لأم أو أب أو حتى لمدرسة؟ عندما أصبح في الرابعة عشر، سأقضي طيلة النهار مع أصدقائي وأرتدي نفس السترة وأحمل في جيبي سكيناً أوتوماتيكياً يفتح بضغطة زر واحدة وأستمتع بنظرة الخوف التي تظهر في عيون الفتيات اللواتي أتحرش بهن. يوماً ما سأحصل على جواز سفر رسمي أطوف به كل الولايات الأمريكية، سيكون ملوناً بالأسود والذهبي اللامع سيكون مصدر كل قوتي، حياتي، موتي، مصيري».

«بدأت الأفكار تحوم في عقلي كالزوبعة. شعرتُ بالاختناق. أوه... أيتها **القرفة**، يا تابل الشجاعة، يا من يصنع الأصدقاء، ما الذي فعلناهُ بهذا الولد البريء؟»

«شبكتُ أصابعي كي أحدَّ من ارتعاشها. كل ذلك القرنفل وحبوب الهال التي نثرتُها في الهواء بدافع الشفقة، كيف حدث ذلك؟

«تكلمتُ بصوتٍ مرتجف، خالٍ من الثقة، نظر **جاغجيت** إليّ مباشرةً، وهو يسرح في عالمٍ آخر»

ـ أنت صبيٌ وسيم، وتكبر بطريقةٍ تجعل العجائز مثلي يستمتعون بالنظر إليك، لدي منشّط سيجعلكَ أكثر ذكاءً وشجاعة، ستأخذهُ مجاناً، انتظر قليلاً ريثما أحضره لك.

«ضحكَ باستهزاء، محاولاً أن يبدو أكبر سناً، ما زاد من حزني أكثر»

ـ تباً، من قال إني بحاجة لمنشّط هندي كريه الرائحة.

«هرع **جاغجيت** نحو الباب ليخرج، فلحقتُ به بسرعة محاولةً البحث في ماضيه عن أية جملة تجعلهُ يتمهل».

ـ **جاغي، ميرا راجا بيتا** (ولدي الجميل).

«أصابتـه القشـعريرة عندمـا سـمع اسـم التحبـب، وتذكّـر طفولتـهُ فجـأةً «رائحـة شـعر أمـه وهـي تفـرك ظهـرهُ تحـت سـماء مدينـة **جلنـدار** الدافئـة، وتقـص عليـه الحكايـات كي تخلّصـه مـن كوابيـس الليـل. تمنـى للحظـة أن تعـود تلك الأيام الجميلة».

ـ حسناً، لكن أحضريه بسرعة، لأنني تأخرت.

«دخلـتُ الغرفـة الداخليـة ومـلأتُ زجاجـة مـن إكسـير **المانجيسـثا** (نبـات طبـي) لتنقيـة الـدم وتهدئـة الأعصـاب، همسـتُ بعـض الصلـوات بسرعـة مـع تجاهـل بعـض الكلـمات، حـين سـمعتُهُ ينـادي أحدهـم في الخـارج «انتظـر يـا صاحبـي». سـحبها مـن يـدي، وقذفهـا في السـلّة ثـم لـوح لي مودعـاً. ركـب الدراجة النارية ورحل».

أصبحـتُ وحـدي في المتجـر. جلسـتُ أمـام الكاشـير، شـعرتُ بصـداع قـوي لم أشـعر بـه مـن قبـل، وضعـتُ رأسي الثقيـل بـين يـديّ وتسـاءلت مـا الـذي يحصـل؟ هـل هـو السـبب؟ أم والديـه؟ أم أمريـكا؟ ثـم خطـر ببـالي ذلـك السؤال المُدمّر الذي بالكاد استطعتُ صياغتهُ بعبارات متقطعة.

«أيتها التوابل، هل اخترتي معاقبتي بهذه الطريقة؟؟»

الزنجبيل

حضر جدّ **جيتا** إلى المتجر هذا الصباح، بدا اليأس في خطواته، لم يتكلم عن حفيدته، لكني قرأت في ملامحه «هل قررتِ الذهاب إليها؟ ومتى؟». لذلك جهزتُ نفسي الليلة، وأخذتُ معي بعض الزنجبيل الطازج، لأول مغامرةٍ لي في أمريكا. لأنه كما تعلمون، عندما استيقظتُ ووجدتُ نفسي في هذه البلاد، بدا المتجر من حولي صلباً كالدرع الواقي، كما كانت التوابل أيضاً تطوقني بصوتها وروائحها الزكية. إضافةً إلى الجسد الهرم الذي يضغط عليَّ بتجاعيده السميكة هيكل بداخله هيكل آخر، وتحت كل تلك الطبقات تجد قلبي ينبض كالعصفور.

قررتُ اليوم بسط جناحيّ، وكسر كل الحواجز والطيران لمساحاتٍ لا حدود لها في العالم الخارجي. شعرت ببعض الخوف، أعترف بذلك.

لذلك تضرعت للزنجبيل.

«أيها الزنجبيل، يا من تشابكت جذوره؛ جذور الحكمة، يا من كان يختبئ تحت التراب الأسمر ساعدني في مهمتي، إنني أتحسسُ ملمسكَ المُرقّط براحة يدي، سأغسلكَ بماء الجير ثلاث مرات، و أقطّعكَ إلى شرائح رقيقة، لتصبح كالستائر المتطايرة بين الحلم واليقظة، أيها الأدراك (الزنجبيل) لا تتخل عني».

وضعتُ الشرائح في وعاء من الماء المغلي، راقبتُها وهي تدور في دوامة بطيئة كدوران الأرواح في **دولاب الكارما** (دولاب الحياة عند الهندوس). امتلأ المطبخ بالبخار الكثيف فلم أعد أرى بوضوح، سيعلق البخار وتلك الرائحة البرّية التي تشبه الخيزران المقطوع والممضوغ، في ثوب الساري لفترةٍ طويلة.

الزنجبيل الذهبي الذي لطالما استخدمهُ الحكيم **تشاراك**، كي يعيد تأجج النيران في المعدة ببطء. أرجو أن يُنشطَ لهيبكَ المُشع أوردتي الواهنة. في الخارج، كانت أمريكا تنادي بلهجاتٍ متعددة، مخترقةً جدران المتجر، مُدّني بالشجاعة أيها الزنجبيل.

لأجيبها بذكاء.

انتظرتُ طويلاً كي أسمع أغنية التابل. لكنهُ لم يستجب، أوه... **تيلو** تُخالفين القوانين وتتجاوزين كل الحدود ماذا تتوقعين؟

سكبتُ السائل في كوب، بدا لونه كلون العسل الشاحب. رفعتُهُ كي أشرب، حرق حنجرتي بطعمه} اللاذع، أخذت ألهثُ وأسعل، وحين أجبرتُ نفسي على ابتلاعه بدأ يغلي في أحشائي وكأنهُ يريد الخروج. لكنني دفعتُهُ نحو الأسفل بكل قوتي. لم أجرؤ من قبل على مقاومة قوى التوابل ولم أفضّل رغباتي على واجباتي.

تلاشت قدرتي على المقاومة رويداً رويداً ...

حدثتُ نفسي «والآن يا **تيلو**، بعد أن قمتِ بما يحلو لكِ، لمَ كل هذا الحزن؟ هل هو بسبب تلك الأمنية السخيفة التي لم تستطيعي تحقيقها؟».

شعرتُ بوخزة في حلقي وبدأ لساني يتحرك برشاقةٍ، دافعاً الندم جانباً ليس الآن يا **تيلو**، ربما في وقتٍ لاحق.

فتحتُ الوعاء، والتقطتُ الشرائح الساخنة المُبيضّة بفعل الحرارة. وبدأتُ بقضمها واحدة تلو الأخرى، شعرتُ بملمس الألياف بين أسناني، وكادت جمجمتي أن تنفجر.

عندما تلاشى الطعم اللاذع، تفوهت بمفرداتٍ جديدة، وبدأ جسدي يتحرك بطريقة غير مرئية، بطريقةٍ تساعدني على التجوال في شوارع أمريكا المُلتفّة كالمتاهة حول المتجر. بدأت كلّ الخطط والوعود تحوم في رأسي.

ـ **جيتا** انتظريني، أصبحتُ مستعدةً الآن، أنا قادمة.

لكن أولاً وقبل كل شيء يجب حل مشكلة الثياب.

عندما وصلتُ إلى أمريكا، لم أحصل على ثياب كي أرتديها في الشارع لم أحصل سوى على ثوب الساري المُهترئ هذا لأستقبل به زبائني فقط، لونه بلون العاج المُصفَر، لا ألوم الأم الكبرى على ذلك. فقد تقصدت التخفيف من كل ما يدعو للإغراء بهدف حمايتي. لكن يتوجب الآن، ارتداء ما يلائم جولتي الأولى في أمريكا.

في **البراهما موهورتا** (الصباح الباكر) وعند اللحظة المقدسة **للبراهمان** (الروح الكامنة وراء جميع الظواهر)، التقطتُ حفنة من **بذور الخشخاش** و**نجيل الهند** (نبات ذو جذور عطرية الرائحة)، فالتصقت بأطراف أصابعي كالرمل الرطب رافضةً الخضوع لأوامري. طحنتُها وعجنتُها مع **الحرفيه** (سكّر أسمر مستخلص من عصارة أشجار النخيل) كي أصنع بعض **الأفيم** (الأفيون) تابل المظاهر الخادعة، ووضعتُهُ على النار.

لم تؤيد التوابل سلوكي، فقد قفزت كرات **نجيل الهند** ثلاث مرات من الوعاء، كما انطفأت النار ثلاث مرات، وعندما اشتعلت أخيراً، كانت ضعيفةً، متقطعة ذات رائحتها كريهة ومزعجة ومنفرّة. جعلني دخانها أسعل حتى انهمرت دموعي. لكنني بدأتُ أسيطر عليها بنجاح. هذه المرة، قلّ تعاطفي معها، ولم أعد أشعر بالذنب كالسابق.

هل هذا ما يحدث عادةً عندما نقترب من المُحرّمات، والتي يُطلق عليها البعض اسم (الذنوب)؟ فنشعر في البداية بألم شديد، ويعترضنا أثناء ذلك بعض من جلد الذات، ليتلاشى بعد ذلك الألم من أجسادنا كلياً كسحابة المطر، فلا نشعر به مطلقاً لأننا تعودنا عليه، أو هذا ما تظنينهُ يا **تيلو**.

التفّ الدخان الكثيف من حولي، مُشكلاً شبكةً فوق جلدي، بدأت الملابس تأخذ شكلها.

كل ما أعرفه عن الأزياء الأمريكية، هو ما كنتُ أراه على الزبائن. نظرتُ إلى أزياء المارّة ونسجتُ منها ما علق في ذاكرتي ليتشكّلَ معطف رمادي أنيق بلون السماء في الخارج وقميص ناعم يُظهر الرقبة وسروال أسود طويل ومظلة تحميني من المطر الذي استطعتُ التنبؤ بهطوله من مظهر الفجر القريب من إشراقة الصباح. لكنني كنتُ على يقين أني لا أستطيع ملاقاة **جيتا** بهذه الثياب.

إن تعويذة المظاهر الخادعة صعبة التنفيذ، حتى عندما تكون الأمور على ما يرام. وقد لاحظتُ اليوم غضب التوابل مني، إذ بدأت قواي تتلاشى حتى جفَّ دماغي. ومن خلفه، كان التابل يسعى لتشتيت انتباهي، ليُفسد عمل التعويذة فتضيع جهودي في الهواء.

«أيها **الأفيم** (الأفيون) لماذا تحاربني وأنت تعلم أن هدفي مساعدة الآخرين فقط؟»

بدا صمت التابل كحجرٍ ثقيل يضغط على قلبي، أو بالأحرى كالرماد فوق سطح لساني. جعلني صمتُهُ أتذكر صوت الضحك المرير للأم الكبرى. أعرف ما الذي كانت لتقوله لو كانت هنا.

«لطالما كانت هذه هي مشكلتك يا **تيلو**! لا زلتِ تظنين أنكِ تعرفين كل شيء، لقد نسيتِ أن تحقيق الرغبات الشخصية يؤدي إلى الهلاك، هل تقومين بذلك لإرضاء نفسكِ؟ أم تساعدين **جيتا** لأنكِ تجدين في حبها الممنوع صورة تعكس ما يحصل معكِ؟»

أصبحت الثياب السحرية الجديدة رقيقةً كالضباب. وبدأت تتمزق ببطء ما جعلني أدرك أن التوابل لن تساعدني أكثر من ذلك. لذلك اضطررتُ اللجوء إلى خطة أخرى.

كان المطر غزيراً وبارداً في الخارج، لسعتني قطراته كالإبر بينما كنتُ

أقفلُ باب المتجر. بدت القبضة زلقة ومستعصية. علقت المفاتيح بالقفل، وبدأ المتجر يصارعني بكل قوته. كان عليّ أن أضع الهدية التي أحضرتُها معي من أجل **جيتا** على الأرض كي أسحب وأركل بعنف، استطعتُ أخيراً إقفال الباب بعد صراعٍ طويل. مُصدراً صوت عنيف كصوت إطلاق النار. بدأ جسدي بالارتعاش عند عتبة. صاح صوتٌ قادماً من عقلي: اخترتِ الجانب الخطأ «تسلل رذاذٌ رطب كالوحل إلى عظامي، تحسستُ باب المتجر بأصابعي، بدا غير مألوفٍ من الخارج، شعرتُ للحظة وكأنني مشرَّدة»

«سأعود قريباً»

أصبح خشب الباب أكثر قساوةً وعناداً كالدرع الفولاذي، يبدو وكأنه لم يكترث لوعدي، ربما لن يسمح لي بالدخول عندما أعود.

حدثت نفسي: «توقفي **تيلو**، لا تخلقي الثعابين من الحبال، لديكِ ما يكفي لتقلقي من أجله».

فاحت في الهواء رائحة تشبه إلى حدٍ ما رائحة فراء الحيوانات الرطبة. أخذتُ نَفَساً عميقاً وحشرتُ رأسي بعمقٍ في معطفي. قررت عدم الخوف، فتحت مظلتي التي تشبه فطر الغاريقون العملاق، لأرد عن نفسي المطر.

وبحزم نزلتُ إلى الشارع المهجور، وبدأتُ أشق طريقي تحت المطر البارد. شعَرتُ وكأني أحطّم ألواحاً من الزجاج المتجمد. اقتربتُ من مركز تجاري اسمه **سيرز**. فُتح بابه تلقائياً كفتحة الكهف السحري وكأنهُ يدعوني للدخول.

بما أنكم تعلمون كيف يكون الشعور عندما تتبضعون من مركز **ساكس ونوردستروم** التجاري وعندما تمرّون يومياً من أمام متجر **نيمان ماركوس** الأمريكي، ستدركون مدى سعادتي لزيارة هذا المركز التجاري للمرة الأولى، والمختلف كلياً عن متجري للتوابل؟ لفت انتباهي انعكاس الضوء اللطيف على الأرضية المُلمّعة بسائل **Mop & Glo** الشهير وعلى

عربات التسوق المعدنية التي يدفعها الزبائن المبهورين أمامهم. أعجبتني البضائع المتراكمة والمُعلقة والملفوفة بأناقة في كل الأجنحة. ما من أحد هناك ينبهك «ممنوع اللمس» أو يحد من حريتك في التجول «كيف يمكنني مساعدتك؟». لفتت انتباهي بعض البضائع أكثر من غيرها، غسول **الألوفيرا** (صبّار صحراوي) للنضارة، أطباقٌ فضية من الكرتون أكثر لمعاناً من الأطباق الزجاجية، صنارات صيد، قمصان نوم شفافةٍ من الشيفون لإثارة الشهوة، كسرولة (أنية من أواني المطبخ) مِن السيراميك ماركة **كورنينغ وير**، ألعاب فيديو مستوردة من اليابان، أجهزة منزلية متطورة ماركة **كويزينارت**، أجهزة لإزالة الشعر، حائط طويل من أجهزة التلفاز يُعرض على شاشة كلٍ منهم برنامج مختلف عن الآخر. تجعلكَ تلك البضائع المُغرية تشتري أشياءً لا تحتاجها. شعرتُ للحظة بأنني ثملة. كنتُ قادرة على التصرّف كامرأة عادية وأنا أحدّق في الماركات، وأقيس بعض الأقمشة الملونة فوق جلدي المُنمّش الهرم. امتلأت عربتي قبل أن أدرك ذلك، وضعتُ فيها: مرآة (أولى المُحرّمات)، تلفاز ملون يُمكنّني من متابعة ما يحصل في قلب أمريكا، وربما في قلب صديقي العازب الأمريكي، آملُ ذلك. علبة مكياج كاملة، زجاجةَ عطرٍ برائحة الورد والخزامى، أزواج متعددة من الأحذيةً بألوانٍ وموديلاتٍ مختلفة، وواحد فقط بكعب عالٍ أحمر اللون لامع كالفلفل الحارّ، وملابس جديدة، فساتين وسراويل وبلوزات وملابس داخلية أمريكية ناعمة الملمس وأخيراً، رداء نوم من الدانتيل الأبيض ناعم كقطرات المطر العالقة في شبكة عنكبوت».

«**تيلو**؟ هل جننتِ؟ ألهذا خالفتِ كل القوانين، وخرجتِ من المتجر، لتشتري كل هذا؟».

اخترق صوت التأنيب أذنيّ كالأسيد الكاوي واحترق وجهي عند سماعه ظننتهُ صوت الأم الكبرى، تبيّنَ لي أنه صوتي، فخجلتُ خجلاً شديداً من تصرفي الطائش.

تركتُ عربة التسوق الممتلئة في جناح صبغات الشعر، وأخذتُ فقط ما يلزمني للمهمة «ملابس جديدة لأرتدائها قبل مقابلة **جيتا**، والمرآة، التي لم أقرر بعد ما الذي سأفعلهُ بها».

«كلا يا **تيلو**، أنتِ تدركين أنها من أخطر الأشياء المُحرّمة، لا تأخذيها».

لكن هذه المرّة، تجاهلت كل التحذيرات.

بدلاً من ذلك، نظرتُ إلى الموظفات عند الكاشير. كانت نظراتهن حزينة وسواعدهن مترهلة وشعرهن مصبوغ يظهر الشيب فيه من الجذور. لم تُعرنني أي اهتمام رغم نظراتهن الفاحصة لوجهي، كالأشعة الحمراء المنبعثة من جهاز الباركود الذي يتفحص بدقة كل أسعار المشتريات. استطعتُ قراءة أفكارهن وأحلامهن البسيطة. كالحصول على معطف من فرو المنك الطبيعي من مركز **Macy** التجاري أو عودة عاشق قديم من أيام الثانوية أو رحلة بحرية إلى **أكابولكو** على متن يخت فخم. ومن المضحك أنه بمجرد أن سألتني الموظفة «ستدفعين نقداً أم عن طريق بطاقة الائتمان؟ إذا أردتِ نشحنها لك، عليكَ دفع عشرين دولاراً إضافياً إضافية، أتمنى لكِ نهاراً سعيداً، نسيتني فوراً. اكتشفتُ أن موظفات المحاسبة تنسين كل الزبائن بعد دفع النقود، كما فعلت الحسناء **فانا** (شخصية أسطورية) حينما ألقت بنجومها المتلألئة في دولاب الحظ، أوه... التحرر من كل الأشخاص،كم أحسدهن على ذلك.

دخلتُ إلى مرحاضٍ عام، يفوح برائحة النشادر، وارتديتُ السروال الجديد وبلوزة البوليستر، وزررتُ المعطف البني الطويل إلى ما تحت الركبة والذي تعسّر عليَّ وصفه، ربطتُ حذائي البني المتين، وحملتُ مظلتي استعداداً للذهاب. لم أتعرف على نفسي في تلك الثياب الجديدة، بدوتُ امرأةً ملفوفة بأقمشة بنّية وعينين يافعتين وشعراً كالقنب الهندي، **جيتا** وتحاول جاهدةً رسم ابتسامة مترددة تُخفي تجاعيدها. ثم تسترخي وتنطلق بعد أن تتوارى قوة العقل والثياب الخادعة التي صَنَعَتها من

الأفيـم (الأفيـون) عـن جسـدها كالدخـان وتتدفـق مـن أكمامهـا الجديـدة لتُشـكّلَ أحرفـاً هيروغليفيـة تعجـزُ هـي نفسـها عـن قراءتهـا. هـل يمكـن أن تكون تلك الأحرف نوعاً من التحذير؟

شـكرت المـرأة **الأفيـون** «شـكراً لـك» لم يفاجئهـا عـدم الـرد. ثـم وضعـت فاتـورة المـرآة التـي سـيوصلونها لهـا غـداً في جيـب معطفهـا. فجـأةً، حـضرت إلى ذهنهـا رؤيـة غـير متوقعـة «كانـت تلمـس بيدهـا الحافـة البـاردة لزجـاج المـرآة، فانعكـس وميـضٌ فـضيٌ يُعمـي الأبصـار، ثـم ...». لكنهـا فجـأةً، أزاحـت تلـك الرؤيـة مـن رأسـها وحدّثـت نفسـها «**جيتـا** تنتظـرني، وجدُّهـا أيضـاً»، ثـم حملـت هديـة **جيتـا** بحـذر ـ الهديـة التـي أحضرتهـا معهـا مـن متجـر التوابـل ـ كانـت مسـتغرقة بالتفكـير، فلـم تنتبـه للبـاب الأوتوماتيـكي عندمـا فتـح دفتيه لتخرج إلى الشارع.

في الخـارج، وقفـت بثيابهـا الجديـدة بـين الحشـود. عنـد موقـف البـاص كانـوا ملفوفـين مثلهـا بأقمشـة بنيـة وسـوداء وبيضـاء، تعجبـت حـين لم يُعرهـا أحـد اهتـمام. كيـف لا يلتفتـون إلى شـكلها الغريـب، وهـي تتجـول في شـوارع أمريكا لأول مرة؟

بـدأت تلمـس ياقـة معطفهـا بـسرور، المعطـف الـذي بـدا أفضـل بكثـير مـن عبـاءة التخفـي. عندمـا وصلـت الحافلـة صعـدت إليهـا مسرعـةً كالآخريـن، وحشرت نفسها بينهم بنجاح، بطريقة لا تسمح لأي أحد بالتعرف عليها.

بعـد أن تجشـأت الحافلـة بعـض الدخـان، نزلـتُ منهـا لأجـد نفـسي أقـف مبـاشرةً أمـام مكتـب **جيتـا**. تأملـت بتعجـب، بريـق الزجـاج الأسـود لذلـك البنـاء، ولفـت انتباهـي انعـكاس صـورة امـرأة عـلى الزجـاج المسـتطيل، إنهـا أنا!؟

اقتربـتُ لإلقـاء نظـرة أعمـق، لكـن كان الانعـكاس قـد تـلاشى بسرعـة خاطفـة. لم يخطـر ببـالي مـن قبـل تفحُّـص هـذا الوجـه. لكـن بـدأ قلبـي يتحرق شـوقاً لذلـك الآن. عندمـا تراجعـتُ للـوراء ظهـر الانعـكاس مـن جديـد وبـدأ

يطفو بملامح وهمية، غامضة وبعيدة.

«أيتها الطبيبة الساحرة، يا من تعالج البشر بالأعشاب السحرية ادخلي وأعيدي المياه إلى مجاريها»

يبدو أن موظفة الاستقبال تفكر بطريقة مختلفة.

ـ من؟

هل لديكِ موعد؟

ـ لا؟

«كانت تزم شفتيها الأرجوانيتين بتكبر، وتنظر بتمعّن بعينين مكحلتين إلى معطفي وحذائي الرخيص وإلى الطرد الملفوف بورق الجرائد الذي أحضرته معي من المتجر، تساقطت قطرات الماء العالقة في مظلتي السوداء كالبول فوق سجادة مكتبها. بدت علامات الاستهجان واضحة من وضعية جلوسها بظهر مشدود كالعصا».

ـ إذاً، لا أظن أني أستطيع مساعدتكِ.

«قالتها بحزم، وبدأت تتَلمّسُ تنورتها بأطراف أصابعها أرجوانية اللون وتمسح راحتيها بوركيها المتناسقين وعاودت الطباعة على الآلة الكاتبة. لكن **تيلو** الشجاعة لا تستسلم بسهولة لن تسمح لنفسها بالعودة إلى المتجر خاوية اليدين، بعد أن خرقت كل القوانين واستخفّت بعقاب التوابل وجازفت كي تخرج إلى شوارع أمريكا المُحرّمة.

اقتربتُ من مكتبها إلى أن وقفت أمامها مباشرةً. فتوقفت عن الطباعة ونظرت في وجهي بانزعاج وبقليل من الخوفة ت رموشها المترجرجة.

ـ أخبري **جيتا** أني أحتاجها في أمر ضروري جداً.

«كانت عيناها تقول، عجوزٌ مجنونةٌ، ربما عليّ الاتصال بالأمن. تباً، لماذا أقع في المشاكل؟ ثم ضغطت على آلةٍ موجودة على طاولتها، وتكلمت بنبرة ناعمة.

ـ آنسة **بانيرجي**، هناك امرأة تريد مقابلتكِ.

أجل، أظن أنها هندية.

لا، لا أظن أنها تمثّل جهة معينة، يبدو أنها مختلفة نوعاً ما.

لا لم تذكر لي اسمها.

حسناً، كما تشائين.

«ثم التفتت إليّ»

اصعدي إلى الطابق الرابع، اسألي عن مكتبها عندما تصلين. المصعد إلى اليسار.

«استطعتُ قراءة عينيها، أريدكِ فقط أن تذهبي من هنا».

خاطبتها بينما كنتُ أجمع أغراضي.

ـ لم تسألينني عن اسمي، ومن قال لكِ أني لا أمثّلُ جهةً معينة؟ برأيك ما الذي جعلني أحضر إلى هنا؟

«حدقت في وجهي باندهاش»

ـ ماذا؟

«بدى مكتب **جيتا** كمربع صغير بدون نوافذ، يتواجد فيه عادةً الموظفون الجدد الذين ليس لديهم متسع من الوقت للنظر من النافذة لكثرة مشاغلهم، مع طاولة معدنية مليئة بالملفات والمخططات تحتل كل المساحة».

كانت تجلس خلف الطاولة، بدت وكأنها تكتب تقريراً تجارياً، لكن لا أظن ذلك، لأن الأوراق مليئة بالخرابيش. بدت الرسومات من بعيد حيث كنتُ أقف كورود ذات أشواك ضخمة. وبدت **جيتا** أكثر نحولاً أو ربما كان ذلك بسبب الطقم الرسمي الذي ترتديه، طية السترة المائلة بوضوح عند الصدر تعكس زُرقتها الفاقعة على وجهها ما جعلها تبدو أصغر سناً.

«عندما حضرت آخر مرة إلى المتجر، كانت ترتدي سروال جينز أزرقاً، وتي شيرت أحمر مطبوع عليه **UXMAL** (اسم مدينة من مدن المايا القديمة). تضحك بمرحٍ حين تهمس والدتُها في أذنها ويتماوج كمياه البحر

شعرها الكثيف والمجدول الواصل لأسفل ظهرها. كانتا تحضران معاً لشراء الزبيب واللوز والإيلاتش دانا (بذور الهال) البيضاء الحلوة لصُنع الحلويات البنغالية، من أجل سهرة رأس السنة».

لكن اليوم، كان السواد واضحاً تحت عينيها من خيبة الأمل، ارتبكت كثيراً عندما رأتني، ربما توقعت شخصاً آخر «والدتها مثلاً، كأن تدخل إلى المكتب بأعجوبة لتقول، سامحتكِ يا ابنتي».

كانت تُطبق فمها بقوة لتمنع شفتيها من الارتعاش، لكني لمحتُ شامةً صغيرة مرتعشة على ذقنها. تمنيتُ أن أعبّر عن إعجابي بجمالها. ثم نَطقت أخيراً، وبتهذيب.

ـ تفضلي أرجوكِ، يا للمفاجأة، تبدين مختلفة تماماً.

«لم تستطع كبت سؤالها الرئيسي أكثر من ذلك»

ـ كيف عرفتي مكان عملي؟ هل طلبَ منكِ أحدهم أن تأتي لرؤيتي؟.

«أومأتُ لها...أن لا»

من؟ والدتي؟

«عندما أجبتها بالنفي، سألتني متلهفة، لا تقولي إنه أبي؟»

«أوه... **جيتا**، أيتها العصفورة الحزينة، كم أود لو كان توقعكِ صحيحاً، كم أود اقتلع الشوك المغروز في قلبكِ الجريح، لكن لا، ليس هو».

شَعَرتْ بالإحباط»

توقعتُ ذلك.

ـ في الحقيقة، جدّكِ من أرسلني.

«صاحت بصوتٍ حاد، استطعتُ قراءة أفكارها التي بدأت تنخر دماغها المشوش».

ـ أوه... جدّي، هو من حرّضهم ضدي بأفكاره السخيفة عن المرأة الملتزمة وشرف العائلة، ما كانوا ليتصرفوا معي بتلك الطريقة لولا عقليته الرجعية، خصوصاً أبي، لو بقي جدّي في الهند لما حدث أي من...

«قاطعتُها لأوقف السّم الذي يغزو قلبها»

ـ إن جدّكِ يحبكِ كثيراً يا **جيتا**.

«ضحكت بسخرية، وقذفت الكلمة من فمها باشمئزاز»

ـ حب؟! (قهقهت) إن جدّي لا يعرف معنى هذه الكلمة، لقد قضى حياته كلها وهو يتحكم بالجميع، أنا، والدتي، أبي. وعندما لا يستطيع تحقيق مراده، يبدأ كالمعتاد «أوه ... **راموا** أريد العودة إلى الهند لأموت بسلام هناك»

«قلّدت لهجة جدّها ببراعة لم تخلُ من بعض الحقد، صدمني ذلك لكن الحقد المكشوف أفضل بكثير من الحقد المكبوت».

لولا أفكارهُ المتحجرة حول الزواج المُدبّر، لما كشفتُ عن علاقتي مع **جوان** بتلك الطريقة، كنتُ سأعرّفهُ عليهم بهدوء، عندها سيرونه كشخص محترم، بدلاً من...

ترددت، ولم تكمل كلامها، أعرف ما يجب قوله، فقد علّمتنا الأم الكبرى «تذكّرن أن مصيركن ولِدَ معكن، لا تَلُمْنَ أحداً بشأنه فهو ملتصق بنجومكن منذ الأزل»

لكن لا تحتاج **جيتا** لسماع كلماتٍ كهذه، لم تعد الكلمات القديمة تناسب شخصيتها.

«أيتها التوابل، أعرف أنه لا يحق لي طلب مساعدتكِ، لكني أتوسل إليكِ أرشديني»

«جرفت رياحٌ رملية ساخنة، كلماتي بعيداً، وتساقطت الدقائق من حولنا من كطلقات من رصاص... ماذا عليّ أن أفعل الآن؟»

«حدقت **جيتا** في وجهي، ورفعت حاجبها محاولةً استدعاء بعض الأفكار السلبية، لكن هذه المرة، اختفى الحقد الذي كان يملأ عينيها»

على أية حال، ماذا يمكنكِ أن تفعلي لأجلي؟

ـ لا شيء، أريدكِ أن تدركي فقط بأن الغضب يشبه تماماً أزيز النحل،

الـذي يحـرس العسـل النقـي المخفـي خلـف جـدران الخليـة. جئـت لأطمـئن عليكِ، ولأطمئنهم عندما أعود. «لا تقلقوا، إنها بخير»

«تنهدت، فارتعش بدنها».

ـ لسـتُ متأكـدة إن كنـتُ بخـير أم لا، فأنـا لا أتوقـف عـن تنـاول الحبـوب المنومـة كل ليلـة. مـع ذلـك، لا أسـتطيع النـوم، بـدأت **ديانـا** تقلـق عـليّ فهـي تعتقد أني بحاجة لمراجعة طبيب نفسي.

ـ **ديانا؟!**

ـ أوه... أجـل، لم أذهـب لمنـزل **جـوان**، وجـدتُ أن ذلـك سيسـبب لي الكثـير مـن المشـاكل مـع عائلتـي، إضافـةً لأننـي لا أريـد لعلاقتنـا أن تنتهـي هكـذا، أقصـد «أنـا وجـوان» لا أريـده أن يـراني وأنـا عـلى هـذا الحـال، لذلـك اتصلـتُ **بديانـا**، فهـي أعـز صديقـة لي منـذ أيـام الجامعـة، قالـت إنهـا ترحـب بي وأنـه بإمكاني البقاء عندها للوقت الذي أحتاجه».

«شعرتُ بالامتنان، وارتخت رئتاي المشدودتين واستطعتُ التنفس من جديد»

ـ أوه... **جيتا**، أنتِ فتاة ذكية بالفعل.

«حاولت إخفاء ابتسامتها، لكني أدركتُ أنها كانت مسرورة».

ـ هل تحبين رؤية صورتهُ؟

«التقطـت بـروازاً مـن النحاس، موضوعاً عـلى طاولتها، ومسـحتهُ بكمّها بحذرٍ شـديد، ثـم ناولَتنـي إيـاه... رجـل وسـيم ذو نظـرة جدّيـة، شـعره أسـود مُسـرّح بعنايـة، ابتسـامته تـدل عـلى أنـه لم يعرف الحنـان في حياتـه إلا قليـلاً، كما كانت وضعية ذراعه حول خصرها، تدل أنه ليس معتاداً على الحظ السعيد».

ـ يبدو ذكياً مثلك أيضاً.

«ابتسمت بجلاءِ الآن».

ـ إنـه يفوقنـي ذكاءً، هـل تصدقـين أنـه ترعـرع في حـيٍّ فقـير ثـم التحـق بالكليـة وحصـل عـلى منحـة دراسـية وتخـرّج بمعـدّل ممتـاز. مـع ذلـك، تجدينـه متواضعـاً، لا يتحـدث أبـداً عـن إنجازاتـه. أنـا متأكـدة أن أبي سـيُعجب به عندما يتعرف عليه.

ـ يمكنك أن تُحضريه معكِ إلى المتجر، لأقابلهُ؟

ـ بالتأكيد، سيسره ذلك، فهو مهتم بالثقافة الهندية وخصوصاً فيما يتعلق بالأغذية، لطالما طبختُ له طعاماً هندياً في شقته، فكما تعلمين، يستعمل المكسيكيون معظم التوابل التي...

«توقفت فجأةً عن الكلام، حدقت **جيتا** الفتاة الذكية في عينيّ مباشرةً. استطعتُ رؤية انعكاس وجهي في عينيها الداكنتين، كبحيرةٍ وسط الظلام».

تذكرتُ الآن، قال لي جدّي ذات مرة، إنكِ تعرفين الكثير من التعويذات.

«أجبتُها بسرعة».

ـ مجرد رجلٍ عجوز.

ـ أوه... في الحقيقة، لا أدري، يملك جدّي أحياناً بعض الآراء الإيجابية.

«بدأت تختبرني»

حسناً، لا مانع عندي، جعلني حضوركِ أشعر بالارتياح. سأحضر **جوان** إلى المتجر قريباً. في الأسبوع المقبل ربما، فهم يؤمنون بالتعويذات في ثقافتهم أيضاً، يسمونها Curanderas تمائم على ما أعتقد.

ـ إذاً، نلتقي الأسبوع المقبل.

«نهضتُ استعداداً للرحيل. انتهت مهمتي في الوقت الراهن، لكني أعلم أن هنالك الكثير من المشاكل في طريقها إلينا»

تذكرت، أحضرتُ لكِ شيئاً.

«أزلتُ الجرائد عن زجاجة المانجو المُخلل بزيت الخردل، والذي أضفتُ له بعض **الميثي** (بذور الحلبة) للـمّ الشمل، وبعض **الزنجبيل** ليمُدّها بالشجاعة أكثر، يجعلها ذلك تقول لا في الأوقات المناسبة، إضافةً إلى **الأمشور** (مسحوق المانجو) لاتخاذ القرارات الصائبة».

أخذَتها من يدي، ورَفَعَتها نحو الضوء، لتمعن النظر بلونها الذهبي الأحمر المتوهج.

ـ شكراً لكِ، إنها المفضلة لدي، تعرفين ذلك طبعا.

«ثم نظرت إليّ بمكر.كانت عيناها تلمعان من الذكاء»

ـ هل أضفتِ إليها بعض السحر؟

ـ السحر موجود في قلبكِ يا عزيزتي.

ـ أشكركِ حقاً على مجيئكِ، أشعر بحالٍ أفضل الآن. اسمعي دعيني أرافقكِ إلى الطابق الأرضي.

«عندما وصلنا إلى الرواق، عانقتني بحرارة، لم أصدق أنها نزلت من برجها الأسود البرّاق لتعانقني بذراعين خفيفين كأجنحة طيور الجنة.ثم حشرت شيئاً ما بيدي.

ـ دعيهم يرون هذه الصورة، طبعاً عندما يحضرون إلى المتجر، يمكنكِ إخبارهم أننا لا نقيم معاً أيضاً، أقصد أنا وجوان.

«بدت شفتاها كزهرة يافعة تتفتح ببطء على خدّي»

وهذا رقمي في حال... احتفظي به للطوارئ.

«خطرت ببالي فكرة غير متوقعة، بدأت تحوم في رأسي كالأجنحة سأعطي الصورة ورقم الهاتف لجدّها عندما يحضر إلى المتجر. عندها، سأخبرهُ ما يجب القيام به».

في الحافلة، شعرتُ باحتراقٍ في المكان الذي لَمَستهُ **جيتا** خلف كتفيّ. كما شعرتُ بحرق سطحي في بَشرتي، عندما نفخت في وجهي أمنيتها الصامتة «أتمنى ممن أحبهم أكثر من أي شيء، أن يحبوا بعضهم البعض بصدقٍ». ثم بدأت عينيَّ تحترقان أيضاً عندما حدّقتُ بالصورة عاشقين يافعين يبتسمان بتفاؤل، ويأملان بأن أصلح كل ما حدث من فوضى... أنا **تيلو** التي تعاني أكثر بكثير مما يُعانيان.

حينما استيقظت وجدتُ الأم الكبرى جالسة على الأرض قرب رأسي، كان المتجر مظلماً باستثناء بصيصٍ من الضوء الأخضر قادم من حيث لا أعلم. هبّت رائحة خفيفة من زيت **الكركديه** الذي كانت تسمح لنا بدهنهُ على شعرها. كان عمودها الفقري منحنياً بيأس وكأنه يحمل حِملاً ثقيلاً يمنعهُ من

الانتصاب. ربما حياتي أو حياتُها، لا أدري، بدأت الندب التي على يديها تتوهج كالجمر فوق جلدها الأبيض المُحمرّ. شعرتُ بالخوف للحظة، ثم استرخيتُ قليلاً، لأنني لم ألاحظ على وجهها ما كنت أتوقعه من غضب، بل مجرد حزن عميق وشفقة كرياح موسمية عابرة أو كالسكون في قاع البحر. شعرتُ وكأن أحدهم يعصر قطعة قماشٍ رطبة بقوة، حتى آخر قطرة.

ـ أيتها الأم الكبرى.

اقتربتُ لألمس كتفها، لكني لم أتحسس شيئاً كان ذلك شبحها فقط. سافرت روحُها لتحذرني من طيشي، أدركتُ ذلك مؤخراً. اعتذرتُ لها ثانيةً لأني تذكرتُ أنها بعد رحلاتٍ كهذه تذهب إلى كوخها لتستريح فوق فراش القش لساعاتٍ أطول بعدٍ كل رحلة. فتراها تلهث من شدة الإرهاق، وتلاحظ بعض الورم البنفسجي تحت عينيها، ويبدو كالكدمات.

ـ هل ما فعلتُهُ سيء لهذه الدرجة أيتها الأم الكبرى؟

ـ **تيلو** ...

«بدا صدى صوتُها بعيداً وكأنه يتردد من كهف عميق تحت الماء»

لماذا فعلتِ ذلك يا ابنتي؟

ـ لكن أماه، كنتُ أحاول مساعدة **جيتا** فقط، كيف لي أن أرفض طلب جدِّها؟ هذه أول مرة في حياته، يطلب مني خدمةً كهذه؟

ـ **تيلو**، إن المساعدة التي قدمتِها خارج هذه الجدران المحمية ستنعكس عليكِ سلباً، ألا تدركين ذلك؟ حتى هنا، أظنكِ رأيتِ أن الأمور لا تسير بالطريقة التي تريدينها.

«همستُ بيأس. وبدت خيبة الأمل واضحة في صوتي».

ـ لكن **جاغجيت**...

ـ أجل أعرف، وسيكون هناك آخرون. ألا تذكرين الدرس الأخير؟

«حاولتُ التفكير قليلاً، لكن رأسي كان مليئاً بالأفكار المشوشة، كشظايا متكسرة لا تتناسب نهاياتها مع بعضها البعض.

ـ في النهايـة، لا تملـك عاشـقة التوابـل أيـة قـوة، فهـي كالقصـب الأجـوف ينفـع لغنـاء الريـاح فقـط. التوابـل هـي مـن تقـرر مصـير الزبـون، عليـكِ تقبّـل قرارها، حتى لو باءَ بالفشل.

ـ أيتها الأم الكبرى، أنا...

ـ لكـن عندمـا تُهملـين المسـموح وتلمسـين الممنـوع وتخرقـين كل القوانـين عندهـا سـتتزايد نسـبة الفشـل مئـة ضعـف، تذكّـري أن مهمـة القوانـين القديمـة الحفـاظ عـلى التـوازن الدقيـق لهـذا العـالم. فقـد وجِـدَت منـذ الأزل قبـلي وقبل الأمهات الأخريات، وقبل الجدّة العظيمة حتى.

«بـدأ صوتُهـا يعلـو ويضعـف وكأنـه يتـلاشى تدريجيـاً بفعـل عاصفـة بحريـة أردتُ سـؤالها الكثـير مـن الأسـئلة، كـم كنـتُ سـاذجة حـين اعتقـدتُ أن الأم الكـبرى هـي البدايـة والنهايـة... الأمهـات الأخريـات؟ الجـدّة العظيمـة؟ لكـن السـؤال الأخطـر الـذي خطـر في بـالي بدافـع الفضـول القاتـل أو بالأحـرى الرغبة القاتلـة، والـذي لم أجـرؤ عـلى سـؤاله، «بعـد أن تمـوتي أيتهـا الأم الكـبرى، مـن سيحلُّ محلكِ؟» لكني نسيتُ ذلك حين استأنفَت حديثها.

لا تدعـي أمريـكا تقـودكِ إلى مصائـب لا يُمكنـكِ تخيلهـا، لا تحلمـي بالحـب، وتثيري غضب التوابل.

«همستُ مذهولة»

ـ أنتِ على علم بذلك؟

«لم تُجبني، وبدأ شبحُها المتوهج يتلاشى تدريجياً عبر جدران المتجر»

انتظري أيتها الأم...

«خاطبتني بصوتٍ واهنٍ وشفاه مزرقّة كالهواء.

ـ اسـمعي يـا ابنتـي، حاربـتُ بـكل مـا أوتيـتُ مـن قـوة، ليصلـكِ هـذا التحذير، لا يُمكنني فعل ذلك في المرة القادمة.

ـ أيتهـا الأم، بمـا أنـكِ تعرفين أسراري، أجيبِي على سـؤالي هـذا، قبل أن تذهبي، لو رغبت في استعادة حياتي من جديد، ما الذي ستفعلهُ التوابل في هذه الـ...

«لكنها غادرت قبل أن أكمل. عادت جدران المتجر باردة ومعتمة ثانيةً، لم يعد هناك أي دليل على وجودها لا صوت ولا حتى رائحة شعرها المدهون بزيت الكركديه برائحته التي تشبه رائحة البخور، لم يكن هناك سوى التوابل. كانت تنظر إليّ بإمعانٍ مفرط. لاحظتُ أن قوتها أعظم مما كنتُ أظن. حيث تكمن قواها المظلمة في صميمها. كانت تسحب كل الهواء من المتجر، لدرجة جعلتني أشعر بالاختناق. فأدركتُ أن ذلك لم يكن حلم كما اعتقدت. لقدً سمعت التوابل كل ما جرى بيني وبين الأم الكبرى.

بعد مدة أشرقت الشمس، فبدا انعكاسها لوهلة كالكركم المبعثر، بلون **السندور** (مسحوق أحمر تضعه الفتاة الهندية على جبينها للدلالة على أنها متزوجة) القرمزي فوق الشجرة القاحلة في الخارج والتي تقف عليها العصافير لتُغرّد بحزن بمناقيرها التي تشبه **الشمّر**. من بعيد بدت السماء منخفضة والغيوم السوداء **كالكالوا جيرا** (الكمون الأسود أو حبة البركة) تُغطي قمة البرج في قلب المدينة التجاري، البرج الذي قمتُ بزيارته في الأمس. بدأتُ أفكر **بهارون** وزوجته **أهوجا** و**جيتا** وعشيقها **جوان**، بينما كنتُ أنفض الغبار عن الرفوف، وأرتّب رزم التوابل والعجين بعناية.

تساءلت «لماذا لم يحضر أحد منهم إلى المتجر اليوم؟».

سمعتُ صوت محركات السيارات في الخارج، كما سمعتُ صوت إطلاق نار وتعالى صوت زمور سيارة إسعاف وخرطوم مياه ضخم قبالة الرصيف. كدت أصرخ «**جاغجيت، جاغجيت**». لكنني سرعان ما تذكرتُ تحذير الأم الكبرى، فلم أجرؤ حتى على النظر من النافذة.

ربما كان ذلك مجرد حلم، أو محاولة اختيار بين الأمنية والواقع. فقد حلّ الصباح الآن، ووصلت عربة النقل قادمة من مركز **سيرز** التجاري نزل، منها رجلان يرتديان زيّاً موحداً، مطبوعاً عليه بالأحمر اسم كلٍ منهما **JOSE**، **REY**، قرع أحدهما الباب وصاح منادياً «خدمة التوصيل».

«أيمكن أن تكون **الكارما**[1] هي السبب؟ والتي بمجرد أن يبدأ دولابها

(1) مفهوم أخلاقي عند الهندوس يشير إلى مبدأ السببية

الأسود بالدوران كالموت لا نستطيع إيقافهُ بسهولة؟»

سألني أحد الرجلين:

ـ أين نضع الطرد؟ وقّعي هنا لو سمحتي، تتكلمين الإنكليزية، صحيح؟

«مسحا العرق عن جبينيهما»

من فضلك سيدتي، كان يوماً شاقاً. هل لديك علب كولا أو **Cerveza**[1] باردة؟.

قدّمتُ لهما عصير المانجو المُثلّج وأضفتُ إليه بعضاً من أوراق النعناع كي يشعرا بالانتعاش ويستمدّا منها طاقة مضاعفة طيلة النهار. انتظرتُ خروجهما بفارغ الصبر وتمنيتُ سماع كلمة **Gracias** (شكراً بالإسبانية) منهما أو حتى إلى اللقاء، ليصعدا إلى عربة النقل التي تهتز بعنف فوق الحفر. وبعد لحظات، تحققت أمنيتي وغادرا المتجر، فبقيتُ وحدي مع الطرد الذي أرسلوه من مركز **سيرز** التجاري.

حاولتُ قطعَ الشريط اللاصق. صوتٌ ما داخلي بدأ يحثني «هيا يا **تيلو**، أسرعي». لكن السكّين لم يستجب لي. كان مُلطخا بدموع الاتهام فقد انحنى في يدي مرتين أو ثلاث، فتخليتُ عنه وبدأت أمزق الطرد بأصابعي. حشرتُ يديَّ بين الكرات الاسفنجية الصغيرة البيضاء كالثلج وأزحتُ ألواح **الستايروفوم** الهشة كملح البحر. استغرق ذلك الكثير من الوقت. وبدأ قلبي ينبض بانفعالٍ وكأنه حيوان محبوس داخل قفص يريد الخروج. وأخيراً أمسكتُ معدنها الصلب بيديّ، ورفعتُها للأعلى، فبدأت تلمع كالشمس، مرآتي الجميلة.

كانت التوابل تنظر إليّ بذهول، بدت عليها علامات الاستنكار واضحة وبدأت تتنفسُ بصعوبة، ثم سألتني بصمت، لماذا؟

آاااه ... ليتني أعرف السبب. شعرتُ وكأنني أسير فوق طبقة من الجليد رقيقةٌ جداً ومُعرضة للانهيار في أي لحظة، لكني غير قادرة على التوقف. **خطر ببالي السؤال الذي لم أجرؤ على طرحهِ عندما كنتُ على الجزيرة.**

(1) بيرة باللغة الإسبانية

أيتها الأم الكبرى، لماذا لا يُسمح لعاشقة التوابل برؤية نفسها في المرآة؟

عكست شمس الظهيرة أشعتها على المرآة، فأصبح المتجر أكثر إضاءةً، ما أجبر التوابل على إغماض أعينها من شدة التوهج. وقبل أن تفتحها، أزلتُ لوحة للإله **كريشنا وراعيات البقر** من على الحائط وعلّقتُ مكانها المرآة، ثم وضعتُ **الدوباتا** (وشاح هندي يرمز للتواضع الأنثوي) فوقها بحذر.

«أيتها المرآة، آمل أن يكشف زجاجكِ المُحرّم، أسراري الغائرة، لكن ليس اليوم، لم يحن الوقت بعد»

«سألتني التوابل»

ـ ليس اليوم؟ **تيلو** أيتها العاشقة الحمقاء، لماذا اشتريتها إذاً؟»

بدى صوتها مخيفاً. تساءلتُ: لماذا تخاطبني التوابل بهذه الطريقة؟ ثم تصمتُ وتحدّق في وجهي بارتياب؟.

لكني نسيتُ جميع ردودها السلبية، وملأ الفرح قلبي. صحيح أنها غاضبة وتسخر مني، لكنها في النهاية عادت لتتحدث إليّ، توابلي الحنونة لم نتحدث مع بعضنا البعض منذ وقتٍ طويل، قلتُ لها بصوتٍ لطيف كرياحٍ تُقبِّلُ الأشواك الحادّة.

ـ من يدري كيف ومتى قد تكون المرآة ضرورية؟.

لمستُ حرصها وفضولها وخطورتها على بَشَرَتي كأشعة شمسٍ حارقة تؤجل استخدام قواها المُدمِّرة، منتظرةً يوم الحساب.

ربما كانت الأم الكبرى على خطأ، ربما لم يفت الأوان بعد.

همستُ في قلبي السجين عدة مرات «ثقي بي أيتها التوابل، أعطني فرصةً أخرى، بصرف النظر عن أمريكا، وبصرف النظر عن الحب، لن تخذلكِ **تيلو** أبداً.

كالوا ماريتش
(الفلفل الأسود)

«أشار العازب الأمريكي بإصبعه»

ـ هذا التابل، أريد هذا.

«سألتُهُ بتردد»

ـ هل أنت متأكد؟

ـ طبعاً.

«ضحكتُ لسخرية الموقف، حدّثت نفسي «**تيلو**، إنّ لديه الثقة ذاتها التي كنتِ تتمتعين بها على الجزيرة مع القليل من المعرفة العامة، لذلك عليكِ الاحتراس منه، كما كانت تحترس منكِ الأم الكبرى».

كنا نقف في جناح المقبلات، التقط صديقي الأمريكي رزمةً من **التشاناتشور** (خليط من المكونات الحارّة المجففة)، مكتوب عليها «خليط **ليجات** للوجبات الخفيفة، حار جدّاً».

ـ أترى؟ لما لمَ لا تُجرب صنفاً معتدلاً؟ ما الذي تحاول إثباته؟

«ضحكَ بمرح»

ـ رجولتي طبعاً.

«إنه يوم الاثنين، اليوم الذي أُغلق فيه المتجر رسمياً. لأن الاثنين هو يوم الصمت. يوم **فول المونج الأبيض** والمقدّس لدى القمر. في يوم الاثنين

أدخل عادةً إلى الغرفة الداخلية وأجلس بوضعية **زهرة اللوتس** كما تعلمنا في الهاثا يوغا. عندما أغمض عينيّ، تحضر الجزيرة إلى مخيلتي، فأرى أشجار جوز الهند المتأرجحة وانعكاس ضوء الشمس فوق مياه البحر قبل الغروب بقليل وأشم رائحة نبات **صريمة الجدي** البرّي المنتشر في الهواء المنعش، فتملكتني رغبة عارمة بالبكاء. وأسمع النداء البعيد لصقور البحر وهي تغطس في الماء لتصطاد السمك المملح، فيبدو صوتها كصوت الكمان، ثم تحضر الأم الكبرى ومن حولها تلميذاتٌ جديداتٌ لم أكن أعرفهنّ من قبل. رغم ذلك بدا بريق وجوههن مألوفاً ومحزناً نوعاً ما، وكأنهن تهمسن «سنقوم بتغيير العالم».

في يوم الإثنين، أتحدث عادةً إلى الأم الكبرى، فهو يوم الأمهات. اليوم الذي تراقب فيه الأم كل أفعال وتحركات ابنتها. لكن مؤخراً لم أعد أخبرها بكل شيء وهذا ما سأفعلهُ اليوم؛ لقد حضر العازب الأمريكي إلى المتجر، هذه أول مرة يحضر في النهار.

تتساءلون ما الغريب في ذلك.

إن الليل يُغطي بوشاحه السحري المُرصّع بالنجوم حقيقة البشر، خاصةً حين نُصِرّ على كشف بعضٍ من خفاياهم. في وضح النهار فقط يمكننا معرفة حقيقة أحاسيسهم ومشاعرهم.

شعرتُ بقدومه قبل فترة طويلة من وقوفه أمام باب المتجر المُقفَل، مكث يُحدّق للحظات باللافتة المعلقة «مغلق». كان جسده متعرقاً من المشي في الشوارع المزدحمة، كما بدت خطواته ثابتة ورشيقة وكأنه لم يكن يمشي فوق الإسمنت، بل فوق تراب الأرض الحيّة.

«آآاه... يا صديقي الأمريكي، يا من تتملّكهُ الرغبة والقلق في آنٍ معاً»

أدركتُ الآن أنه يتصرف كباقي البشر، كان يقف في الخارج بكل هدوء، هل شعرَ بما كنتُ أشعر به؟

تشكّلَ فجأةً عمود من الجليد على الجانب الآخر من الباب، حينها

ظهرت كل الأصوات القديمة وبدأت الصراخ بانفعال.

«إياكِ أن تفتحي الباب، هل نسيتِ أن هذا اليوم مخصص للقاء الأم الكبرى؟ عليكِ اليوم بالذات ألا تكلمي أي شخص آخر»

أظن أنه سمِعَهم، لأنه لم يقرع الباب واستدار للوراء كي يرحل. أوه... يا عزيزي الأمريكي... انتظر، أعطني فرصة.

وقبل أن يعود أدراجهُ فتحتُ باب المتجر وفي نيتي «إلقاء نظرةً فقط».

لم ينطق بكلمة واحدة. أدركت مما بدا من فرح يشع في عينيه، أنه يرى ما هو أهم بكثير من التجاعيد الظاهرة على وجهي، تُرى؟ ما الذي تراه حقاً أيها الوسيم؟.

«قريباً جداً، سأتحلى بالشجاعة الكافية لأسألك هذا السؤال أيها الأمريكي الغامض».

استطعتُ لأول مرة قراءة أفكارهُ، فقد لمحتُ تأرجحاً متهاوداً في عقلهِ كالأعشاب البحرية المتراقصة تحت أعماق البحر والمختفية وراء الظلام الكالح، كما استطعتُ رؤية رغبة يصعب عليّ تفسيرها الآن، لكني متأكدة أنها تخصُني، أنا **تيلو** التي سعت دائماً لتحقيق رغبات الآخرين، والتي لم تكن الرغبة محوراً لحياتها.

ارتسمت علامات السرور على وجهي أيضاً، مع أن سيدات التوابل يُحضر عليهن الابتسام كثيراً.

«أيها العازب الأمريكي، لقد اجتزتَ اختبار اليوم، لم تتصرف كما يتصرف الجميع عادةً. لكن كيف لي أن أرتاح قبل الكشف عن رغبتكَ الدفينة؟»

توقعتُ أن أجد صعوبةً في فتح الباب، لكنه فُتحَ بسهولة وانسيابية مطلقة، كذراعٍ منبسطة ترحب بضيفٍ عزيز.

ـ تفضّل.

«لم أتلعثم كما كنتُ أتوقع، وتكلمت بسلاسة تامة...

ـ لا أريد إزعاجكِ.

«من ورائنا، أُغلق الباب ذاتياً. وكسرت صمت المتجر بصوتي الذي بدا كرنين

جرسٍ زجاجي».

- لا ينزعج المرء من رؤية أناس طيبين.

«لكنني شعرتُ فجأةً وكأن أحداً ما قد قذف حفنةً من التراب في عيني، فتساءلت: صارحيني أيتها التوابل، هل تدعمين موقفي حقاً؟ أم أنكِ تلعبين معي لعبةً جديدة؟»

حشرتُ رزمة **التشاناتشور** (خليط من المكونات الحارّة المجففة)في يده، وحذرته:

- هناك شيء يجب أن تحذر منه.

«تعالى صوتٌ في رأسي...»

«كلا **تيلو**، لا تفعلي ذلك، لا تتدخلي، في النهاية هو من اختارهُ بنفسه»

«لطالما اعتُبِرَ الإغواء ناعم الملمس كسريرٍ حريري، نغرق فيهِ بسهولة. لكن كلا أيها العازب الأمريكي، لا أريدكَ أن تظن فيما بعد أنني استغليتُ قلة خبرتك»

- يُعتبر **الكالوا ماريتش** (الفلفل الأسود) التابل الرئيسي في هذه الرزمة.

- ماذا تقصدين؟

«لكنه لم يُعر تحذيري أي اهتمام، بقي يتفحّص الرزمة ويشمّها، فجعلهُ الخليط الحارّ يعطس بقوة، ضحكَ وزمّ شفتيه وانهمرت بعض الدموع من عينيه.

- يستطيع الفلفل الأسود كشف كل أسراركَ الدفينة.

- آااه... تظنين أنه لدي أسرار؟

«لم يبالِ بما قُلته، التقط حفنةً من الكيس وتساقطت بعض مكونات التابل من بين أصابعه، وحشر ما بقي منه في فمه دفعةً واحدة».

- أجل لديكَ الكثير من الأسرار، وأنا أيضاً. كلٌ منا لديه أسرار.

«بدأتُ أراقبه وهو يمضغ. لم أعرف إن كان التابل سيؤدي مفعوله، خصوصاً أني كشفتُ للتو سر قوته. شعرتُ بأنني أسير نحو طريقٍ جديد

لا أرى فيه سوى أشجار العليق والضباب المظلم، استمرت بعض حبوب **التشانا** (الحمّص) الحارّة بالانزلاق من بين أصابعه، فتلوّنَ قميصهُ بالأصفر والبني، ضحكتُ لذلك...»

ـ انتظر، سأصنع لكَ مخروطاً كما كنا نفعل في الهند.

«التقطتُ بعض الجرائد الهندية القديمة من تحت الكاشير، وسحبتُ منها ورقةً واحدة، ثم فتلتُها بشكلٍ مخروطي، وملأتُها **بالتشاناتشور.**

ـ أمسكها، ضع القليل منها فقط في راحة يدك، وعندما تهدأ أعصابك، اقذف بها للأعلى والتقطها بفمك. أما الآن، استرخي وضع يدك على شفتيك.

«أجاب مصطنعاً التواضع»

ـ حاضر سيدتي.

جلس صديقي الأمريكي فوق الكاشير، وبدأ يتناول الخليط الحارّ المجفف من المخروط الورقي ببراعة وكأنه تعلّم ذلك منذ فترةٍ طويلة. كانت ساقاه تتأرجحان في الهواء، كما كان حافي القدمين، فقد خلع حذائه عند عتبة الباب (حذاء فخم مصنوع يدوياً من أنعم أنواع الجلود، لمعانهُ عميق وليس سطحي، لو كان **هارون** هنا، لأحبَّ وكره ذلك الحذاء في الوقت نفسه).

ـ خلعتُهُ تعبيراً عن الاحترام، كما يفعل الهنود عادةً.

ـ أجل، لكن ليس عندما يزورون المتاجر.

ـ لكنكِ أنتِ أيضاً حافية القدمين.

«هو الوحيد الذي لاحظ ذلك، رغم كل تلك المدة وكل أولئك الزبائن، هل من الحماقة أن أشعر بسرورٍ منبعث من باطن قدمي الحافية كشرارةٍ كهربائية؟

ـ أنا وضعي مختلف.

«ابتسم في وجهي تلك الابتسامة التي بدأتُ أتعلم كيف أقاومها»

ـ وما الذي جعلكِ تظنين أني لستُ مختلفاً؟

«لاحظتُ أن قدميه جميلتين (أما بالنسبة لوجهه، فقد فقدتُ المسافة المطلوبة التي تُبيّن ذلك)، لكن قدميه،آآاه... أصابع نحيلة خالية من الشعر، ذات تقوس منسجم وباطنٍ قوي بلون العاج، لكن ليس شديد النعومة. تخيلتُ أني أحتضنُها بيديّ، وأمسّدُها بأطراف أصابعي»

«**تيلو**، توقفي»

كان يستمتع بمضغ الخليط الحارّ بين أسنانه البيضاء القوية، لم يكن مرتبكاً، كان يتلذذ بطعم **الغاربانزو** (الحمّص بالإسبانية أو بالمكسيكية)، وأعواد **السيف الصفراء** (معكرونة رفيعة مقرمشة مصنوعة من عجينة دقيق الحمّص ومقلية بالزيت)، والفول السوداني الحارّ ذو القشرة الحمراء.

ـ ممممممم، لذيذ.

«لكنه بدأ يستنشق دفعاتٍ كبيرةٍ من الهواء، لتخفيف الطعم الحارّ الذي كان يحرق لسانه».

ـ إنه حارٌّ جداً على لسان رجلٍ أبيض، لذلك طلبتُ أن تجربَ شيئاً آخر، سأحضر لكَ كأساً من الماء.

ـ ماذا؟ لأفقد هذا المذاق الرائع؟ هل تمزحين؟

«استمر بسحب الهواء، لكنهُ توقف فجأةً»

ـ هل تظنين أنني أبيض؟

ـ لا أقصد الإهانة، لكنك تبدو كذلك بالنسبة لي.

«تبسم قليلاً، لكني أدركتُ أنه ربما أساء فهمي. لم أحاول قراءة أفكاره. وحتى لو استطعت، أريده بدلاً من ذلك أن يكشفها لي بمحض إرادته»

ـ ربما إن أخبرتني عن اسمك، قد أعرف عنك الكثير.

ـ هل من السهل معرفة الآخرين بهذه الطريقة؟

ـ لم أقل أن ذلك سهل.

«أكلَ كل الكيس، فعرضتُ عليه رزمةً أخرى، لكنه رفض، ثم فتحَ

المخـروط الورقـي وبـدأ يطويـه فـوق منضـدة الحسـاب وكأنـه يخطـط لاسـتخدامه فيـما بعـد، قطّـب حاجبيـه فجـأةً وبـدا عليـه بعـض الاسـتياء أو الحزن. سرحت عيناه في الأفق، كانت نظرتُهُ كنظرة الصقر»

«هل حرّكت أسئلتي مشاعرهُ؟ هل تسرّعتُ في طرحها؟»

وقفَ على قدميه ونفض سرواله بخفة، وكأنه قد تأخر عن موعد مهم.

ـ أشكركِ على الوجبة الخفيفة، من الأفضل أن أذهب، كم ثمنها؟

ـ إنها هدية.

«تمنيتُ ألا يفضح صوتي العذاب مشاعري»

ـ لا، لا، لماذا تفعلين ذلك دائماً؟

«تحجـرت الكلـمات كالجـدار بيننـا، وضـع عشريـن دولاراً عـلى الكاشـير ومشى باتجاه الباب».

تيلو، كان عليكَ الانتظار قليلاً.لقد فقدته الآن.

«أصبحت يدهُ فوق مقبض الباب، شعرتُ بها وكأنها تعصر قلبي».

«أيها الفلفل الأسود، أين أنت عندما أحتاجك؟»

«فتـلَ المقبـض، ففُتِحَ البـاب بنعومة فائقة، دون أن يُصدر أي صرير، توسـلت في نفسي«أرجـوك لا ترحـل، لا داعـي لأن تبـوح بـأسرارك، أريـدكَ فقـط أن تبقـى معـي لفـترة» لكننـي لم أسـتطع الإفصاح عن رغبـاتي المكبوتة، أنا **تيلـو** التي كانت وما زالت تُعطي ولا تأخذ، والمعروفة لدى الجميع بسيدة الرغبات.

بقـي واقفـاً عنـد عتبـة البـاب لفـترة، لم أعـرف بمـاذا كان يفكـر، حبسـتُ أنفـاسي. كـدتُ أختنـق. شـعرتُ وكأن مخالبـاً حـادّة تضغـطُ عـلى صـدري وبحركـة واحـدة سريعـة، فتـحَ بـاب المتجـر بعنـف، فأصـدر الزجـاج صوتـاً كقصـف الرعـد، شـعرتُ معهـا بالقشـعريرة، أيهـا العـازب الأمريـكي، مـا الـذي جعلكَ تغضب مني؟»

ـ هل تريدين أن تعرفي اسمي؟ لدي العديد من الأسماء.

«تكلـمَ بصـوتٍ أجـش، مجـروح كصخـرةٍ فوقهـا صخـرةٌ أخـرى، كـما أنـه لم

ينظـر في وجهـي. رغـم ذلـك، تدفـق الشـعور بالارتيـاح إلى قلبـي كالنهـر. وعندمـا أخـذتُ نَفَسَـاً عميقـاً، دخـل الهـواء كالعسـل الحلـو إلى حنجـرتي. فحدثتُ نفسي، لقد عاد، لقد عاد»

ـ وأنـا أيضـاً لـدي العديـد مـن الأسـماء، لكـن واحـدٌ منهـا فقـط، هـو اسـمي الحقيقي.

ـ اسمكِ الحقيقي؟

«بدأ يعلكُ شفتيه لوهلة، ثم مسح شعرهُ الأسود اللامع براحة يده»

ـ في الحقيقة، لا أعرف اسمي بالضبط، ربما ستعرفينهُ لوحدكِ لاحقاً.

وهكذا بدأ قصتهُ:

لم أتفاجـأ عندمـا ظننـتِ أننـي أبيـض، حتـى أنـا كنـت أظـن ذلـك منـذ زمـنٍ بعيـد، لكننـي لم أفكـر بذلـك مطلقـاً. وكبقيـة الأطفـال تقبّلـتُ نفـسي بـكلّ بـراءة، كان والـدي رجـلاً هادئـاً وضخـماً، بطـيء الحركـة، كنـتُ كلـما تقرّبـتُ إليـه، تصبـح حـركاتي وضربـات قلبـي بطيئـةً مثلـهُ تمامـاً، يُغطينـي الهـدوء كالبطانيـة البـاردة. تسـاءلتُ فيـما بعـد إن كان ذلـك هـو مـا جعـل أمـي توافـق عـلى الـزواج منـه، عـلى الأقـل، هـذا مـا كنـتُ أرجـوه. لكـم أتذكّـر يديـه الحنونتـين الضخمتـين والقويتـين، كانـت مفاصـل أصابعـه مسـلوخة مـن العمـل الشـاق في معمـل التكريـر الموجـود في **ريتشـموند، يسـتحيل تنظيـف الشـحوم العالقـة تحـت أظافـره رغـم الفـرك المسـتمر بالفرشـاة** التـي اشـترتها لـه والدتي كان يخجـل مـن منظرهـم عـلى مـا أظـن مقارنـةً بأظافرهـا المُقلّمـة والنظيفـة، والتـي تحـرص عـلى لمعانهـا رغـم كل واجباتهـا في المنـزل والحديقـة، وعندمـا يحـضر الضيـوف إلى منزلنـا، وبالأخـص أولئـك الذيـن تقابلهـم والـدتي عـادةً في الكنيسـة، تَـراهُ يحـشر يديـه في جيوبـه لتختفـي كالجـذور، منتظـراً رحيلهـم بفـارغ الصـبر. أمـا أنـا، لم أجـد في يديـه سـوى الرقـة والحنـان. كان يربـت بيـده عـلى رأسي عندمـا كنـتُ أخـبره عـن مغامـراتي في المدرسـة أو عـن لعبـة جديـدة ابتكرتُهـا مؤخـراً، كانـت لمسـاتهُ تريـح أعصـابي بشـكل لا يُصـدق، أسـتمتعُ

بدفئها. وعندما أشعر بالألم أو الحزن أو الأرق لسبب ما، كان يجلس قرب سريري ويفركُ ظهري وعظام أكتافي بأصابعه الصلبة إلى أن يغلبني النعاس. كنتُ أعشق الرائحة التي تُخلفها يداه على جسدي وشعري، رائحة الحنان والصبر والحكمة، كرائحة مستنقع متوارٍ وسط غابة سحرية.

«كانت نبرة صوت صديقي الأمريكي كالعسل الشافي. أعادت إليّ كلماته الحلوة المريرة الكثير من الذكريات المفقودة، وفتحت في أعماقي غرفاً ظننتُ أني أقفلتُها للأبد»

أظن أنه كان مَثَلي الأعلى، كما تعلمين هكذا تكون نظرة الأولاد التقليدية نحو الآباء عادةً.

«كلا أيها العازب الأمريكي، من قال لكَ أنني أعلم، جعلني حديثك أتذكّر بعض اللقطات من طفولتي، عندما قام والداي بتوبيخي لذنبٍ اقترفتُهُ، ربما عندما ألقيتُ طبق الطعام على الأرض لأن طعمهُ لم يعجبني. أو بسبب شجار عنيف بيني وبين شقيقتي، عندما خدشتُ وجهها وشددتُ شعرها. تداعت الصور في ذهني. رأيتُ أبي وهو يشير إليّ بأصابع الاتهام، ووالدتي توافقه الرأي وكأنني ابنةٌ ميؤوسٌ منها. كم شعرتُ بالغضب من انتقادهم لسلوكي، أنا **تيلو**، المسؤولة عن الثراء والبذخ الذي يعيشون فيه وعن الاحترام الذي يحصلون عليه من الجميع أينما ذهبا. عندما كنتُ أرمقهما بنظرة مليئة بالاحتقار كانا يخفضان رأسيهما وينسحبان خائفين. لكن اليوم، عندما استمعتُ لقصة صديقي الأمريكي، تغيرت نظرتي اتجاههما، تخيلتُ معالم الخوف والحيرة واضحة على أكتافهم المنحنية. وبدت عيونهم المنخفضة مستعدة لتقديم بعض الحب والحنان. لكنهما لا يعرفان الطريقة المناسبة. أدركتُ حينها، أن تلك العيون لم تكن سوى عيون حزينة لأطفال ضائعين. جعلني ذلك أرغب بالبكاء. ربما يوماً ما سأخبرك بكل ذلك أيها الصديق الأمريكي، أنا **تيلو**، التي اعتادت أن تُنصت بصبر، لتحلّ مشاكل جميع البشر. لكن بما أنه يقصّ قصتهُ، عليَّ أن أزيح

مشاكلي وهمومي جانباً، لأعطي كل انتباهي لكلماته التي تُطهر الجو بخشونتها المُفاجئة»

استأنف حديثه...

أما والدتي، فقد كانت مختلفة عنه تماماً.

«تجمدت أوصالي كالحجر، وحبستُ أنفاسي، لأفسح له المجال كي يكمل. بدا صوته الآن أقل خشونةً، وأصبحت عباراته كاملة ورسمية، وكأنه يحكي حكايةً حدثت منذ زمنٍ طويل، أو ربما كانت هذه طريقتهُ الوحيدة في السرد»

أكثر ما أتذكّرهُ عنها، هو أنها كانت تقوم بالتنظيف طوال النهار. لطالما اعتبرت ذلك إهانة شخصية، حيث كانت تجلس لساعات قرب حوض الغسيل، لتزيل البقع عن ثياب والدي الملطخة بالشحم والزيوت. وعندما يستحم والدي في كل ليلة، تدخل غاضبةً إلى الحمام لتفرك له ظهرهُ حتى يصبح أحمرا كاللهب.

كنا نعيش في بيتٍ صغير يقع أسفل حيٍّ بسيط، يسكنهُ عمال الميناء والمصانع الذين يخرجون بقمصانهم الداخلية إلى الشرفات عند المساء، ليستمتعوا بالنظر إلى المروج الخضراء، يحملون بأيديهم زجاجات البيرة الباردة. لكن في بيتنا، يختلف الوضع تماماً، فتلاحظين اللمعان الواضح على كل الأغراض، المشمّع الأصفر المفروش فوق أرضية المطبخ، التلفاز المركون بعناية عند الزاوية، الستائر النظيفة المُعطرة برائحة المعطر الذي كانت والدتي تضيفهُ أثناء الغسيل، أواني فضية متماثلة مصفوفة بعناية على الطاولة، لطالما كانت تراقبني لتتأكد إن كنتُ أستعملها بشكلٍ صحيح.

لم تكن تحب أولاد الجيران، كانت تكره ضحكاتهم العالية وشتائمهم البذيئة، وقمصانهم ذات الأكمام القصيرة جداً، التي كانوا يمسحون بها أنوفهم دون خجل. مع ذلك، كانت والدتي طيبة، كانت تدرك أن ابنها بحاجة للأصدقاء، لطالما سمحت لي باللعب معهم واستقبالهم في المنزل أحياناً، فكانت تقدّم لهم العصير والبسكويت الذي كانوا يتناولونه بتوتر

أثناء جلوسهم فوق الكراسي والأثاث المُلمّع. وبعد أن يرحلوا، تقوم بتنظيف وجهي ويدي وقدمي وكل جسدي، مراراً وتكراراً، لتتأكد من إزالة كل ما يتعلق بهم.

بعد الانتهاء من كتابة وظائفي تجلس معي على مائدة العشاء وتنظر في وجهي نظرةً لا تخلُ من الحب والقلق، ما يجعلني أشعر بالحيرة اتجاهها. في كل ليلة، كانت تقوم ببعض الطقوس قبل النوم، فعندما أرتدي ثياب النوم، تمسح شعري بيدها المبللة بالماء وتُسرّحهُ للوراء بعناية لأقابل أحلامي بمظهرٍ لائق ثم تطبع قبلةً على جبيني قبل أن تخرج من الغرفة. قد يشعر بعض الأولاد بالضجر من سلوكيات كتلك، لكني كنتُ أحب ملمس الفرشاة على شعري وصوت دندنتها وتنفُسها البطيء. كانت تتمنى أحياناً لو كان شعري الأسود الفاحم كشعرِ والدي، فكانت خشونتهُ تُزعجها، خصوصاً عندما ينسدل فوق جبيني مهما حاولت سحبهُ للخلف. في الحقيقة، رغم عشقي لوالدي، كان شعرهُ الأحمر ناعماً وجافاً في الوقت ذاته مع بقعٍ صغيرة من الصلع عند الجوانب. كنتُ سعيداً لأنني ورثتُ شعري عن والدتي. الفرق الوحيد هو أن شعري قويم كالأوتار، بينما شعرُها ملفوف حول رأسها بأناقة ملفتة للنظر.

«بدأ الهواء في المتجر يرسم أشكالاً متعددة، رغبات قديمة، امرأة جسدها متشنج بالكامل، تحاول الخروج من الواقع، صبي صغير ينظر إلى أمهِ بعينين تحويان العالم بأسره، تساءلت، هل ما زال صديقي الأمريكي مستمراً في الحديث عن ماضيه؟ أم أنني أعيش حُلمَهُ لوحدي في الخفاء؟ قال شبح الصبي الصغير العائم في الهواء، لا تعتبري كلامي مجرد ثرثرة ولد مراهق، لطالما اعتبرتُ والدتي واحدة من أجمل النساء على وجه الأرض لأنها كانت كذلك فعلاً».

«تشكّلت صور للنساء اللواتي عرفهن في حياته أيضاً «نساء تنشرنَ الغسيل فوق حبال ممدودة في الفناء الخلفي بجانب ثيابهِ. تحملن

المشاجب بين أسنانهنّ. بطونهنّ منتفخة، سواعدهنّ مترهلة. عداك عن الشحوم المتراكمة تحت الرقبة والأثداء المتراقصة والعرق الذي يجعل قمصانهن الداخلية تلتصق بظهورهن البدينة. كما ظهرت صور لأساتذته في المدرسة، معلمون ومعلمات يشرحون الدروس بأفواهٍ رفيعةٍ وعيونٍ مُحمرّة من شدة الإرهاق، يحملون المؤشرات والطباشير وممسحة السبورة بأصابع متقوسة كالأموات».

«أما هي (والدتُهُ) فقد كانت مختلفة بشكلٍ ملحوظ، ثياب نومها ناعمة الملمس، طريقة استيقاظها كل صباح، عمودها الفقري الممشوق والمثير، رائحة العطر الذي كانت ترشهُ بإفراط على رقبتها، صحيح أن ثيابها لم تكن كثيرة، لكنها كانت من أفخم الماركات وأحذيتها أنيقة ذات كعوب عالية، تجعل فساتينها تتأرجح برشاقة حول ساقيها عندما تمشي في أرجاء المنزل، لتبدو كنجمات السينما، كما أنها لم تكن تحمل اسماً تقليدياً كجاراتها، **سو، مولي، إيديث**، بل كان اسمها **سيليستينا**، تنطقهُ بغنجٍ ولا تسمح لأيٍّ كان باختصاره وتغسلُ شعرها يومياً، لتبدو كالقديسات في اللوحات الدينية التي تقدمها الراهبات لابنها قبل خروجه من الكنيسة في يوم الأحد. كما كانت تشبكهُ للوراء بمشابك فضية وذهبية وأحياناً بحبّات اللؤلؤ التي تحتفظ بها داخل صندوق خشبي صغير منحوت كانت تسمحُ له أحياناً باللعب بها، وتدعهُ يختار لها زوجاً لترتديه».

استأنف صديقي الأمريكي:

كانت شديدة الاعتناء بها، لدرجةٍ جعلتني أعتقد أنها حقيقية، عرفتُ بعد سنوات أنها كانت مزيفة.

«خرجت الكلمات من فمه بصعوبة»

كما أن شعرها لم يكن ملفوفاً في الأصل، ذات يوم} وجدتُ عبوةً لتجعيد الشعر ملقاةً في المرآب خلف كومةٍ من المجلات القديمة، لم أعد أكلمُها من شدة الغضب.

«ارتجف صوتهُ مجدداً، ثم ضحك بمرارة»

لم يكن ذلك مهماً، لأنه في ذلك الوقت، لم نعد نتواصل كثيراً على أية حال.

«حيرتني ردة فعله العنيفة»

ـ تمهّل، لماذا أزعجَكَ ذلك كثيراً؟ حسب علمي، تجعيد الشعر شائع في أمريكا، هكذا تفعل كل النساء عادةً.

ـ لأنني اكتشفتُ حينها لماذا قامت بتجعيده، كما عرفتُ لماذا كانت تفعل كل ما يثير إعجابي. كانت تكذب عليَّ طوال الوقت، في مراهقتي كنتُ أعتبر أبي كالصخرة العملاقة، أما أمي، فقد كنتُ أتصورها كنهرٍ يصب فوق تلك الصخرة من مكانٍ شاهق، أو ربما تخيلتُهما هكذا بعد سن المراهقة، لم أعد أذكر بالضبط. هدوؤه القوي، وجمالُها القلق، أما أنا لم أكن سوى صوت ارتطام الماء بذلك الحجر والذي لا يشبه صوت أي شيء، ولا علاقة له بأي شيء، لذلك لم أسعَى لمعرفة أصولي، أو من أين أتيت.

كان والدي يتيماً، فقد تربّى بين أقرباء لا يرغبون بوجوده بينهم، هذا ما جعلهُ يثق بوالدتي عندما أخبرتهُ أن أفراد عائلتها ماتوا منذ زمنٍ بعيد، حينها كانت تعملُ نادلة في مطعم بسيط على جانب الطريق، كان يقصده أبي لتناول طعام الفطور. وبما أن القرابة لم تكن تعني له شيء سوى الحقد والاشمئزاز، جعلهُ ذلك يتحلّى بالشجاعة الكافية ليطلب يد تلك الشابة الفاتنة ذات الشعر الناعم والعينين الجريئتين كعيون الأحصنة البرية. وبعد فترة من زواجها منه، بدأت هي نفسُها تؤمن بكل أكاذيبها، أو ربما كانت تؤمن بها قبل ذلك بكثير. حين تخلّت عن عائلتها وهربت من المنزل دون ترك أية رسالة «لا تبحثوا عني» وعندما قصّت شعرها وغيرت تسريحتهُ وهذبت حاجبيها بملقط الشعر ورسمت وشماً حول شفتيها واختارت لنفسها اسماً جديداً لطالما رغبت به، إن ذلك أشبه بالموت والانبعاث من جديد.

«أصبح المتجر مظلماً تماماً الآن. لم يظهر القمر اليوم، كما أن أحدهم كسر مصباح الشارع في الخارج. فحال ذلك من وصول ولو بصيص من

الضوء إلى الداخل. وبينما كنتُ أنصتُ بتركيز لكلمات صديقي الأمريكي، لاحظتُ كيف يمكن للظلام أن يُغير نبرة الصوت فتصبح عميقة متحررة من قيود الجسد لتسبح في الأفق بحرّية».

«عزيزي الأمريكي، كيف تريدني أن أنسج كلماتك العائمة؟ وما التابل المناسب لها؟» .

في أحد الأيام، عندما كنتُ في سن العاشرة، أو ربما أصغر بقليل كان أبي في العمل. يومها، حضر رجلٌ إلى منزلنا كان يرتدي معطفاً قديماً ممزقاً وسروال جينز تفوح منه رائحة الحيوانات، شعرهُ طويلاً وأسوداً كالفحم منسدل حتى كتفيه. بدا مألوفاً بشكل غامض. حينما فتحت والدتي الباب ورأتهُ واقفاً أمامها أصبح وجهها رمادياً كممحاة قديمة. رَمَقَتهُ بنظرة قاسية لا تقل قساوة عن العتبة الإسمنتية التي يقف عليها بحذائه الملطخ بالطين والروث. أرادت غلق الباب في وجهه، لكنه صاحَ «**إيفي، إيفي**»، حدّقتُ في عينيها، لأدرك أنه كان يناديها باسمها الحقيقي.

«رفع صديقي الأمريكي طبقة صوته. بدت نبرة التساؤل أكثر وضوحاً هذه المرة. استولت ذكريات الطفولة على عقله من جديد».

ـ أمَرَتني أن أدخل إحدى الغرف، لكنني استرقتُ السمع. بدا صوتُها كاحتكاك أسنان شوكة بلوح من القصدير.

«هل جئتَ لتُدمِّرَ حياتي؟!».

أمي التي كانت دائماً تلفظ الكلمات الفصحى بمثالية، وتغسلُ لساني بالصابون حينما أختصرُ بعض الحروف.

كان يصرخُ في وجهها بصوت مدوٍ «عليك} أن تخجلي من نفسك **إيفي**، تهجرين عشيرتكِ بهذه الطريقة؟ انظري لنفسك تُقلدين الأمريكان البيض وتتصرفين كالنبلاء والأرستقراطيين وطبعاً لم تخبري طفلك الصغير عن أصوله».

كانت تهمسُ بتوتر وتطلب منهُ خفض صوتهُ «اشش، اصمت أيها النذل القذر» بعد ذلك، لم أعد أسمع سوى كلمات متباعدة «إنه يحتضر،

لا علاقة لي بالأمر، أنا لا أدين له بشيء»، ثم تكلم الاثنان بلغة غريبة، لم أفهمها. رفع صوته أخيراً «تباً لكِ **إيفي**، وعدتُهُ أنني سأبحث عنكِ لأخبركِ بذلك، انتهت مهمتي الآن، افعلي ما يحلو لكِ».

أغلق باب المنزل بعنف، وخيّم الهدوء لفترة. وبعد قليل، سمعتُها تتحرك ببطء وحذر. كانت ترتجف وهي تُحضّرُ طعام العشاء، تتعثرُ بكعبها العالي كامرأة مُسنّة. دخلتُ المطبخ، فطلبت مني تقشير البطاطا. كنتُ أراقب انفعالاتها التي فشلت في إخفائها، حاولتُ قراءة تعابيرها وتمنيتُ أن تتحدث معي عن الرجل الغامض الذي زارنا منذ قليل، لكنها لم تفعل، وقبل أن يصل أبي إلى البيت هرعت لتغسلَ وجهها وتضع أحمر الشفاه. ورسمت ابتسامة مزيفة.

ولأول مرة اكتشفتُ أن هناك زاوية سرّية مخفية داخل قلبها، لم تكشف عنها لأحد، حتى أنا، ابنها الذي أحبّتهُ أكثر من أي أحد آخر.

في الصباح الباكر، عندما ذهب أبي إلى العمل، دخلت غرفة نومها للحظات، ثم خرجت منها مرتديةً ثوبها المفضل، الأزرق المُزين بحبّات من اللؤلؤ وسترة أنيقة تُلائمه، إضافةً لعقد من اللؤلؤ، كانت تحتفظ به في علبةٍ مخمليةٍ فخمة، تخفيهِ بعيداً عني كي لا ألمسه «هيا تعال معي، سنذهب في نزهة، ماما، ماذا بشأن المدرسة؟». أجابتني وهي التي لم تكن تسمح لي بالتغيّب عن حصة مدرسية واحدة «لا يهم، دعنا نذهب». بقيت صامتة طوال الطريق، والغريب أنها لم توبخني عندما لعبتُ بأزرار المذياع ورفعتُ صوت الموسيقى الصاخبة. سألتُها مرتين «أين سنذهب؟» لكنها كانت تسرح مُقطّبةً حاجبيها وكأنها تُنصتُ لصوتٍ ما في رأسها. قادت السيارة لبضع ساعات، وعندما انعطفت نحو شارعٍ ضيقٍ، يحوي بيوتاً عتيقة طلاؤها مُقشّر وسيارات رخيصة مركونة في الفناء وشتلاتٍ من أعشاب الهندباء وقمامة فائضة عن الحاويات، خرج صوتها بما يشبه الاختناق وكأن شيئاً ما قد علق في حنجرتها، ربما كانت الصنارة التي سَحَبَتها كل تلك المسافة، لتصل إلى ذلك المكان الموحش.

رَكَنَت السيارة في أحد المواقف وخرجت منها برزانة، ثم أمسكت يدي بقبضة يدها القوية، فشعرتُ بألم في معصمي لم يزل لأيام. توجهنا إلى منزل صغير تفوح منه رائحة عفنة كثيابٍ مبتلة منسية في الغسالة لفترة طويلة. دخلت أمي مباشرةً إلى المطبخ وكأنها تعرف المكان من قبل وقد وجدنا فيه العديد من الرجال والنساء. كان بعضهم يشرب من زجاجات بنيّة اللون. عندما رأيتُ وجوههم الضخمة المُسطحة وشعورهم السوداء المُنسدلة فوق جباههم، شعرتُ أنني أنظر إليهم من خلال مرآة مشوهة. تجاوَزَتهم أمي بسرعة متجاهلةً وجودهم. بدت خطواتها فوق المُشمّع المهترئ واثقة وجريئة. لكنها عندما كانت تُمسك يدي لفت انتباهي رطوبة أصابعها المتعرقة وأدركتُ حينها أنها شعرت بنظرات الجميع إلى حبات اللؤلؤ اللامعة على فستانها، وسمِعَت همساتهم الماكرة التي بدت كرياحٍ باردة تقضي على الفاكهة المُبكرة.

«توقف صديقي الأمريكي عن الكلام وكأنه وصل إلى طريقٍ مسدود ولا يعرف ما العمل. قررتُ التعرف على شكله من جديد. بدأتُ أتفحص شعرهُ ولون بشرَته وعظام وجهه. حاولتُ أن أجد فيه ملامح الأشخاص الذين وَصَفَهم لي. لكني لم أجد سوى الشاب الأمريكي الأبيض ذاته، الذي لا تنطبق عليه الصفات التي قالها».

استأنف كلامه...

دخلنا أخيراً إلى غرفة ضيقة مكتظة، إنارتُها ضعيفة. هناك فوق السرير عند الزاوية رأيتُ جسداً نحيلاً مُغطى ببطانية. وعندما اعتادت عيناي على العتمة، تبيَّنَ لي أنه رجل. من وجهة نظري، بدا عجوزاً بما يتعدى الوصف. كان أحدهم يخشخش فوق رأسه ويصلي بكلماتٍ لم أفهمها لكني شعرتُ بها تحوم حولنا كالأفعى، وتربطنا جميعاً. عندما رؤوا والدتي، توقف كل شيء. بدا الصمت كضربة عنيفة على الأذن. ثم أسند أحدهم الرجل العجوز بوسادةٍ وأمسك بهِ بحذر كي لا يسقط.

رفع الرجل العجوز رأسه بصعوبة لدرجة أني سمعتُ طقطقة عضلات رقبته. لمعت عيناهُ وسط الغرفة المظلمة كأحجار **الميكا** على جدران الكهوف. عندما رأى والدتي، ناداها مندهشاً «**إيفي**؟» خرج اسمها من فمه مباشرةً وبكل وضوح، لم يكن صوتهُ يدل على أنه عجوز. ثم سألها «هذا ابنك **إيفي**؟». شعرتُ وكأنه يرغب بمعانقتي، أردتُ الاقتراب منه، لكني لطالما خجلتُ من التحدث مع الغرباء. كانت والدتي تعصر أكتافي بقوة كعصفورٍ خائف.

«أخذ صديقي الأمريكي نَفَساً عميقاً، وكأنه يشق طريقه عبر نفقٍ خالٍ من الهواء. ثم هز رأسه نافياً»

لا، لا أصدق أني أخبرتك بكل هذا الهراء.

«غطى وجههُ بيديه خجلاً»

أوه... ذلك الفلفل ذو تأثير فعّال دون شك.

«يا عزيزي الأمريكي هذا رأيك، لكن ليس الفلفل هو المسؤول عن ذلك فقط، بل لأنك أنت أيضاً تريد فتح قلبك لي، وهذا ما كنتُ أتمناه حقيقةً»

«خاطبتُهُ بصوتٍ مرتفع»

ـ لا، من قال لكَ إنه هراء؟

«لكن على ما يبدو، أظن أنني سأنتظر لفترة طويلة، ربما للأبد، كي أعرف ماذا حدث داخل تلك الغرفة المظلمة، شعرتُ بالقليل من الحزنٍ فقط لأنه توقف عن سرد قصته. فقد ملأت كلماتُهُ المتجر بما يكفي لتنفجر في وجهي كفيضانٍ قد يحتاج مني لبعض الوقت كي أسبح فيه وأكشف عن الحدود التي محاها بيننا. في تلك الأثناء أردتُ إخباره بأنني سأحتفظ بتلك اللحظة من حياتهِ كجوهرةٍ صغيرةٍ في قلبي لكني شعرتُ بالخجل} فجأةً، أنا **تيلو**، الشجاعة، الجريئة والمتهورة. كم كانت الأم الكبرى لتضحك من ذلك»

كل ما استطعتُ قوله:

ـ أنا جاهزة للاستماع في أي وقتٍ تريد.

«ضحك ضحكتهُ الساخرة المعهودة، ثم مسح بعض الرفوف بذراعهِ»

ـ كل هذه التوابل مع استشارة مجانية أيضاً؟ يا لها من صفقة.

«نظر في عينيّ مباشرةً، فلمحتُ في عينيهِ بريقاً يشي بسروره.

«يوماً ما، ستخبرني ما سوف تراه، عندما أنزع عني هذا الجسد الهرم، هل ستكتشف بعض الحقائق التي لا أعرفُها عن نفسي؟ أم ستجد فقط ما كان يدور في خيالك؟».

«سألني قبل أن يرحل»

هل ما زلتِ ترغبين بمعرفة اسمي؟

«ضحكتُ لسؤالهِ، وحدثت نفسي، أيها العازب الأمريكي ألا تستطيع سماع قلبي وهو يصرخ نعم، نعم، نعم؟ لكني بدلاً من ذلك، أجبتُهُ كما علمتنا الأم الكبرى قبل أن نغادر الجزيرة»

ـ فقط إن كنتَ ترغب بذلك، لأن للاسم الحقيقي قوى خارقة، وعندما تبوح به تنتقل تلك القوى إلى يدي المُستمع.

«لماذا أخبرتُهُ بذلك؟ لن يفهم قصدي على كل الأحوال»

ـ تريدين معرفة اسمي الحقيقي حصراً؟ حسناً، قد أستطيع الآن أن أخبركِ به}.

ـ كيف؟

«خطر في ذهني، بالتأكيد لن يستطيع»

ـ لدي العديد من الأسماء، لكني اخترتُ اسماً واحداً فقط.

«أنت تدهشني ثانيةً أيها الأمريكي الذكي، أنا التي اعتقدتُ أنكَ مجرد مواطن أجنبي صعب المراس»

«تردد للحظة...»

اسمي **ريفن**، (الغراب).

«نطقهُ وهو يرسم شكلاً ما بإصبع قدمه، لم ينظر في عينيّ، ربما شعر

ببعض الإحراج من اسمه الغير أمريكي»

ـ اسمٌ جميل، يناسبكَ تماماً.

«بـدأتُ أسـتمتع بنغـم ذلـك الاسـم المميـز، وأتـذوق طعمـهُ المثـير عـلى لسـاني، بـدأتُ أشـمّ رائحـة السـماء الدافئـة وهـي تبتعـد وتدنـو ورائحـة الغابـات المظلمـة في الليـل. وتخيلـتُ عيونـاً لامعـة وريشـاً أسـوداً لذيـل طائـر، ينبثق من الفحم والدخان».

ـ هل تظنين ذلك حقاً؟

«بدا مسروراً للحظة، لكنه تكدر فجأةً، لأنه كشف الكثير عن نفسه اليوم».

هل تريدين معرفة كيف حصلتُ عليه؟ آااه... يوماً ما قد أخبركِ بذلك.

«أومـأتُ لـه... أنـا **تيلـو** التـي لم تعـد متلهفـة كالسـابق لسـماع قصصـه، لأننـي بـدأتُ أثـق بالقصـص الكثـيرة الممتـدة بيننـا كخيـوط الذهـب، قصصنـا ـ نحن الاثنان ـ التي لن تضيع أبداً حتى لو بقيت مخفية».

ـ **ريفـن**؟ عليـك أن تعـرف اسـمي أنـا الآن، هـل سـتصدقني إن قلـتُ إنـكَ الوحيد في أمريكا، أو بالأحرى في العالم أجمع، الذي سيعرف اسمي الحقيقي؟

«فجـأةً، اهتـزت الأرض مـن تحتـي وشـعرتُ بأننـي أيقظـتُ بركانـاً مـن سباته. بدأ بقذف الحمم البركانية، فحولته الرياح إلى رماد».

ـ نعم سأصدقكِ.

«خلـع صديقـي الأمريـكي ثـوب العزلـة ومدّ يـدهُ الذهبيـة اللامعة فهمسـتُ اسمي فوقها برويّة، بعد ذلك، تناهى لسمعي نحيب امرأة قادمٌ من بعيد».

كالوا جيرا (الكمّون الأسود أو حبّة البركة)

عندما غادر **ريفن** المتجر، شعرتُ بفراغٍ كبير، جعلني السكون أسمع صوت رنين مدوٍ من بعيد، ربما كان صوتَ مصابيح الفلوريسنت القديمة. تعجبتُ من طريقة تفكيري، بقيتُ أتخيل ذلك لبعض الوقت واستحضر عقلي العديد من الأفكار التي لم تخطر ببالي من قبل. هل يترك الزبائن عادةً أفكارهم في المتجر قبل أن يغادروا؟ أم أن ذكرياتهُ قد أصبحت جزءاً من أفكاري؟

تجولتُ بين الأقسام، وبدأتُ بترتيب بعض الزوايا لأشغل نفسي. أردتُ لمسَ كل ما لَمَسَهُ صديقي الأمريكي. كنتُ متشوقة لاستنشاق رائحة بشرتهِ النظيفة وتحسس حرارة أطراف أصابعه. لذلك، اقتربتُ من الجريدة التي تركها مطوية فوق الكاشير، التقطتُها وأغمضتُ عينيّ منتظرةً، علّني أستحضر صوراً تُعلمني عن مكان وجوده الآن، ربما يقود سيارته أسفل الطريق السريع بمحاذاة المحيط البعيد، مُشرعاً الشبابيك يستمع لصوت الطبول على المذياع، تفوح من شعره رائحة التوابل. بماذا يُفكر يا ترى؟ لم أتلقى إجابة، فوجدتُ أنه من الأفضل أن أفتح عينيّ وأضع الورقة المطوية بعناية في قاع الصندوق المخصص للأوراق القديمة.

هنا، لفت انتباهي العنوان الرئيسي «جماعة **دوت بوسترز** تدعوا

للتحرر (حزب معادي للهنود تأسس في نيو جيرسي) وتحتهُ مباشرةً صورة شابين مراهقين أبيضين تبرز أسنانهم البيضاء وهما يبتسمان لنصرٍ حققاه. لم تستطع الصورة المهترئة إخفاء ما بدا عليهما من غرورٍ واضح. جعلتني المخاوف المترسبة في أعماقي، أتساءل «**تيلو**، اكتشفي سبب سرور هذين الشابين، هيا يجب أن تعرفي السبب. لكن بدلاً من ذلك، طويتُ ورقة الجريدة بأصابع مرتجفة قليلاً. في الحقيقة، لم أقرأ جريدة في حياتي، ولا حتى الصحف الهندية التي يرسلونها إلى المتجر كل أسبوع، قد تتساءلون «ألا ترغبين بذلك؟».

بالطبع أنا **تيلو** التي لطالما حثها الفضول على تجاوز الحدود التي اقتضتها الحكمة. عندما أمعن النظر في بأوراق الصحف أحياناً، تنبعث رائحة كالحديد المنصهر من الحروف الصغيرة السوداء المطبوعة فأتراجع للوراء، وأتنبّه: ألم أخرق القوانين بما فيه الكفاية؟

وأتذكّر ما أخبرتنا به الأم الكبرى:

«لا علاقة لسيدات التوابل بأحداث العالم الخارجي، فعندما رأسكِ بأمور لا تعنيكِ، تضيع المعرفة الحقيقية كضياع ذرات الذهب في الرمال، ركّزي على علاج مشاكل الزبائن فقط»

لكن أيتها الأم الكبرى، في حال عرفتُ أحداث العالم الخارجي، ألن يساعد ذلك على معرفة العلاج المناسب لمشكلة الزبون؟

تنهدتُ قليلاً، وأجابتني بلطف:

«اسمعي يا ابنتي، أحداث هذا العالم أكبر بكثير مما تظنين استمعي لقلبكِ لمعرفة العلاج، وأنصتي له جيداً حتى يلفظ اسم التابل المناسب بوضوح» .

«حاضر أيتها الأم، لكن أود سؤالكِ اليوم، هل شعرتِ من قبل بأن أفكاركِ تتلاطم من حولكِ كأمواج المحيط المالحة؟ وأن صوت من تحبين يناديكِ بشوقٍ كطائر النورس، لتصبح كل الأصوات الأخرى خافتة وبعيدة

كصوت غواصة في أعماق البحر؟ أخبريني ما العمل؟ أشعر وكأن كل قناعاتي في الحياة تتهدم كالمنحدرات وسط عاصفةٍ بحرية وأن رملاً أبيضاً يلسع عينيّ بعنف».

شعرتُ بصداعٍ في رأسي، فاتكأتُ على الكاشير حيث ترك **ريفن** ورقة الجريدة، اخترقتْ رأسي رؤية غير متوقعة، كمن صوّب سهمهُ مباشرةً في عينيّ، رأيتُ شاباً مستلقياً فوق سرير وأنابيب طبية ممتدة من تحت مرفقيه، لتصل إلى فتحتي أنفه. بدا بياض ضماده منسجماً مع بياض وسادة المستشفى، لكن بَشَرَته سمراء كبشرتي تماماً، البشرة الهندية التقليدية، كانت الغرفة هادئة لا يقطع سكينتها، سوى صوت جهاز مراقبة تخطيط القلب. لكن عقله لم يتوقف عن الحركة ولا للحظة واحدة.

تيلو، وماذا بعد؟.

تسللتُ إلى ذهنه، كمن يشق طريقه وسط عاصفة رعدية من الألم وعرفتُ أنني سأبدأ قصةً كنت قد قرأتُ نهايتها في العناوين الرئيسية لإحدى الصحف.

كان يحلم وقت المساء، في حين حجبت الأشجار ما تبقى من شمس الغروب، خيّم الظلام فوق الحديقة العامة فبدت مهجورة تقريباً، باستثناء بعض الموظفين المتجمعين عند موقف الباص، لا يفكرون سوى بالعودة إلى منازلهم وتناول طعام العشاء. عندما أنزل خيمة مَطعمهِ المُتنقّل، ظهرت لافتة صفراء مضيئة مكتوب عليها بأحرف مجعدة «**موهان للأطباق الهندية**». تأخر قليلاً، لكنه كان يوماً موفقاً على كل حال، فقد استطاع بيع معظم ما طبَخَتهُ **فينا**، كما أن الجميع أثنى على أطباقهُ اللذيذة، ووعدوا باصطحاب أصدقائهم إلى مطعمه في المرة القادمة، فكر أنه حان الوقت لتوظيف مساعد له، فربما يفتتح عربةً جديدة قريباً، على الجانب الآخر من المدينة قرب مجمع المكاتب الجديدة، فهو متأكد أن بإمكان **فينا** إيجاد من يعاونها في الطبخ، ثم سمع فجأةً صوت خطواتٍ ثقيلةٍ

كالزجاج المُحطّم تقترب منه. بدا صوتُها عالياً نوعاً ما. حينما التفتَ للوراء رأى شابين ملتصقين به تقريباً، أزعجتهُ رائحتهما القذرة، كالثوم العفن وتذكّر كيف استطاع التفريق دائماً بين رائحة الهنود والأمريكان، حتى الموظفين الذين يُخفون رائحتهم بالعطور ومزيل العرق. ثم أدرك فجأةً أنه يشم رائحة عرقه الغزير من شدة الخوف والتوتر، كان شعر الشابين قصيراً مقززاً، فبدت فروة رأسيهما بيضاء كعظم الجمجمة، أو ربما كالبريق المرعب في عيونهما. افترضَ أنهما في أواخر فترة المراهقة، أي مجرد أولاد. نظرَ إلى السترات الضيقة السوداء المموهة، انتابه بعض القلق.

ـ عذراً، لقد أقفلنا.

بدأ يمسحُ قمة العربة بفوطة ورقية، ثم أزاح الحجارة التي حشرها تحت الدواليب لتثبيتها. هل من الوقاحة أن يرحل، بينما لا يزالان واقفين عند الباب؟.

دفع العربة بتردد، فاعترضا بفجاجة، صرخ أحدهما:

ـ من قال لك إننا نريد تناول مثل هذه القذارة؟

اتكأ الآخر بكياسة وتلقائية في آنٍ معاً وداس بقدمه كومةً من الأطباق الكرتونية الأنيقة، فاندفع الهندي بسرعة ليحميها، خطرت بباله فكرتين في اللحظة ذاتها.

«عيونهما كبركة من الوحل، يبدو أنهما ثملين، كان عليّ الهرب منذ البداية» .

ركلهُ الشاب بحذائه الثقيل تحت إبطه، فتدفق ألمٌ حادّ إلى جسده كالحديد المنصهر. صرخ الآخر في وجهه «يا ابن العاهرة الهندية، كان عليك أن تبقى في بلدتكَ اللعينة «لم يمنعه الألم من قذف بعض الحجارة على الشاب الذي بدأ يركل العربة بقدميه القويتين، حتى انهارت وتدحرجت منها قطع **الكباب والساموسا** (معجنات هندية محشية بالدجاج أو بالخضراوات) والتي طهتها **فينا** بإتقان وعناية فائقة، لتصبح طعاماً للقطط

والكلاب. ثم سمع فجأةً صوت ضربةٍ عنيفة، كان قد تراجع الشاب إلى الوراء من قوة الحجر الذي أصابهُ في رأسه، بدا وجهه مضحكاً من شدة الصدمة، استرد الهندي للحظة تفاؤله، رغم ضيق تنفسه وألمه الشديد ودارت في ذهنه أفكار مشوشة، وردد قائلاً «أصبتهُ».

(للأسف، لا يعلم هذا الهندي أنه في القريب العاجل سيُستدعى للمثول أمام القاضي للنظر في الكدمات التي تسبب بها لشابين مراهقين كانا قد ادعيا عليه بأنه ضربهما بالحجارة. حَسِبَ للحظة أنه لن ينجو، لو أنه تمكن من الهرب إلى موقف الباص ليحتمي قليلاً تحت ضوء المصابيح في الشارع وربما وجد بعض العزاء من الركاب المنتظرين هناك. استغرب متسائلاً«أين الجميع؟ ألا يرون ما يحدث هنا؟ لماذا لا يساعدونني؟.

«سرعان ما انقضّ عليه الشاب الآخر، رغم أنه لم يعد يتذكر الآن ما حدث بالضبط بعد تلقيه كل ذلك الضرب المبرح على رأسه وأضلاعه إلا أن ذكريات الألم تبقى حاضرة، فقد ركلاه على فخذيه وخصيتيه، سحباه من شعره فوق الحصى، ألمٌ لاسعٌ كالنار اجتاحه، كوخز الإبر الحادّة، كضرب المطرقة بعنف، عداك عن الشتائم المُهينة «أيها الروث الهندي، يا ابن الزنا، أيها القذر، هذا ما تستحقهُ أيتها الحشرة الكريهة». ظن أنه طلب النجدة باللغة الهندية القديمة وقد وصلت إليه، كما اعتقد أنه لمحَ رسماً أحمر لصليبٍ معقوف كالذي كانوا يرسمونه على الجدران في قريته لجلب الحظ السعيد، لكن على ما يبدو أن الضربة القوية على رأسه تسببت بتشتيت ذهنه، ما جعل أفكاره تتبعثر كالنجوم الصفراء. لعل دماءه النازفة وأعصابه المنهارة تمكنت من السيطرة على حواسه والتحكم بعقله.

في غرفة المستشفى، يأتيه الألم ويغادره بانتظام كالموج، يبدو أنه اعتاد على ذلك، لكنه تمنى لو أن فينا بقربه الآن، من الجميل أن يُمسك بيدها في المساء عندما تُظلم السماء كتلك الليلة، لكن اصطحبها أقرباء إلى المنزل لترتاح.

لا تقلقي، سيزيد القلق من حزنكِ عليه، سنعتني بكل شيء، خذي قسطاً من الراحة، لكن ماذا يفعل بكل تلك الأسئلة التي استولت على عقله، هل سأمشي على قدميَّ ثانيةً؟ كيف سأكسب رزقي الآن؟ أصيبت عينيَ اليمنى بالعمى كلياً، ستكملُ **فينا** الشابة الجميلة حياتها مع زوج مقعد لا ينفعُ لشيء. أين هما الآن اللصان القذران؟، هل قبضت الشرطةً عليهما؟ أتمنى أن تتعفن جثتيهما في السجن».

بعد مرور بضعة أشهر، وهو جالسٌ في شقتهِ، سمع خبراً عن تبرئة الشابين، فبدأ بالصراخ والعويل كحيوانٍ جريح، قذف العكازين بقوة، وبدأ بتحطيم كل ما اعترض طريقه «الصحون، الأثاث، صور الزفاف على الجدران»، لم يعر اهتماماً لبكاء **فينا** وهي تتوسله كي يتوقف، أبعدها عن طريقهِ وكسر زجاج النافذة والستيريو الذي ادّخر الكثير من المال ليشتريه، فانهار كالجمجمة المحطمة تحت ضرباتهِ، ما جعلها تهرعُ مسرعةً إلى الشقة المجاورة تنادي **رامشاران** وشقيقه «اهدأ يا أخي، اهدأ أيها الجار الطيب»، لكنه سرعان ما انقضّ عليهما وبدأ يخدشهما ويلكمهما ويصرخ صراخاً مخيفاً قادماً من عُمق عينيه «إحداهما مُحمرّة متورمة، والأخرى عمياء تماماً كحفرةٍ مظلمة». إلى أن استطاعا أخيراً تثبيتهُ فوق السرير، وربطا يديه بثوبينِ من الساري، توقف فجأةً عن الصراخ. ومنذ ذلك الحين لم يعد ينطق بكلمةٍ واحدة بعد مرور أسابيع حتى، ولا عندما جمع الجيران بعض المال ليشتروا بطاقتي سفر لهما هو و**فينا** كي يعودا إلى الهند، لم يعد لديهما ما يملكانه في هذه البلاد.

«أوه... **موهان**، يا من دمّرت أمريكا جسدهُ وعقلهُ، لقد حطّمت بقصتكَ قلبي وها أنا أجثو مستسلمةً فوق بلاط المتجر البارد. بدأت أطرافي تؤلمني وكأنني شُفيتُ مؤخراً من مرضٍ خبيث، وبلل العرق ثوبي الساري.

في الحقيقة لم أستطع التكهن متى ستكون نهاية معاناتكَ وبداية معاناتي، فقصتكَ لا تختلف كثيراً عن قصص أولئك الذين أحببتُهم وخشيتُ عليهم في هذه البلاد» .

نهضتُ عن الأرض واقتربتُ من صندوق الجرائد القديمة وأنا أترنّح كان عليّ أن أطّلع مجدداً على القصص المنشورة في الصحف عُدتُ إلى الأشهر والسنوات السابقة، وبدأتُ أكتشف الأحداث بهدوء وتركيز «رجل يجد زجاج متجره مُحطم بالحجارة، مع رسالة تهديد مُعلقة على الباب.أطفال يبكون على كلبهم الذي سممهُ أحدهم في إحدى الضواحي الآمنة.مراهقون يقودون السيارة بسرعة قصوى يُصفرون ويضحكون بأعلى صوت بعد اغتصابهم لشابة هندية تركوها تمشي على الرصيف حافية القدمين وثوبها **دوباتا** ممزق من الكتفين. رجل يشاهد فندقهُ الصغير يحترق أمام عينيه، ليفقد بذلك كل ما جناه من أرباح ويدرك وهو يرى الدخان المتصاعد أن (الحريق مُتعمَّد)».

أعلم أن هناك الكثير من الأحداث المخفية التي لم تُنشَر بعد، ولم يُعلن عنها. لطالما شعرتُ بها تحلق كالضباب فوق سماء أمريكا منتظرةً من يجد حلاً لها.

سأقوم الليلة بتقطيع بذور **الكالوا جيرا**، من أجل كل مَن عانى من قسوة الحياة في أمريكا. خصوصاً **هارون**. الذي كلما لفظتُ اسمه أشعر بوخزة حادّة في قلبي. سأقفلُ باب المتجر، وأسهر طوال الليل حتى أنتهي من ذلك.

في الظلام، بدأت السكين بتقطيع البذور بدقة متناهية كالتنفس المنتظم. غداً هو يوم الثلاثاء، سيحضر **هارون** في المساء وقبل أن أعطيه حصتهُ، سأهمس في أذنه «الله أكبر، فلتحمكَ الملائكة في الدنيا والآخرة». وككفارة وبينما كنتُ أقطّعُ البذور، توقفتُ عن التفكير **بريفن**، أنا **تيلو** المنغمسة في ملذاتها بإفراطٍ في الآونة الأخيرة. وبدلاً من ذلك، بدأتُ بهمس بعض الصلوات للمُقعدين والجرحى والمكفوفين والمقموعين، وأصحاب القلوب الضعيفة.

حلَّ الصباح ببطء هذه المرة، واحتاجت كل خطوةٍ للكثير من الجهد بدا ضوء النهار باهتاً، كئيباً هذا اليوم. فلم يحضر سوى القليل من

الزبائـن الذيـن تسـوقوا بكسـلٍ ملحـوظ واتكـؤوا بأكواعهـم الواهنـة عـلى الكاشـير. بـدت أسـئلتهم تافهـة كفقاعـات صغـيرة تلامـس أذنيـيّ. وأصبحـت أطـرافي زلقـة فجـأةً، كالأعشـاب البحريـة المتراقصـة عـلى صـوت مقطوعـةٍ موسيقية، هم وحدهم قادرون على سماعها.

شـعرتُ بضعـفٍ لم أشـعر بـه مـن قبـل، مـن كان ليتوقـع أن تصـاب عاشـقة التوابـل بالكسـلٍ والخمـول. أنـا **تيلـو** التـي أرادت معرفـة كل شيء دفعـةً واحدة وحقنت نفسها بعقار السلطة والسيطرة.

ذات مرة، أخبرتنا الأم الكبرى:

«عـلى عاشـقة التوابـل أن تـدرك أن القـوة هـي الوجـه الآخـر للضعـف، وأن ذروة السـعادة قـد تجلـب قمـة التعاسـة، وعندمـا تحدقـين بإمعـان في أشـعة الشمس، ستصابين بالعمى».

كـما أخبرتنـا بالعديـد مـن الأشـياء التـي لم أعـد أذكرهـا الآن. كانـت تمنحنـا كل فـترة الصبـاح لنتفكـر مليـاً بـكل تحذيراتهـا. كانـت زميـلاتي تتسـلقن منحـدرات الجرانيـت بحثـاً عـن مـكان هـادئ للتأمـل. وقامـت أخريـات بالجلـوس تحـت أشـجار **البانيـان** أو داخـل إحـدى الكهـوف الهادئـة. كـنّ تتأملـن بصمـتٍ، تحاولـنّ التبـصر في أعماقهـن بـكل تركيـز. وبمـا أننـي لم أكـن أعـير أي اهتـمامٍ للألغـاز، قضيـتُ معظـم وقتـي أسـبح في البحـر وأطـارد أسـماك قـوس قـزح. وفي حـال توقفـتُ عـن اللهـو للحظـة، أو حدقـتُ في الأفـق بإمعـان أكون وقتها مشغولة فقط بالبحث عن أصدقائي ثعابين البحر.

بعد الظهر، كانت الأم الكبرى تسألنا جميعاً.

«أيتها السيدات، هل فهمتن ما قُلتهُ اليوم؟».

كنتُ أول من أجابتها:

ـ لا، لم أفهم.

ـ **تيلو**، كيف تقولين ذلك؟ وأنتِ لم تحاولي حتى.

أجبتُها بكل جرأة

«لكن أيتها الأم، حاولت جميع الفتيات. مع ذلك، انظري إليهن هن أيضاً لم تفهمن ما قُلتِه»

ـ آاااه ... يا ابنتي.

وبما أنني كنتُ متلهفة جداً لتعلُم تعويذة التابل الجديد، أعرتُ اهتماماً بسيطاً لخيبة الأمل التي كانت واضحة في صوتها. أما اليوم، أدركتُ أخيراً، عبر الهواء الملوث بالدخان والقطران، أن القوة هي بالفعل الوجه الآخر للضعف.

بدخول **كويسي** المتجر، توقف عقلي عن التفكير، كانت رؤيتُهُ وهو يتسوق متعةٌ للعين، وقد بدت حركات جسده متقنة لدرجة تثير الدهشة، لم يكن يتصنّع. أعجبتني حركة ذراعه وهو يلتقط المشتريات. عضلات ظهره تشتد وتتراخى بتناغم وهو ينحني ليلتقط كيس برغل أو طحين. ثم بدأ يتفحّص العدس بأصابع نظيفة تُحسن الاختيار رغم أثار لكسر معالج حديثاً. لم يكن على عجلة من أمره، كما أنه لا يضيّع وقته بسهولة. أصبحت حياته متوازنة نوعاً ما. ربما سيصبح في المستقبل مدرباً ممتازاً خصوصاً بعد أن خَبِرَ المعنى الحقيقي للألم.

خطرت ببالي فكرة، كزهرة تتفتح للتو. وضع **كويسي** مشترياتهُ قرب الكاشير، هذا ما اشتراه اليوم، رطلاً من الفاصولياء الخضراء كالطحالب ولوحاً من التمر الهندي المجفف، وحبة جوز هند كبيرة. تخيلتُهُ يشطرها إلى نصفين بحافة كفه الضخم، الذي بدا لي متورماً، كانت هذه رؤية اخترقت الدخان الكثيف في مطبخ منزله.

ـ تريد تحضير طبق الفاصولياء مع جوز الهند؟ أصبحتَ طموحاً أيها الشاب الوسيم.

«ابتسم بخجل، هذا الرجل الذي لا يبتسم إلا عندما يكون صادقاً في مشاعره، إنه ممن لا يعرفون النفاق. جعلني أتذكر **ريفن**، الذي لم أعد أتذكره إلا في اللحظات السعيدة. لكن وراء كل تلك السعادة، تملّكني بعض

القلـق «تُـرى؟ متـى سـأراهُ ثانيـةً؟» لا أدري. بمـا أننـي مجـبرة عـلى البقـاء في هذا المتجر، ليس أمامي سوى الصبر والانتظار.

سألني **كويسي:**

ـ أود أن أطبـخ لحبيبتـي طبقـاً مميـزاً مـن وقـتٍ لآخـر، هـل تعتقديـن أننـي سأجد صعوبةً في ذلك؟

ـ لا، لا أبـداً، انقـع الفاصولياء لفـترة كافيـة فقـط، ثـم يمكنـك إضافـة عجينـة التمر هندي في النهاية.

«في الحقيقـة أعجبتنـي الفكـرة، طبـق جديـد وغـير متوقـع. ربمـا أفعـل ذلك يومـاً مـا. بينـما كنـتُ أحـزم مشـترياتهِ همسـتُ ببعـض الكلـمات السـحرية فـوق الفاصوليـاء لتنجـح الطبخـة، ثـم طلبـتُ منـه أن يضيـف لهـا بعـض السكّر المطحون. فلمعت عيناه من السرور.

ـ سـيصبح طعمهـا حلـو ومالـح وحامـض وحـارّ في الوقـت نفسـه، أي كل نكهات الحب والغرام، أليس كذلك؟

«ليتنـي أسـتطيع إسـعاد كل زبائنـي هكذا.لكـن **تيلـو**، كـوني صادقـة مـع نفسـك، كانـت السـعادة تمـلأ قلبـهُ حتـى قبـل أن يدخـل المتجـر. كـما أنـكِ أحياناً تُهملين أولئك الذين يحتاجون فعلاً لمساعدتك. صحيح؟

ـ هـل تذكـر عندمـا طلبـتَ منـي أن أعلّـق لـكَ ملصقـاً إعلانيـاً عن مدرسـتكَ الخاصة لتعليم الكاراتيه؟

ـ أجل؟

ـ أظـن أنهـا فكـرة جيـدة، مـن يـدري، ربمـا نلتقـي ببعـض المهتمـين في هـذا المجال.هل لديك ملصق إضافي في سيارتك؟

«سـاعدتُهُ في تعليقـهِ عنـد البـاب، **بـدا** أنيقـاً بلونـه الأسـود والذهبـي البراق، سـيلفتُ انتبـاه الزبائـن إليـه. لمحـتُ بعـض الشـيب في رأسـهِ، **بـدا** كالينابيـع الفضية المتلألئة.

ـ أخـبري الزبائـن أننـي رجـل طيـب، لكننـي صـارم، فـلا تهـاون في صالـة

كويسي لتدريب الفنون القتالية.

ـ الشدّة هي بالضبط ما يحتاجون إليه.

«لكني لم أستطع الاعتراف له بأن اللطف يملأ قلبه، صحيح أن حياة الشوارع علمته القسوة وكان على وشك الموت أكثر من مرة رغم أنه في ريعان الشباب. يملك هذا الشاب القوة الكافية لإسعاد الآخرين وجعلهم يكتشفون الجمال الحقيقي لشروق الشمس، ورفرفة الأجنحة أثناء الطيران، وقطرات المطر المتلألئة على شعر العُشاق.

وبينما أنا أودعهُ، أرسلتُ نداءً لأشخاص يشبهونه في الأحياء الفقيرة والأزقة المظلمة والمستودعات المهجورة والملاهي الليلية الرخيصة التي تشتعل كاللهيب عند منتصف الليل. أردتُهم أن يحضروا إلى المتجر كي أساعدهم. وفجأةً، دفعَ جدّ **جيتا** باب المتجر بعنف وألقى الصورة التي سبق وأعطيتُهُ إياها، فوق الكاشير، بيدين مقهورتين.

ـ سيدتي

ـ نعم؟

«عرفتُ من نبرة صوته أن الأمور ليست على ما يرام»

ـ لم يحالفني الحظ كما كنا نتوقع. فعلتُ كل ما طلبته، جلسنا جميعاً على الأرض بهدوء لتناول طعام العشاء وحدثتهما كيف أن الحياة أصبحت مملة بدون **جيتا**، «لزم **راموا** الصمت». ثم أخبرتهُ ربما تسرّعنا في اتخاذ قرارنا، وأن **جيتا** في النهاية من لحمنا ودمنا. مع ذلك، «لم ينطق بكلمة واحدة». سألتُهُ، لِمَ لا تتصل بها ولو لمرة واحدة فقط؟ أو يمكن **لشيلا** الاتصال بها؟ هذا رقمها، حصلتُ عليه من أحد الأصدقاء. لكنهُ صرخ في وجهي رافضاً. وكأن أحدهم قد رمى صخرةً ثقيلة فوق قلبه. وعندما اعترضت قائلاً «لما كل هذا العناد؟ أليس من واجب الكبار أن يغفروا للصغار؟» دفعَ طبق الطعام بعنف ونهض عن المائدة.

ـ هل أخبرتَهُ أنها تقيم مع صديقتها وليس مع **جوان**؟

ـ بالطبع وفي مساء اليوم التالي، حشرتُ رقم الهاتف في يدهِ، وتوسلت إليه:

«أرجوك **راموا** لننهي هذا الخلاف، فالفتاة لم تفعل ما يُعيب، لأنها تحبكَ ولا تريدك أن تُصاب بمكروه. لِمَ لا تطلب منها العودة إلى البيت؟ «لكنه رمقني بنظرة باردة، وصرخ ثانيةً» قدّمنا لها كل شيء، ولم نطلب منها إلا أمراً واحداً فقط، لكنها عصت أوامري».خاطبتُهُ بنبرة أبوية «عزيزي **راموا**، ماذا لو سمحنا لها بالزواج من ذلك الشاب المكسيكي؟ لا أجد مشكلةً في ذلك، فقد تغير الزمن. ورأيت العديد من الأهالي يفعلون ذلك. انظر كيف تزوج **جايانتا** من تلك الممرضة البيضاء، كما أن ابنة **ميترا** أنجبت طفلاً أشقراً جميلاً جدا.

«نظرَ إليّ متعجباً» بابا؟ ما هذا التغير المفاجئ؟ بعد كل النحيب والصراخ والاحتجاج بأنها ستشوه تاريخ أجدادنا الشرفاء، من أين جئت بهذه النصائح الجديدة؟ بغضبٍ أجبته:

«ماذا؟ أتظنني غير قادرٍ على التفكير المنطقي؟ الرجل الحكيم يغير رأيه عند الضرورة» بقي وجهه ثابتاً كجدار من القرميد «بابا؟ لقد سمعتُ ما يكفي، عندما غادرت **جيتا** هذا المنزل وأغلقت الباب وراءها غير آبهةٍ بنا، حينها خرجت من حياتي كلياً». قلقتُ طوال الليل. اكتشفتُ أنه من السهل غرز شوكةٍ في قلب أحدهم، لكني لم أدرك بأن اقتلاعها سيكون صعباً لهذا الحد. ليتني لم أتدخل بينهُ وبين ابنتهِ. نهضتُ في الليل ونزلتُ إلى الطابق السفلي، تركتُ الصورة على الطاولة كي يراها في الصباح وهو يحتسي الشاي ويقرأ الصحيفة. ربما إذا نظر إليها وهو جالسٌ وحده سيتذكر ابنتهُ عندما كانت طفلة بريئة وكيف كان يشتري لها الألعاب والهدايا. قد يساعده ذلك على تجاهل كبريائه ويتعامل معها كأبٍ صبور.

لكن وبعد ذهابه إلى عمله، دخلتُ غرفة الجلوس ووجدتُ الصورة مرمية بإهمال على الأرض، وها هي أمامكِ الآن، انظري.

«أشار إلى الصورة بإصبعٍ مرتجف، لمحتُ تشققاً عميقاً يفصل **جيتا**

عن عشيقها **جوان**. لقد مزقَ الأب الغاضب الصورة إلى نصفين».

دخلتُ الغرفة الداخلية وبدأتُ أبحث بين الرفوف عن توابل القوة. احتجتُ لبعض المساعدة، لكن التوابل لم تستجب.

فكرت، **تيلو** ما العمل؟

انتظرتُ للحظات ، لم أحصل على إجابة. سمعت صوت جدّ **جيتا** من وراء الجدران. فقد طلبتُ منه استلام المتجر نيابةً عني لبضع دقائق. يبدو أن صوتُهُ استرجع بعض الثقة. لاحظتُ ذلك من طريقة نصحهِ للزبائن.

ـ صدقيني، سيسبب **التشانا دال** (الحمّص المفلوق) الكثير من الغازات لِمَ لا تشتري بعض الكركم؟ ماذا؟ زوجكِ لا يحب طعمهُ؟ إغليهِ وأضيفي له بعض البصل المقلي وأوراق الكزبرة، وسيجده لذيذاً دون شك.

«يبدو أنه على حق، التنكر، المراوغة، التحايل عند فقدان الأمل»

تابعتُ البحث بين الرفوف إلى أن وجدتُ الرزمة مُحكمة اللف بلحاء الشجر، وبجانبها كماشات فضية حادّة. فتحتُها بمنتهى الحذر، تجنبتُ لمس ما بداخلها. انتصبت أعشاب (الكانتاكاري) الشوكية السّامة كالإبر السوداء، قطعتُ ثلاثاً منها بالكماشة ورميتُها فوق حجر الطاحون وأضفتُ إليها بعض السمن والعسل كي أخفف من نكهتها اللاذعة، مزجتها جيداً. بعد ذلك، سكبتُ المزيج في زجاجةٍ صغيرةٍ . كان جدّ **جيتا** ينتظر باستعداد أمام الكاشير، كالقائد العسكري، ويطرقُ على زجاج المنضدة بأطراف أصابعه، وعندما دخلت.

ـ آآاه... سيدتي، لقد تأخرتِ، لا تظني أنني أتذمر، أو أنني مللت، بالعكس تماماً، لأن ذلك يدل على أنكِ وجدتِ شيئاً مميزاً قد يحل مشكلتنا.

ـ قلتَ لي أنكَ مستعد لفعل أي شيء من أجل **جيتا**، لتعيدها ثانيةً إلى بيتها، ألا أقول الحقيقة؟

«أومأ موافقاً».

ـ خذ هذه الزجاجة إذاً، افرغ ما في داخلها في طبقك من الأرز أثناء وجبة العشاء، اخلطهُ جيداً ثم تناولهُ ببطء. ستشعر بحرقة في الحنجرة أثناء البلع، إضافةً إلى بعض التشنجات التي قد تستمر لبضعة أيام. لكنكَ ستحصل على اللسان الذهبي لمدة ساعة واحدة فقط.

ـ اللسان الذهبي؟ لم أفهم قصدكِ.

«اختلط شعور الأمل والخوف في عينيهِ، لاحظتُ أنه يعرف الكثير من الخرافات القديمة»

ـ في هذه الساعة، يجب أن يُصدق الناس كل ما تقوله، كما يجب أن يطيعوا كل أوامرك، والآن، أنصت جيداً لما سأقوله لك.

«أخبرتُهُ بكل التفاصيل وودّعتُهُ عند الباب»

ـ استخدِم الزجاجة بحكمةٍ ، لن تحصل على مثلها بعد الآن. وتذكّر ستكون التشنجات مؤلمة جداً»

«رفع رأسه ومشى بخطوات واثقة. لكنه اليوم لم يستطع إخفاء مواطن ضعفه كالمعتاد، لاحظتُ رغم ذلك بريقاً واضحاً في عينيه».

ـ سأتحمّل كل التشنجات المؤلمة بكل رحابة صدر.

«خرج من المتجر وأغلق الباب خلفهُ بهدوء.»

انتظرتُ حتى غادر جميع الزبائن، بدأ العث يتطاير حول أضواء المتجر استطعتُ سماع صوت ارتطامه بالمصابيح. انعكس ضوء القمر على واجهة المتجر وكتمَ الظلام الدامس صوت الازدحام. تأخر الوقت كثيراً. جعلني الخوف أشعر ببرد استقر في صدري لساعات. لن يحضر **هارون** اليوم أو ربما لن يحضر أبداً. ما العمل؟ كيف أنقذهُ من الظلام الذي يطاردهُ بمخالب جائعة؟

وصلني الجواب فجأة.

«عليكِ أن تذهبي إليه، أجل يا **تيلو**، مغامرة أخرى في أمريكا».

شعرتُ بأنني فتاة مختلفة عن تلك التي غادرت الجزيرة. لكن ماذا بشأن الأم الكبرى؟

عرف الصوت الخفي نقاط ضعفي.

«هل ستبقين جالسة مكتوفة اليدين، تنظرين إليه} وهو ينهار أمام عينيكِ هكذا؟ هل كانت الأم الكبرى لتفعل ذلك لو كانت مكانكِ؟ هل هذا ما تريدينه؟»

تخيلتُ وجهها. بدأ يتشكّل في الظلام... جبينُها، فمها، عينيها. بدت عابسة ومبتسمة في آن. كانت تنظر إليّ بعينين مظلمتين، ساكنتين، ساخرتين. فجأةً، وبلطفٍ يشوبه قليل من القسوة، خاطبتني الأمهات الأخريات اللواتي سمعتُ عنهن مؤخراً...

«عند الغضب... تستطيع هاتين العينين حرقَك بالكامل».

لم أعرف ماذا كانت تريد مني. لكني أعرف تماماً ما الذي كانت ستفعله، والذي يجب فعلهُ...

فكرتُ مطولاً قبل اختياري للطريق المؤلم، والذي سيجعلني أشعر وكأن عظامي تنسحب بقوة من جسدي. لو سألني أحدهم «لماذا فعلتِ ذلك؟»، ستكون إجابتي «عندما أمسكتُ بيدي **هارون**، وشعرتُ بنبضهِ الدافئ والأمل مشرقٌ في عينيه، أدركتُ أنه من واجبي حمايته من أي شر محتمل». تُرى؟ ما الذي دفعني لذلك؟ التمرد أم الشفقة؟ ربما تعرفون أكثر مني. بالنسبة لي يجوز الوجهان، لأنهما سلاح ذو حدين، ينزف من الطرفين، لكن لون الدماء لا يتغير. أما الآن، يجب أن أجد حلاً لمشكلة **هارون** والبحث عنه، فأنا لا أملك عنوانه. وحين أرسلتُ نداءً للتوابل، ارتد النداء في وجهي بعنف، وكأن أحدهم ضربني على جمجمتي بحجرٍ ثقيل. ارتج رأسي من تأثير الضربة وخطر ببالي سؤال، لم أستطع تجنبهُ... **تيلو**؟ هل بدأتِ تفقدين قواكِ؟

وبهدوء، تذكرتُ كلمة «هاتف». صحيح أنني لم أرَ هاتفاً حقيقياً من

قبل، لكن صورتهُ تشكّلت في مخيلتي «علبة سوداء، تحوي حصالة نقود، تلمع تحت ضوء الشارع المتذبذب، موصولة بحبلٍ من الفولاذ، مُثبت عليه سماعة تشبه إحدى الزواحف المنقرضة». كيف عرفتُ كل هذه التفاصيل؟ لا أدري، لكني عرفتُ أيضاً كيف أختار القطعة النقدية الصحيحة، والمكان المناسب لإدخالها.

بحثتُ في الكيس الذي أحضرتُهُ معي من مركز **سيرز** التجاري، فوجدتُ ورقة مكتوب عليها رقم **جيتا**، التي يجب أن أتصل بها هي أيضاً. ثم تسللتُ بحذر، لأتجنب النظر إلى التوابل، وأقفلتُ الباب خلفي بهدوء تام. لكن لماذا لم ترمقني التوابل بنظرات استنكار؟ لماذا سمح الباب لي بالخروج دون أي معاندة؟

لم أتفاجأ عندما رأيتُ قدميّ تسيران بأقصى سرعة وثبات، عبر الأزقة والمنعطفات التي تقود إلى الهاتف العمومي.

أخرجتُ الورقة التي أعطتني إياها **جيتا** في ذلك اليوم، عندما زرتُها في برجها الأسود البرّاق، واتصلتُ بها. عندما سمعتُ نسخة طبق الأصل عن صوتها، تطلب مني أن أترك رسالةً صوتية بعد انتهاء الصافرة، تكلمتُ ببطء ووضوح، حيث طلبتُ منها أن تحضر إلى المتجر لوحدها، بعد غد، عند الساعة السابعة مساءً، أثناء اختلاط ضوء الشمس بضوء القمر، لينعكس الضوء المزوج على رغباتنا وأشواقنا. عندها، من الممكن أن نجد حلاً جذرياً لمشكلتها. أما الآن، جاء دور **هارون**. لكني لا أملك رقم هاتفه، كما أنني لا أعرف مكان سكنه. لم يساعدني التنبؤ، لأنني اليوم عندما بدأتُ بإرسال نداءات البحث، انعقد لساني وتلعثمتُ كمن يتعلم النطق حديثاً... أنا **تيلو** التي وصفتها الأم الكبرى «يجب أن يسكن الببغاء (طائر الذاكرة) حنجرتكِ يا ابنتي». لكن، فات الأوان الآن. يجب أن أدفع ثمن خروجي من المتجر والتجول بحرية في شوارع أمريكا. صرخ صوتٌ من داخلي «ماذا ستخسرين أكثر من ذلك؟».

لا وقت الآن للتفكير بذلك السؤال. كما أنه لم يعد هناك وقتٌ للنحيب. يجب أن أبحث عن رقم منزل **هارون** في الدليل الضخم المُعلق على جدار الكشك. بدأت أُصلّي...

لم أجده ... لاحظتُ أن الكشك مليء بالرغبات اليائسة. فقد أمسك الكثيرون قبلي بهذه السماعة، وحاولوا الاتصال بأحبائهم أكثر من مرة. اتكأتُ برأسي على علبة الهاتف. لو كان البكاء ينفع، لبكيتُ قليلاً ...

«**تيلو**... العصيان هو من يُضعِف القوى السحرية، فلا تلومي أحداً غير نفسك»

لن ينفع الندم الآن. بدأ الوقت ينفذ. تسارعت ضربات قلبي. لم أعد أملك سوى عقلي الفاني، وذاكرتي التي أصبحت ضعيفة الآن، وقلبي المجروح.

عصرتُ ذاكرتي، ووجهتُ كل تركيزي إلى تلك الليلة الأولى التي حضر فيها **هارون** إلى المتجر. في ذلك الحين، أخبرني عن أصدقائه الذين ساعدتُهم. أغمضتُ عينيّ جيداً وبدأت التأمل... تذكرتُ رائحة خشب الصندل المنبعثة من يديه، وشفاهه الدافئة عندما قبَّلَ يدي. كم كان صعباً النظر إلى عينيه الطافحتين بالثقة... أوه **هارون**، يا من وقف على خشبة مسرح الأحلام تحت أضواءٍ وهمية على وشك الانطفاء.

وبعد لحظات، حضَر اسم الذي ذكرَهُ أمامي فيما مضى، **نجيب مختار**، تمسكتُ به كمن يعانق خشبةً طافية خوفاً من الغرق. أو ربما كان ذلك مجرد ضربة حظ. آملُ أن أكون قد استحضرتُهُ لمساعدة **هارون**، لا لمساعدة نفسي.

ها هو رقمهُ مدون في دليل الهاتف، بأرقام صغيرة سوداء كالنمل، لكنها واضحة بما يكفي. منعتُ نفسي من طرحِ الأسئلة «ماذا لو لم يكن **نجيب** الذي أبحث عنه؟ قد يكون تشابه في الأسماء لا غير، ما العمل في حال لم يعرف أين يعيش **هارون**؟ ماذا لو لم يخبرني؟ ماذا لو؟ ماذا لو؟ «لكني اتصلتُ بالرقم باللاشعور».

استمر الرنين لعدة ثوانٍ... لم يُجب أحد. وقبل أن أقفل سماعة الهاتف، سمعتُ امرأة تقول... ألو؟

«قالتها مترددة، بلهجةٍ هندية محلية...»

- أريد التحدث إلى **هارون**، هل تعرفين أين يقيم؟

«انتبهتُ لطريقتي الساذجة في التحدث معها. وشعرتُ بارتيابها وخوفها مني عبر التموجات والأسلاك الكهربائية. استطعتُ قراءة أفكارها المتقطعة «الغربة، الدائن، ربما أعدائه في البلاد يتتبعون أثره. «كانت على وشك أن تقفل الخط، فاستدركتُ مسرعة...

- أنا صديقته.

«لكنها لم تقتنع. لاحظتُ ذلك من طريقة كلامها...»

- **هارون**؟ مارون؟ لا ... لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

- انتظري أرجوكِ لا تقفلي الخط، أنا من متجر التوابل، الذي يقع بجوار الفندق المحترق، في شارع **اسبيرانزا**. كنتُ قد ساعدتُ زوجكِ في الماضي.

«لم تُجبني. لكني شعرتُ من تنفُسها أنها على وشك أن تُصدقني...»

يجب أن تساعديني رجاءً، لدي شيءٌ يجب تسليمه له، لأحميه من...

«بحثتُ عن عبارة تناسب تفكيرها، أو ربما كلمة من قصة سمِعَتها عندما كانت طفلة صغيرة... ربما تلبُس الجن.

«هَمَسَتُ بقلقٍ ...»

- من تلبُس الجن؟

«يبدو أنها تؤمن بذلك حقاً...

- نعم، نعم بالضبط، لذلك يجب أن تخبريني أين هو.

«بدأت تُفكر... تخيلتْ زوجها يؤنبها «اسمعي يا امرأة، إن نطقتِ بكلمة واحدة، سأجعلكِ تندمين على اللحظة التي ولدتِ فيها»

أرجوكِ، لن أ}ذيه، صدقيني.

«انتظرنا أنا وهي، إلى أن تلاشت لحظات التوتر بيننا...»

- حسناً، إنه لا يملك هاتفاً في منزله}، لكنني سأخبركِ عن مكان سكنه، وساعة تواجده.

«زودتني بأسماء شوارع وحدائق عامة ومدارس ومحطات بنزين، ومقرات شرطة، دونتُها على عجلٍ خلف بطاقةٍ مطبوعٍ عليها اسم مدير الشركة التي تعمل فيها **جيتا**».

أرشدتني قائلة:

اركبي تلك الحافلة، ثم استقلي الحافلة التي تليها. انعطفي نحو اليمين، ثم يساراً. اجتازي صالة التدليك وموقف السيارات الرخيصة، ثم اصعدي السلالم المتداعية لتصلي إلى الطابق الأخير. ستجدين شقتهُ هناك. اذهبي إليه قبل الثامنة صباحاً، لأنه يغادر الشقة فوراً بعد **نماز الصبح** (صلاة الصبح)، ويعود إليها وقت الغروب. يقضي فترة الليل في العمل على التاكسي، لأنه الوقت المثالي للبقشيش الدسم.

- أشكركِ، أنا ممتنة كثيراً، سأذهب إليه في الصباح الباكر قبل أن أفتح المتجر.

«أثناء عودتي إلى المتجر لفني ضباب كثيف، تجنبتُ الظلام، ونظرتُ إلى القمر الأبيض، بدا كعظم الفك المصقول. بدأتُ أتدرب على الكلام الذي سأخاطب به **هارون**... الاعتذار والعواطف وتحذيره من الكابوس المخفي وراء حلمهِ كمهاجر. صحيح أننا قد نتشاجر قليلاً، وسيغضب كالمعتاد ويقوم بحركات عنيفة بيديه، لكنه في النهاية، سيهدأ ويقول «حسناً سيدتي العزيزة، إن كان ذلك ما تريدينه، سأنفذه بدون نقاش»

جعلتني الفكرة أبتسم تلقائياً بينما كنتُ أنحني لأفتح باب المتجر. فجأةً، رأيتُ مستطيلاً صغيراً أبيض كثوب أرملة أو ربما ناسك، محشور في الشق بين دفتي الباب، وكأن أحدهم قد دسهُ بسرعةٍ وهرب. شعرتُ للحظة بالاختناق... أيمكن أن تكون الأم الكبرى؟

لكني أدركتُ أنها مجرد رسالة. فتحتُها، وعندما توقفتُ عن الارتعاش،

قرأتُ الأحرف المكتوبة بخط كبير...

«جئتُ لرؤيتك، لكني لم أجدك. لم أكن أعلم أنه بإمكانك مغادرة المتجر، وبما أني عرفتُ ذلك الآن، سأطلب منك الخروج سوياً غداً، نتجول في المدينة ونستمتع برؤية الأماكن التي أحبها، سأحضر باكراً لأصطحابك معي، وعند المساء، سأعيدك إلى المتجر بنفسي، لا ترفضي طلبي ... أرجوك»

أوه... عزيزي **ريفن**... وكأي امرأة واقعة في الحب، عانقتُ الرسالة وشممتُ رائحتها وحدثتُ نفسي، أجل موافقة، غداً سيكون يوم سعدنا، بدأتُ أتنشق هواء المدينة المنعش منذ الآن. لطالما تخيلتُها. ارتعشت قدميّ من شدة الإثارة.

حضرت الأفكار السلبية فجأةً، ماذا عن العيون الفضولية التي ستنتقد بشدة فكرة أن يسير شاب أميركي وسيم برفقة سيدة هندية عجوز؟ أوه أيتها الحمقاء، بدأتِ تفكرين كبقية النساء الغبيات «ماذا عليَّ أن أرتدي؟» أوه لقد نسيت **هارون**، ماذا عنه؟

وضعتُ البطاقة التي كتبتُ عليها الإرشادات، داخل حقيبة جلدية صغيرة استعرتُها من خزانة الهدايا، وهمستُ بثقةٍ «لن أهملهُ» وفي حال تسللت بعض الشكوك إلى داخلي، لن أعيرها أي اهتمام. «من قال أني غير قادرة على التمييز بين الواجب والرغبة الشخصية؟» المهم الآن، أن أطلب من **ريفن** أخذي معه غداً.

نبات النيم

كنتُ أجوب المتجر ذهاباً وإياباً طوال الليل، وأنا أفكر «أريد شيئاً يجعلني أبدو أصغر سناً». طبعاً لم أطلب ما يجعلني أبدو أكثر جمالاً، لأنني أعرف أن ذلك غير ممكن. أردتُ أن أبدو أصغر سناً فقط، كي لا نتعرض أنا و**ريفن** للكثير من الانتقاد.

«**تيلو**، منذ متى تهتمين بآراء الآخرين؟»

لا، لا...لستُ قلقة على نفسي، بل عليه، أريد حمايته من انتقادات المجتمع.

وضعتُ بعض الحليب المغلي في وعاء وخلطتُ معه مسحوق من أوراق **النيم** الشافية من الأمراض. ثم دهنتُ الخليط على رقبتي ووجنتيّ وتحت عينيّ. وفركتُ شعري **بالريثا** (صابون الجوز)، حاولتُ قدر الإمكان إخفاء الخصلات الرمادية. ثم بدأتُ بتنظيف الثياب الأمريكية التي اشتريتُها من المركز التجاري بلوح} صابونٍ أصفر كضوء الشمس. مرَّ الليل ببطء، ويتنقل عقرب الثواني بتناغم مع القطرات المتساقطة من الغسيل المُعلّق على الحبل. بدأ مسحوق **النّيم** يجف ويشدُّ بَشَرَتي وبدأت فروة رأسي تحكّني. انسدلت بعض الخصلات المُعطرة **بالريثا** على وجهي.

لكن بعد الاستحمام، شعرتُ بأن تجاعيد وجهي عادت لما كانت عليه،

كـما عـادت خصـلات شـعري قاسـية ورماديـة كالخيـوط التـي تُصنـع منهـا أكياس الخيش.

هَمَسَت التوابل بخبثٍ، وهي تسخر مني بوضوح...أخافني ذلك.

ـ أوه أيتها السيدة، ماذا كنتِ تظنين؟ إذا أردتِ أن تتغيري فعلاً، عليكِ أن تستخدمينا وترددي الكلمات السحرية، هيا... فأنتِ تعرفينها جيداً.

ـ مـا الـذي تقولينـه أيتهـا التوابـل، يجـب ألا أسـتخدم تعويـذاتي لتحقيـق رغباتي الشخصية».

ـ لا يهم، رغباتكِ أم رغباتُهُ... منذ متى وأنتِ تفصلين بين الرغبات!؟

«خاطَبَتني باستهزاء وكأن ذلك بالأمر السهل. وبما أنني أعرف أنه ليس كذلك، دُهشتُ متسائلة «لماذا تطلب مني التوابل مخالفة القوانين؟ مع أنها تدرك جيداً ما يجب فعله وما لا يجب فعله».

بدأت التوابل في الغرفة الداخلية تناديني مشجعة...

هيا يا **تيلو**... استخدمينا، وهبناكِ أنفسنا بكل سرور، لطالما قمتِ برعايتنا بإخلاص ...نحن جميعاً، **جذور اللوتس، الميكا، الأملاكي** (الكشمش الهندي) وطبعاً ... **الماكارادواج** (تابل الشباب) ملك التوابل. كلنا رهن إشارتكِ، استخدمينا لتحصلي على الحب والجمال والمتعة فهذا ما نمنحُهُ عادةً...

«بدا صوتُها كوخز الإبر الصغيرة...»

هيا يا **تيلو**... هيا.

بدأت الصور تدور في رأسي، **تيلو** المغامرة، كيف ستكون ردة فعل **ريفن** عندما يراني غداً، ليونة جسدينا السعيدين من النشوة.

«حين اقتربتُ من الغرفة الداخلية، تعالى صوتُها أكثر، شعرتُ بالقشعريرة. لمستُ الباب الخشبي، فأحسستُ بنبضٍ ناعمٍ كالماء وكأن كل جزيئات الكون تنحل وتتجمع من جديد لتخلق أشكالاً جديدة. صُعقتُ عندما أدركتُ أخيراً أنها تحاول إغوائي كي أطيح بالنذر المقدّس وأدمّر حياتي بيديّ».

«أوه أيتها التوابل... يا من كانت السبب في بقائي كل تلك السنوات. لماذا تعاقبينني بالإغراء؟ أنا **تيلو**... التي لا تزال تكن لك معزّة في قلبها. لا تتعاركي معي كي لا أخسرك وأخسر نفسي».

«خيم الهدوء قليلاً وفجأةً...»

«فليكن ذلك... فالصبر من صفاتنا، نعلم بأنك ستلجئين إلينا في النهاية، فمنذ أن سمعتي ندائنا، هرعتي فوراً للسير خلف إيقاع الرغبة الراسخة في أعماق الجسد، لن تتمكني من المقاومة يا **تيلو**».

انحنيتُ بجسدي المُتيبس لأستلقي على الفراش. عرفتُ أني لن أستطيع النوم. تعبَ صوتي من الإقناع المُخضّب بالارتياب...

«أوه أيتها التوابل، هل بإمكاني محبتكما... أقصد أنتِ و**ريفن**؟ لماذا يجب الاختيار؟»

«لم تُجبني...»

بدا ضوء الصباح كالبرتقالة المشطورة إلى نصفين، عصارتُها منعشة ولذيذة. لكنه عندما انعكسَ على بَشَرَتي، تغلغل بعمق ليُبرز أوردتي المتشابكة. ارتديتُ ثيابي البُنية النظيفة، كنتُ حزينة كأوراق الشجر المُتيبسة. تمنيتُ للحظة ألا يحضر **ريفن**. لكنه وصل بعد قليل، ورمقني بنظرته المثيرة تلك وكأنه يراني على حقيقتي من خلف ذلك الجسد الهرم. أمسك يدي بقوة، وطبعَ قبلةً دافئة على خدي بسرعة خاطفة. أذهلتني...

- ستأتين معي؟ ممتاز، اعتقدتُكِ سترفضين، بقيتُ مستيقظاً طوال الليل وأنا أفكر.

«ابتسمتُ بخجل...»

- وأنا أيضاً.

«تمكن قلبي من السيطرة على جسدي، ما جعلني أقفز فَرحاً. لكن **ريفن** لا يدرك ولن يدرك، الثمن الذي سأدفعهُ قريباً لقاء هذه المغامرة

القصيرة، اااه... سأستقبل عقوبة التوابل بكل رحابة صدر، أليس هذا هو الحب؟».

فتحَ **ريفن** طرداً مختوماً وقال:

- انظري، أحضرتُ لكِ شيئاً.

انسدلَ فستان أبيض متلألئ كقطرات الندى، فوق الكاشير. قماشهُ رقيق جداً كنسيج العنكبوت. عندما رفعتُهُ، انزلق بسلاسةٍ كبزوغ الفجر. كان أجمل فستان رأيتهُ في حياتي. لكني فجأةً، تركتُهُ من يدي...

«أيتها الأم الكبرى... يا من حذّرَنا وراقبَنا بعين حزينة بينما كنا نرتدي أجسادنا الهرمة وسط نيران **الشمباتي** المقدّسة، هل استطعتِ التنبؤ بلحظةٍ كهذه؟»

«شعرتُ بنار الندم تحرقني من الداخل والخارج...»

- لا، لن أرتديه.

- لماذا؟

- فستانٌ أنيق كهذا، يُناسب امرأةً شابة.

- لا، تقصدين امرأة جميلة، مثلكِ تماماً.

«تحسسَ خدّي بأطراف أصابعه الناعمة. كانت التوابل تراقبنا باهتمام. لم أستطع قراءتها، فقد حَجبَت أفكارها عني بدهاء، مُستغلةً توتري».

- لا تقل ذلك **ريفن**.

«شعرتُ برغبةٍ بالبكاء، مسحتُ الغضب عن عينيّ. ثم سحبتُهُ إلى النافذة حيث الضوء الموحش. ناشدني صوتٌ قادم من أعماقي «هيا ... لا تترددي»

لا، في حال أردتُ خسارته، فليكن ذلك الآن، قبل أن يتسلل الحب الغادر إلى أعماق قلبي فيُدمرني...

ألا ترى أنني مجرد عجوز قبيحة يا **ريفن**، سأبدو سخيفة بهذا الفستان، وسيسخر منا الجميع عندما يروننا معاً.

- اشش، اهدئي.

«عانقني وقبّلني من رأسي ليُطمئنني. أرحتُ وجهي على صدره. فتحسستُ نعومة قميصه الأبيض النظيف كالرياح النقية. ولمستُ جلده الدافئ كالخشب المصقول اللامع. كيف أخبره عن شعوري الحقيقي اتجاهه؟ لمس الكثيرون جسدي بالصدفة أو حتى عن قصد ربما، لكني لم أشعر كما شعرتُ الآن. أنا **تيلو**... التي لم يُعانقها أحدٌ من قبل، لا أمي ولا أبي، ولا زميلاتي على الجزيرة، ولا حتى الأم الكبرى، هذه أول مرة يعانقني شخص بهذه الطريقة، القلب على القلب مباشرةً.

أنا الطفلة التي لم تعرف البكاء من قبل، والتي اعتقدت أنها لن تبكي حتى عندما تصبح امرأةً يافعة. ابتسمتُ رغم رموشي المُبللة بالدموع، اخترقت أنفاسي رائحة جسده المثير. داعبَ تنفُّسُهُ البطيء رموشي، وذابت عظامي بين ذراعيه من شدة الرغبة. تمنيتُ لو يستمر هذا العناق للأبد، أنا **تيلو** التي ظنت أنها ليست بحاجةٍ لذراع رجل كي تشعر بالأمان، فركَ عظام أكتافي بلطف بإبهام يديه...

أوه... أيتها العزيزة **تيلو**.

«أخذ اسمي ملمساً جديداً حين نطقهُ، بدت أحرفه الصوتية أقصر وأعلى رنيناً، وبدت الأحرف الساكنة أكثر تحديداً... اااه يا عزيزي الأمريكي، أنت تعيد تكويني من جديد بكل الطرق».

منعني من الاحتجاج بوضع يده الناعمة على فمي...

ارتدي الفستان الآن، أعرف أنكَ أجمل بكثير من هذا الجسد.

«أردتُ أن تلامس شفاهي أصابعهُ الدافئة وخاتمهُ البلاتيني اللامع، والخطوط المرسومة على راحتي يديه، التي تُخفي مستقبلنا معاً. اااه... فربما نستطيع اكتشاف بعضنا البعض أكثر من قدرتنا على اكتشاف أنفسنا».

«حشر الفستان بين ذراعيّ، ودفعني بلطف كي أدخل الغرفة الداخلية...»

- لكم ...تمنيتُ قراءتها. لكني تراجعتُ فجأةً للوراء، وسألتُهُ بدهشة...

- وكيف عرفت؟ فأنت من قال إنه ليس من السهل معرفةً حقيقة الآخرين.

«ابتسم بدهاء...»

«أيها الأمريكي العنيد، المريب والعزيز على قلبي، سأبوح لكَ بسرّي، أجل اليوم سأخبرك بكل شيء، لكن عليَّ فعل ذلك في المكان المناسب، عندما يمتزج الضباب بالهواء في المحيط الواسع، عندها سيكون الاعتراف، وربما المغفرة، أكثر سهولة، سنذهب إلى هناك عندما تكون مستعداً أيها الوسيم»

قادَ صديقي الأمريكي سيارةً طويلة ومنخفضة، لونها أحمر فاقع كالياقوت. كانت تلمع بزهو تحت الشمس. وتفوح من الداخل برائحة الياسمين والغاردينيا، الثراء والإغراء، والنساء وهذا ما أثار غيرتي، فتساءلت من كانت تركب معه قبلي؟ جعلني المقعد الناعم الجالسة عليه، أشعر وكأنني أفترش راحة يده (تُرى هل شعرت النساء اللواتي جلسن هنا قبلي بنفس الشعور؟) وعندما استلقيتُ ورفعتُ رأسي، رأيتُ سُحُباً تبتسم لي بحزن من وراء السقف الزجاجي.

«**تيلو**؟ هل نسيتِ أنكِ لا تملكين الحق في الجلوس قرب هذا الرجل؟ خصوصاً أنكِ لا تعرفين شيئاً عن ماضيه أو حاضره» لكنني لم أعر اهتماماً للشك أو الغضب أو الحزن.

بدا فستاني الجديد كبتلات زهرة لوتس بيضاء متفتحة. عبر النافذة، انعكست خيوط دافئة من أشعة الشمس على وجهي. شعرتُ وكأنها تُعطيني الإذن، لأخطو خطوتي بكل جرأة. انطلقت السيارة برشاقة كما تنطلق حيوانات الغابة التي تتمتع بالهدوء والسرعة معاً. لمحتُ من بعيد الساعة الأمامية المُعلقة على برج البنك المركزي. كانت تشير إلى السابعة والنصف (7:30)، وقت مثالي للذهاب إلى منزل **هارون**.

- حسناً، أين يقع ذلك المكان الذي تودين زيارتهُ أولاً؟

«تذكرتُ معظم أسماء الشوارع. استرجعتُها في ذهنـي وذكرتُها لـه... **إليز، فينتورا، مالكوم X**، نزلت السيارة عبر أزقة مليئة بالقمامة فوق الأرصفة. حدق بنا سكان المنطقة ذوي الشعر المجدول، من مداخل بيوتهم التي قضوا سهرتهم فيها. ومن حولهم أكياس كثيرة من النفايات، تبدو من بعيد كحصن للحماية.

- هل أنتِ متأكدة أننا وصلنا إلى المكان الصحيح؟

- نعم.

«تراجعتُ فجأةً...»

- انتظر، لدي بطاقة مكتوب عليها كل الإرشادات اللازمة.

«لكنني لم أجدها في حقيبتي. أخرجتُ رزمة **الكالوا جيرا** المخصصة **لهارون**، قلبتُ الحقيبة رأساً على عقب وبدأتُ أهزها بعنفٍ . لم يخرج منها سوى بعض الوبر العائم في الهواء...»

- مستحيل، أنا متأكدة أنني احتفظتُ بها هنا.

«تكلمت بصعوبة...»

- ابحثي عنها ثانيةً، أين يمكن أن تختفي؟

«وخزتني فكرة كالإبرة الحادّة، انحنيتُ وغطيتُ وجهي بيديّ...»

«أيتها التوابل؟ أيُعقل أنك} سحبتها من الحقيبة بطريقة ما؟»

- ربما نسيتِها في المتجر، هل تودين أن نعود أدراجنا لنبحث عنها؟

- لا.

«أيتها التوابل المحتالة، إذاً هذا هو سبب معاملتكِ لي بلطفٍ زائف، انتظرتِ الوقت المناسب لتعاقبيني بطريقة لم أكن أتوقعها».

- تبدين منزعجة كثيراً، هل هي مهمة لهذه الدرجة؟

- إنها متعلقة بحياة رجل... أنا المسؤولة إن حصل له أي مكروه.

- دعيني ألقي نظرة.

«أوقف **ريفن** السيارة، ثم نزل تحت قدميّ، ورفع الحصيرة وبدأ يبحث بتركيز. استغرق ذلك بعض الوقت. أردتُ أن أخبره أنه لا فائدة من البحث، لكني لم أكن قادرة على الكلام...»

انظري، هل هذه هي؟

«كانت مجعدة ومهترئة وممزقة عند الأطراف، لكنها مقروءة نوعاً ما...»

«أيتها التوابل الخبيثة، هل تلعبين معي لعبة القط والفأر؟»

«تساءلَ **ريفن** ...»

تُرى، كيف وصلت إلى هنا؟

«لم أبح له بالسبب وبدأتُ أقرأ الإرشادات. ضغطتُ على لوحة القيادة بأطراف أصابعي، معتقدةً أن ذلك سيجعل السيارة تنطلق بسرعة أكبر.

رَمَقني **ريفن** بنظرة سريعة، ثم دعس على دواسة الوقود بحركة واحدة سريعة. فاندفعت السيارة بقوة نحو الزقاق الضيق، دوى صوت هديرها وكأنها هي أيضاً تشعر بالتوتر الذي يجري في أوصالي. وصلنا أبكر مما كنتُ أظن. قفزتُ بسرعة من السيارة، وتركت الباب مفتوحاً، ثم صعدتُ السلالم المظلمة الوسخة إلى أن وصلتُ إلى الطابق الأخير. قرعتُ باب شقة **هارون** مرات عديدة حتى تورمت يداي. ناديتُ اسمه بصوت مرتعش، كعظامي التي كانت ترتعش قبل وصولي إلى هنا. فجأةً، سمعتُ صوت امرأة من خلفي. استدرتُ للوراء بسرعة. كانت تقف خلف باب الشقة المقابلة. لمحتُ عينيها الهادئتين كالشموع السوداء. قالت بلطف «إنه ليس هنا، لقد خرج قبل خمس أو ست دقائق تقريباً».

«أوه **تيلو**، ليتكِ لم تُضيعي الوقت بالثرثرة وارتداء هذا الثوب اللعين».

جلستُ على الدرجة الأخيرة، وأمسكتُ بالدرابزين لأستريح قليلاً، اقتربت المرأة وسألتني باهتمام...

ـ هل أنتِ بخير، تريدين بعض الماء؟.

- لا، أرجوكِ دعيني وشأني، أريد فقط البقاء وحدي لبعض الوقت.

«أدرتُ لها ظهري وسرحتُ بالدماء التي بدأت تصدح بأغنية الندم في طبلة أذني وداخل جفوني... اااه **هارون، هارون، هارون**».

لم أعرف كم مضى من الوقت وأنا جالسة. أمسك **ريفن** بيدي وسحبني بهدوء...

- **تيلو**... لا يمكنكِ فعل شيء الآن، اسمعي، يمكننا العودة في المساء، في طريق عودتنا، وفي أي وقتٍ تريدين.

«حدّقتُ في وجهه... لديه تجعد طفيف بين حاجبيه. بدت عيناه أغمق مما كانتا عليه، وكأنهما علمتاهُ كيف يشعر بأحزان الآخرين، وكيف يحقق رغباتهم، مستعيناً بكل عضلاته وعظامهِ ونبضات دماغه، ليُخلِّصهم من تلك الأحزان (لكن ذلك يكفي لتغيير مجرى حياتنا إلى الأبد) تكهنت «يمكنني الوثوق بهذا الوجه الصادق».

مع ذلك، سألتُهُ:

- قبل الغروب؟

- أعدكِ بذلك، والآن هل يمكنني أن أطلب منكِ طلباً واحداً؟

ـ نعم

«أجبته بالإيجاب غريزياً... أنا **تيلو** التي تقضي كل نهارها في تحقيق الأمنيات، لكني أضفتُ بحذرٍ طبعاً».

إن كان بمقدوري ذلك.

- أريدكِ أن تكوني سعيدة فقط، على الأقل حتى نعود.

«لم أجبه... نظرتُ نحو باب شقة **هارون**، وتذكرتُ النظرة الأخيرة التي رَمَقني بها...»

أرجوكِ **تيلو**، أريدكِ أن تكوني سعيدة فقط.

«عصر يديّ بيديه الدافئتين ...»

«آه أيها الأمريكي الذكي، تعرف تماماً كيف تلعب على أوتار عقلي، وتعرف أنني سأمنحك ما لا أستطيع تقديمه لنفسي، تُرى، هل كل النساء هكذا؟»

- حسناً، سأكون كما تريد.

«شعرتُ بأنني أزلتُ حملاً ثقيلاً عن قلبي. عندما نزلنا السلالم، بدأ ذلك الحِمل الثقيل يحوم خلفنا ـ لكني لن أفكر به الآن ـ منتظراً عودتي في المساء بفارغ الصبر».

ملأ **ريفن** قدحاً من نبيذ أصفر بلون السماء فوقنا وقدمهُ لي. كنتُ أراقبهُ برضىً تام. كان يتصرف برُقيٍّ لم يخلو من البساطة والتواضع. كانت تصرفاته وحركات يديه عفوية بشكل يدعو للإعجاب. تعجبتُ لذلك، فأنا لم أتصرف برُقيّ في حياتي، حتى عندما كنتُ على الجزيرة.

عندما شربتُ من الكأس (سلوك آخر مُحرَّم على عاشقات التوابل) سافر النبيذ عبر جسدي الذي بدأ يبرد ويسخن دون توقف. وبدأت عيناي ترمشان لا إرادياً. فأخذ الكأس من يدي ووضع شفتيه فوق المكان الذي شربتُ منه، ثم حدّق في عينيّ بإمعانٍ. شعرتُ بحلاوة لاذعة في فمي لم تخلو من بعض الخوف والترقب. أصابني الدوار، وفقدتُ الاتصال مع الواقع... تُرى، من السبب في ذلك؟ النبيذ أم هو؟.

تذكرتُ أنني في عطلة الآن. قررت التصرف مثل السياح الذين كانوا يرفرفون حولنا كالفراشات المبتهجة أينما ذهبنا، سواء عند مرسى الصيادين، أو فوق تلال قمم التوأم، أو على جسر غولدن غيت (في سان فرانسيسكو). قررتُ اليوم أخذ إجازة من نفسي. بدت مياه المحيط من بعيد كرقائق الذهب الممتدة عبر الأفق، ما جعل الدموع تترقرق في عينيّ.

«ألا تظنون أنني بحاجةٍ ليومٍ كهذا؟ ولو لمرة واحدة في العمر؟»

جثا **ريفن** على ركبتيه، غير مبالي بسرواله الفخم من ماركة **بيل بلاس**، وقطّع لنا رغيفاً طويلاً من الخبز من أجل الغداء، وشرائح سميكة بيضاء من الجبن، ثم وضع زبدية خشبية مليئة بحبات الفراولة التي بدت كالقُبُلات الصغيرة. عبّرتُ له عن استغرابي لهذا الخليط من الطعام، فضحكَ وأخبرني أن ذلك طبيعي جداً. كان يقول الحقيقة. عندما أمسكتُ بحبة فراولة، بدت لي مثالية كحجرٍ كريمٍ منحنياتُهُ لامعة، وعندما

قضمتُها، سَحَرَني عطرها السماوي البريء. فجأةً، أدركتُ الطريقة التي يرى فيها **ريفن** السلع التي أبيعها يومياً في متجري. **الكمّون، الكزبرة، القرنفل، تشانا دال** (الحمّص المفلوق). تملّكني حزن خفيف مُتعذر تفسيره، كالضباب العابر.

«توقفي يا **تيلو**، اليوم أنتِ في إجازة من أفكاركِ أيضاً»

لذلكَ وجهتُ تركيزي كله على هذا المكان، أمعنتُ النظر في أمواج المحيط وهي تتلاطم من تحتنا. واستمعتُ لأصوات طيور النورس وهي تحلّق فوقنا. سيبقى هذا المكان محفوراً في ذاكرتي أكثر من أي مكان آخر. شعرتُ وأنا مستندة على شجرة سرو منحنية بفعل هبوب الرياح لمدة ألف سنة، وكأنني إمبراطورة راقية. لفت انتباهي حمّام أثري قديم، مكسو بالملح والغبار، يلمع انعكاسه على مياه البحر كالسراب. جلس **ريفن** بقربي وهمسَ في أذني...

- بنى حامٌ مجنون ذلك الحمّام.

- حامٌ مجنون؟ أوه ... مثلي أنا.

ابتسم قائلاً:

- ومثلي أنا.

- **ريفن**؟ بماذا تحلم؟

«تردد للحظة، وبدا عليه بعض الخجل. لم أجتمع برجل خجول من قبل. ثم ارتسمت ملامح مختلفة على وجهه، وعندما قرأتُها، بدأتُ أرتعش من أعماقي. كان يحدثني «لن أخفي عنكِ المزيد من الأسرار بعد الآن».

هذا ما كنتُ أنتظرهُ طوال الوقت، منذ أن تقابلنا أول مرة في تلك الليلة المتلألئة بالنجوم. آهٍ يا **ريفن**، أشعر بالحماقة لأنني أرتجف من الخوف. أنا **تيلو**... التي احتفظت بأسرار العديد من الرجال والنساء. أخاف بعد أن تكشف لي أسرارك، أن أعطيك كل ما ترغب به، فتخرج من قلبي كما خرج كل الذين حققتُ رغباتهم. وبذلك لن تكون مختلفاً عن بقية زبائن المتجر.

«ربما سيكون ذلك أفضل. عندها سأعود لتكريس كل عشقي للتوابل كما في السابق»

بدأ عقلي يبحث عن طريقة لأمنعكَ من الكلام، لكنك سبقتني وخرجت الكلمات من فمك كالرذاذ الذهبي المتطاير عبر هواء البحر المالح...

- أحلم بالجنة الأرضية.

- الجنة الأرضية؟

«جعلني حلمهُ أرجع بذاكرتي إلى البركان على الجزيرة، والبحر الأخضر الملتف حولهُ، وسُعف ثمار جوز الهند المغرية. جعلني الرمل الدافئ المتغلغل بين أصابع قدميّ، وبريقه الفضي في عينيّ، أرغب بالبكاء، لكني لم أسمح بذلك...»

ـ أوه **ريفن**، من أخبركَ عن الجنة الأرضية؟

- في أعالي الجبال، حيث أشجار الكينا والصنوبر، ورائحة الخشب الأحمر الرطب، ولحاء الشجر، وفوهة البركان. وجداول المياه العذبة الباردة، ذات الطعم المنعش، الذي سيجعلكِ تشعرين وكأنكِ لم تتذوقي طعم الماء من قبل.

«آهٍ يا عزيزي الأمريكي، أنت تثبتُ لي أننا نعيش في عالمين متباعدين، حتى في الأحلام...»

استأنفَ...

والطبيعة الخلابة بجمالها وقسوتها، حيث يمكنكِ أن تعيشي حياةً بدائية، بجانب الدببة وهي تمدُّ أفواهها لتلتقط ثمار **الغبيراء** (شجرة برية)، والظباء المستمتعة بهدوء الطبيعة، وأسود الجبال وهي تطارد فرائسها الهاربة، والطيور السوداء المُحلقة في السماء البيضاء. دون تواجد لأي رجل أو امرأة هناك، باستثناء...

«انقطع فجأةً عن الكلام، ومسح شعره الأسود المتقزح براحة يده، ثم استأنف...»

سأخبركِ لاحقاً، لكن عليّ الآن أن أحدثكِ عن حربي.

«حربك؟ أنت يا **ريفن**؟ بهاتين اليدين الناعمتين، والشعر الأنيق، والشفاه

المثالية؟ لا أستطيع تخيل ذلك. وبينما كنتُ أفكر بما قالهُ، حجبت بقعة مظلمة ضوء الشمس، ورفرف سربٌ من الغربان فوقنا، بأجنحة لونها بلون أوراق **النيم**. بدا نعيقها الكئيب كتحذير سَبَقي. لمحتُ حفرةً مظلمة عند زاوية فمهِ المشدود. بدا وجههُ فجأةً مليئاً بالحفر والزوايا، وقد تلاشت نعومتهُ بسرعة خاطفة. شعرتُ للحظة بأن ذلك الوجه قادر على القيام بأي شيء.

«**تيلو** ... رغم أنكِ تعرفين القليل فقط عن هذا الرجل، إلا أنكِ تُضحّين بكل شيء من أجله، أليست هذه ذروة الحماقة؟»

دوى في رأسي، صوت هدير عنيف كأنه طائرة تقذف القنابل لتحجب عني كلمات **ريفن**. لكني عرفتُ مسبقاً اسم المكان الذي كان يشير إليه... إنه غرفة الموت.

سألني مندهشاً...

- هل باستطاعتكِ رؤيتي أنا وأمي داخل تلك الغرفة المظلمة؟ كانت تشدني من أكتافي بيديها كي تحميني من ذلك الرجل العجوز ذو الجسد المتهالك قوي القلب. كنتُ حينها أراقب حقداً واضحاً يلتمع شرراً بينهما. وقد طلب منها بهدوء...

«إيفي، اتركيني وحدي مع الصبي».

لكنها رفضت طلبهُ، فتوسلَ إليها...

«أرجوكِ، لم يعد هناك الكثير من الوقت»

كان صوتهُ وهو يتوسل مثيراً للشفقة. لم أصدق كيف استطاعت أن تقاوم بكل رباطة جأش. أثار عجزهُ عواطفي وبدا لي من نبرتهِ المتقطعة أنه غير معتادٍ على طلب المساعدة من أحد. لكن أمي أشاحت بنظرها وتظاهرت بأنها لم تسمعه، أو بالأحرى، قد سمِعَتهُ لمرات عديدة من قبل. بدت ملامح وجهها قاسية ومرتابة وقبيحة للمرة الأولى في حياتها. أعتقد أن الرجل العجوز قد انتبهَ لذلك أيضاً. تغيرت نبرة صوتهِ، وأصبحت أكثر خشونة ورسمية، رغم أنها بقيت منخفضة، إلا أنها هزت جدران الغرفة كالشلال...

«اسمعي يا حفيدتي، كنتُ آملُ ألا أقول هذا الكلام، لكنني مضطر لقوله الآن، أطلب منكِ أن تسمعي كلامي كتعويض عن كل تلك السنوات التي قضيتيها معي، وكل الأشياء التي قدمتُها لكِ، وتخليتي عنها عندما قررتِ هجراننا».

على الأقل، في تلك اللحظة، عرفتُ من يكون ذلك الرجل، بالنسبة لها، وبالنسبة لي أيضاً...

«كل ما أريدهُ هو أن يختار هذا الصبي دربه في الحياة، كما فعلتي أنتِ بالضبط» أجابتهُ والدتي بصوت مرتجف «لكنه صغير جداً على اتخاذ قرار كهذا» استطاع الخوف أن يسدَّ حنجرتها. تساءلت «من، أمي أنا خائفة؟».

كنتُ مندهشاً، لأنني لم أرها خائفة من قبل. سألها الرجل العجوز بكلمات متقطعة، وكأنه يحاول تسلق هضبة مرتفعة بصعوبة...

«عندما رفضتِ اتباع السبل القديمة، هل أجبرتكِ على ذلك؟ بالعكس، سمحتُ لكِ بالرحيل، رغم أني شعرتُ وقتها وكأن سكيناً قد اخترقت قفصي الصدري مباشرةً، أنتِ تدركين جيداً أنني لن أؤذي ابنكِ».

خيم بعض الهدوء، استطعتُ عندها، سماع أصوات تنفس الحاضرين في الغرفة. قالت والدتي أخيراً بعد أن سمحت لي بالاقتراب منه... «حسناً، يمكنكَ التحدث إليه، لكنني سأبقى معكما في الغرفة».

عندما أفلتتني وتراجعتْ للوراء، بدت وكأنها سحبت كل الضوء المتبقي معها، أو بالأحرى، تلاشى معها ضوء حياتنا اليومية معاً، وكل المهام التي كنا نقوم بها، لكنها لم تترك وراءها سوى الظلام، بل ضوء أحمر وامض يمكنكِ رؤيته فقط إن كنتِ تملكين عينين مختلفتين، وكلمات مميزة... أجل، كانت الغرفة مليئة بالكلمات التي تحتاج لشخصٍ لديه أذنين مختلفتين قادرتين على سماعها. لم ينطق الرجل العجوز بكلمة واحدة، كما أنه لم يتحرك. لكنني شعرتُ بأنه يسحبني من ذراعيّ وساقيّ وصدري. كان الشعور دافئاً، وكأننا نحن الاثنان مصنوعان من نفس المادة... التراب أو الماء، أو ربما من نفس المعدن أو الحجر. أصبحنا الآن قريبين جداً من بعضنا.

اقتربتُ منه أكثر وشعرتُ بأن أحداً ما سيسحبني من الخلف. فقد أرادت أمي ألا أعير أي اهتمام لحياتها السابقة التي استبدلتها بالأثاث الفخم والستائر المطرزة. استطعتُ أن أدرك تماماً أنها لم تكن بحاجة لأشياءٍ كتلك. كل ما كانت تريده هو أن تحيا حياةً مستقرة كأي مواطن أمريكي... هل تفهمين ما كانت تسعى إليه؟

«أوه... **ريفن**، طبعاً أفهم تماماً ما كانت تريدهُ والدتك. فأنا الوحيدة القادرة على رؤية رغباتها القديمة من خلال عينيك. أنا **تيلو**... التي أرادت دائماً أن تكون مختلفة عندما كانت طفلةً صغيرة. أما الآن، أصبحتُ أتمنى حياةً طبيعية في المطبخ وغرفة النوم. أصبحتُ أتشوق لخبزٍ منزلي، وببغاء في قفص، يناديني باسمي كل صباح. أصبحتُ أحسد العشاق على خلافاتهم وسلوكياتهم البسيطة... قبلة... مكياج... هدية».

أوه... يا لسخرية الرغبات، فهي لا تتحقق إلا بعد أن تبتلع الكثبان الرملية المياه، ولا تختلف كثيراً عن الرمال العطشى التي تنتظر قدوم الماء، لأيام وأشهر أو ربما لسنوات. **تيلو**... خذي بعين الاعتبار هذا السؤال، حتى لو استطاعت قصة **ريفن** جذب انتباهكِ، فالبئر المسحور أيضاً قادر على إغراق المسافرين الشاردين... هل نعرف حقاً ما نرغب به؟ هل استطاعت والدة **ريفن** تحديد رغباتها؟ وأنتِ يا **تيلو**... التي تضرعتِ في الماضي لتصبحي «عاشقة للتوابل». هل ستكونين سعيدة في حال أصبحتِ امرأةً عادية؟»

استأنفَ **ريفن**:

تقدمتُ نحوهُ بتلقائية، استطاع سحبني بقواه الخارقة، حتى أصبحتُ أقف أمامه مباشرةً. وأخيراً، سمعتُ صوت الكلمات التي تشكلت منها أغنية دافئة كفرو حيوان برّي يلف جسدي. لم أفهم اللغة بالضبط، لكن المعنى بدا واضحاً بما فيه الكفاية...

«أهلاً بك... أخيراً، لقد انتظرناكَ طويلاً»، مدَّ الرجل العجوز يديه، فحشرتُ يديَّ الصغيرتين بينهما، وشعرتُ بحنانٍ كبير كالذي كنتُ أشعر به عندما

كان والدي يعصر يديَّ بيديه الضخمتين. لكن الفرق هنا أن يديه (العجوز) كانتا هرمتين ونحيلتين، مع الكثير من البقع والتجاعيد على الرسغين. رغم قبح منظرهما لم أعرف سبب شعوري المفاجئ بالسعادة، أمسكتا بي بقوة لم أكن أتوقعها. وفجأةً، بدأت بعض الصور المضيئة تحوم في الهواء «حشد من الرجال والنساء يجلسون على ضفاف أحد الأنهار يحفرون التربة تحت أشعة الشمس الحارقة ويقطعون الأغصان ليصنعوا منها السلال. ويعالجون المرضى بطقوس غريبة، حيث تترك أيديهم المتراقصة بعض التأثيرات الضوئية في الهواء، يجلسون ويحيطون بالنار في الليل، يغنون أغاني الشكر والامتنان ويرشون نشاء الذرة الذي يتوهج أثناء الاحتراق». استنتجتُ أنه يريدني أن أتعرف على نمط حياته، وحياة أجدادهِ الذين ورث عنهم قواه السحرية. حين حدّقتُ بالصور، شعرتُ بآلامهم وأحزانهم الشديدة على رجلٍ استسلم للموت بعينين مفتوحتين. وفهمتُ من ذلك، أنني في حال رغبتُ أن أحيا حياةً كتلك، ما عليَّ سوى أن أطلب.

«تسارعت ضربات قلبي بينما كنتُ أنصتُ لكلماته. من الجميل والمخيف أن ألاحظ أوجه الشبه والاختلاف في حياتنا. فاجأتني فكرة أن يملك **ريفن** تاريخاً عريقاً لا يخلو من السحر والسلطة. تساءلت «ما الذي دفعهُ ليحضر إلى متجري؟». ربما الأمل؟ اااه يا صديقي الأمريكي، أخيراً وجدتُ شخصاً يشاركني حياة العزلة الجميلة والفظيعة، ويتحمّل معي أعبائها الثقيلة...»

استأنفَ...

كنتُ خائفاً. لم أعرف ماذا أفعل. لكنني عندما أمعنتُ النظر بتجاعيده الداكنة حول عينيه الحنونتين كلحاء الشجر، أدركتُ أنه رجلٌ طيب. كانت عيناه تتوهجان كشعلة من النار. أدركت أن هذا الرجل هو جدُّ جدّي؟ خرجت الكلمة من بين شفتيّ كبلسمٍ بارد يلامس ذلك الجسد المحموم.

فجأةً، ظهر العديد من الوجوه المتراقصة على الجدران من وراء كتفه. كانت ملامحها تتغير وتمتزج بسرعة خاطفة. ومن بينها، ظهرت ملامحي وملامحهُ بانعكاس مزدوج كمن يقف بين مرآتين. ثم حشر يده في صدره، وسحبَ شيئاً ما. في تلك اللحظة المروعة، ظننتُ أنه سحب قلبهُ، وتخيلتُهُ وهو يضعهُ بين يدي بلونه الأحمر الداكن... ينزف وينبض بجنون، لكني أدركتُ أنه مجرد طائر جميل أسود كالفحم، لامع كالزيت. يفترش راحة يده الهرمة بهدوء ويحدق في وجهي بعينين كالخرز الأحمر... أومأ العجوز برأسه قبل أن أسأله:

«أجل يا بني... إنه غراب»

سمعتُ صوت قرع الطبول وعزف على المزمار. مدّ جدُّ جدي يدهُ ليُعطيني الطائر، وقبل أن ألتقطه ظهرت صور جديدة أمام عيني «رأيتُ نفسي وأنا ألعب البيسبول مع أصدقائي وأكتب وظيفتي مع والدي، وأجر عربة البقالة لأمي بابتسامتها التي تشبه قطرات الندى تحت ضوء الشمس.

عرفتُ أنني أشاهد حياتي الحالية، والتي عليَّ أن أستغني عنها في حال اخترتُ حياة أجدادي. في تلك اللحظة، شممتُ رائحة أنفاس والدتي العطرة بينما كانت تطبع قبلةً على جبيني. وشعرتُ بخوفها من أصابعها المرتعشة فوق أكتافي. أدركتُ أنني لو تبعتُ طريق أجدادي، لن تكون الأمور على ما يرام بيننا بعد ذلك. خشيتُ أن أحطم قلبها، ووقعتُ في حيرة كبيرة.

تريدين أن تعرفي الطريق الذي اخترتهُ؟ لا أدري، حاولتُ مراراً وتكراراً أن أرسم ذلك المشهد ثانيةً في عقلي، لأرى ما كان ليحدث لو اخترتُ...

«توقف عن الكلام، وحدق في وجهي باحثاً عن بعض الأمل. لكنني لا أحسنُ التنبؤ داخل مملكة الاحتمالات الضائعة. شعرتُ بالأسف»

استأنفَ متثاقلاً:

لطالما حاولتُ عدم تذكر الماضي. لكنكِ تعرفين كيف تسير الأمور،

فالتحكم بالعقل أسهل بكثير من التحكم بالقلب.

«فـرَكَ صـدرهُ مذهـولاً وكأنـه يـواسي جرحـاً قديمـاً. أوه يـا عزيـزي **ريفـن**. الليلـة، سـأضع عنـد عتبـة نافـذتي مرهـم **الأمريتانجـان** (البلسـم)، لـه تأثـير فعـال كالنـار البـاردة والجليـد السـاخن. سيسـاعدك عـلى التخلـص مـن الألم، ومن الذكريات المؤلمة التي تعودنا نحن البشر على التشبث بها...»

في تلـك اللحظـة الحاسـمة، وقبـل أن أقـرر، صرخـت أمـي مـن الخلـف «لا». لطالمـا احتفظـت بتلـك النـبرة الحـذرة كلـما شـعرت بـأني عـلى وشـك القيـام بأمـر خطـير. بـدا صوتهـا لطيفـاً، مُلحـاً. مـن المحتمـل أنهـا لم تكـن ترغـب بالـكلام لأننـي عندمـا التفـتُّ للـوراء، كانـت تسـدُّ فمهـا براحـة يدهـا، وكأنهـا تحـاول منـع حـدوث أي ضرر. عندمـا سـمعتُ صوتهـا، انسـحبتُ تلقائيـاً. مجـرد تراجـع بسـيط للخلـف، لكـن تأثـيره كان فعـالاً بشـكل غـير متوقـع. نعـقَ الغـراب وطـار باتجـاه السـقف، هبّـت ريـاح قويـة مـن تحـت جناحيـه. خفـتُ أن يرتطـم بالسـقف ويصـاب بـالأذى، لكنـه اخترقـهُ بنعومـة كمـن يغطـس في بركـة مـاء، واختفـى. سـقطت منـه ريشـة واحـدة فقـط، هبطـت عـلى يـدي. .عندمـا تحسسـتُ نعومتهـا الفائقـة، ذابـت واختفـت هـي أيضـاً في اللحظـة ذاتهـا، انهـار جـدُّ جـدّي أمـام عينـيّ. هـرع بعـض الرجـال وأمسـكوا بـه، ثـم أومـأوا برؤوسـهم وكأنهـم يدركـون مـا يجـري. وعندمـا لاحظـتُ أنـه لم يعـد يتحـرك، سـمعتُ نحيـب الحاضريـن، لكننـي لزمـت الصمـت. شـعرتُ بالذنـب والخسـارة، خصوصـاً عندمـا تذكـرتُ الحنـان الـذي يُخفيـه وراء وجهـه المجعـد، وتلـك الريشـة الحريريـة التـي هبطـت فـوق يـدي كرمـش العـين. بـدأت أمـي تسـحبني لنخـرج مـن الغرفـة «هيـا دعنـا نذهـب، يجـب أن نخـرج مـن هنـا»، لكنـي لم أتجـاوب معهـا، وشـعرت بالخـوف لكـوني أنـا المسـؤول عـن مـوت ذلـك العجـوز المسـكين. تمنيـتُ الاقـتراب منـه واحتضـان يديـه للمـرة الأخـيرة، لكن كانت أمي أقوى مني.

«سرحَ **ريفن** في الأفق...»

للمرة الأولى في حياتي شعرتُ بأنني أكره والدتي بشدة.

«استطعتُ رؤية ذلك في عينيه. تشوشت عواطفه لوهلة . لم ألاحظ تلك الكراهية العمياء التي نراها عند الأطفال عندما يغضبون، بل شعرتُ وكأنه سقط في بحيرة متجمدة، وعندما خرج، أصبح يرى الأشياء على غير حقيقتها...»

أدركتُ أنه لم يعد هناك فائدة من الشجار معها. وبدلاً من ذلك، انتزعتُ عِقدَها بعنف، فتبعثر مُصدراً صوتاً عالياً. ظننتُ أن ذلك سيلفت انتباه الحاضرين، لكن لم يُعرنا أحد منهم أي اهتمام. أخذت أمي نَفَساً عميقاً، وأمسكت رقبتها متفاجئةً. تناثرت حبات اللؤلؤ في كل الاتجاهات. بدا صوتُها كالصخور المنهارة فوق الوديان. صرختُ في وجهها «لقد آذيتي جدّ جدّي، مات بسببنا أنا وأنت».

«ابتعدتُ عنها ومشيت وحدي في الرواق. علقت بحذائي بعض حبات اللؤلؤ. كدتُ أنزلق. حاولتُ سحقها، لكنها أفلتت وتدحرجت بعيداً. عندما نظرتُ للوراء، بدت حبات اللؤلؤ المنثورة كدموع متجمدة تفترش تلك المساحة المظلمة. ارتعشت والدتي عندما سمعت كلماتي. وبعد أن تمالكت أعصابها، لمحتُ تغيراً واضحاً في ملامحها، فبدا عليها اليأس والاستسلام.

صرخ صوتٌ من داخلي يريدني أن أتوقف، لكن إحساس الجديد بالكراهية أرادني أن أستمر... وبختُها قائلاً:

«كان سيمنحني شيئاً مميزاً، أنتِ من منعهُ عن ذلك، أنتِ المذنبة، أكرهك».

تساءلتُ، لو لم أتفوه بذلك، هل كانت أمي ستعتذر «لم أكن أقصد يا حبيبي، حدث ذلك رغماً عني». لا أظن ذلك. فالغضب أسهل بكثير من الاعتذار، أليس كذلك؟

- بالطبع يا **ريفن** بالنسبة لنا جميعاً.

ـ اسمعي كيف كان ردُها... تكلمت بمنطقية ووضوح، وبما أني أعرفها جيداً، كنتُ الوحيد القادر على كشف غضبها وراء ما تُظهره من هدوء مُصطنع «كان يحتضر على كل حال، ليس لنا علاقة بالأمر، أنا متأسفة لأنك شاهدتَ كل ذلك، إنها غلطتي، ما كان عليَّ سماع كلام ذلك الغبي عندما طلب مني الحضور إلى هنا، أما فيما يتعلق بالشيء المميز الذي ظننت أنه سيعطيك إياه... فلا تجعل تلك الشعوذة تؤثر على عقلك»

بعد أن خرجنا إلى الرواق، رأينا حشداً كبيراً من الناس، رجالٌ أقوياء يرتدون سراويل جينز متسخة، ويأكلون عجينة مقلية منقوعة بصلصة اللحم، مستعينين بأطباقٍ من الكرتون. ونساء بدينات جالسات كالتماثيل، تشربن مباشرةً من زجاجات عتيقة. عندما مررنا من أمامهن «امرأة نحيلة أنيقة وولد بثيابٍ نظيفة »، شعرتُ بأنهم سمعوا كل ما جرى في الداخل، لكنهم استطاعوا إخفاءً ردود أفعالهم خلف وجوههم الفارغة. رفعت إحدى النساء طرف تنورتها لتمسح أنف طفلها. طلبت مني أمي التركيز على ذلك المشهد «انظر، هل ترى؟ هذا ما كنتُ أريد إبعادكَ عنه» لم أعرف إن كانت تشير إلى الطفل، أم إلى تلك المرأة التي رفعت تنورتها، لتكشف عن سيقانها المكسوة بالشعر، وطبقات الشحم الزائدة. شدّت على أكتافي وكررت باشمئزاز «انظر جيداً يا بني، لا تنسى ذلك المنظر، هكذا ستكون حياتك لو نفذنا طلبات ذلك العجوز»، ثم صعدنا إلى السيارة.

كانت شمس الغروب تشبه كرةً ضخمة من **الغولاب جامون** (حلوى هندية) وهي على وشك الاختفاء خلف أمواج المحيط الهادي. حزمنا أنا و**ريفن** ما تبقى من أغراض النزهة. راقبتُهُ من الخلف وهو يُلقي ببقايا الخبز لطيور النورس. كان يتحرك بتثاقلٍ . انتبهتُ لذلك من حركة أكتافه ووركه. ويعود ذلك لقصة حياته السرية التي كشفها بعد معاناةٍ طويلة، بكلماتٍ مؤثرةٍ وقوى خارقة. تمنيتُ أن أعبّر له عن حزني ودهشتي لما

سمعتُهُ، وعن امتناني لأنه فتح لي قلبه، وكيف شجعتني تلك القصة على الاحتفاظ ببعض الألم لأدرسهُ وأفهمهُ وربما أعالجهُ فيما بعد. لكنه لا يبدو أنه كان مستعداً الآن لسماع كل هذه العواطف. إضافةً إلى أن القصة لم تنتهي بعد...

ابتسمَ في وجهي بجدّية.

ـ فلننسى الماضي الآن.

«وكأنه اقتلعهُ منذ اللحظة الحالية، ليعيدهُ إلى مكانهِ الشرعي».

ـ ليتنا نستطيع فعل ذلك حقاً.

ـ هل نتمشى قليلاً على الشاطئ؟ ما زال لدينا الكثير من الوقت لنستمتع قليلاً قبل العودة، طبعاً إن أحببتِ ذلك.

أجبتُهُ بثقة:

ـ أجل... بالطبع أود ذلك.

رغم حزني عليه، وشوقي لمواساته، تحركت بي رغبة أنانية لم أستطع قمعها، هذا ما يسمونه (تناقض المشاعر)، تمنيتُ مناداة أصدقائي ثعابين البحر.

كانت الأم الكبرى لتقول «التمني اللامنطقي لا يجلب إلا خيبة الأمل». لكني لم أستطع المقاومة. هبَّ نسيمٌ عليل. شعرتُ معه وكأن أحدهم يمنحني بركاتهُ، لمحتُ الكثير من النعَم المتناثرة تحت أشعة الشمس المتلألئة كالرذاذ الذهبي. إن أرادت ثعابين البحر رؤيتي... عليها أن تفعل ذلك اليوم.

سأناديها قبل موعد العودة بقليل.

مشينا حفاةً فوق الرمل البارد، استمتعنا بملمسه الناعم تحت أقدامنا. شعرتُ بالاسترخاء بعد أن وصل الرمل إلى كاحل قدمي، آه أيها المحيط... لم نلتق منذ وقتٍ طويل. استحضرت مع كل خطوة العديد من الذكريات، جعلني ذلك أشعر وكأنني أسير فوق عظام مهشمة. فتذكرتُ حكاية تلك

الفتاة التي تمنَّت أن تصبح أفضل راقصة في العالم. فوافقت المشعوذة على تحقيق طلبها «حسناً، كما تشائين، لكن كلما لامست قدمُكِ سطح الأرض، ستشعرين وكأن سكيناً تقطع أصابعكِ وإذا تحمّلتِ الألم، ستتحقق أمنيتكِ دون شك».

«أيتها الأم الكبرى، من كان ليصدق... أن تسير عاشقة التوابل على الشاطئ برفقة رجلٍ من المفروض أن تقاوم حبه، تستنشق برفقته الهواء المالح، وتسترجع ذكريات الزمن الجميل... عندما كنتِ تتخذين القرارات عوضاً عنها»

تكلم **ريفن** بحزن...

- هناك لحظات نادرة في حياتنا، أنتِ أكثر الناس علماً بها، ننتهز خلالها الفرصة لإصلاح ما دمرناهُ في ساعات غضبنا، ذات مرة، حصلتُ على فرصة كهذه، لكنني لم أنتهزها.

«أثناء سيرنا على الشاطئ، بدا هواء البحر المالح كعقار يحرق الحواس. كنتُ ألاحظ كل شيء بدقة متناهية، قطرات الماء المتطايرة في الهواء بعد ارتطام الأمواج بالمنحدر الصخري، الأزهار الزهرية الصغيرة المتوارية بين الشقوق الصخرية في أماكن غير متوقعة والأهم من كل ذلك الندم الواضح في صوت **ريفن** وقد جرفهُ تيار الذكريات إلى أماكن لم يكن يرغب بزيارتها...»

في طريق عودتنا إلى المنزل، توقفت أمي عند إشارة المرور. في تلك اللحظة، بدأت تفرك عينيها المتعبتين بعنف. كنتُ أراقب الخط المنحني بين رقبتها وحنجرتها. بدا رفيعاً ومكشوفاً بشكل لافت. ثم خطرت ببالي فكرة «ما رأيكَ أن تمدَّ ذراعيك لتعانقها وتناديها بتلك الكلمة الطفولية السحرية «ماما» التي كانت ذات تأثير فعالٍ في الماضي. لا داعي للوم والاعتذار والكلام المنمق. دع جسدك يحاكي جسدها بعد أن تحشر وجهكَ تحت رقبتها وتستنشق رائحتها كالمعتاد. «لكن شيئاً ما جعلني ثابتاً

مكاني. كنتُ عنيداً كالحجر. لم يكن ذلك سوى رد فعل طبيعي، نقوم به جميعاً خلال فترة النمو، نعبر من خلاله عن أننا أصبحنا مستقلين عن والدينا، وعلينا مواجهة مشاكلنا وأحزاننا بأنفسنا. أو ربما لسبب أبسط بكثير، كالغيظ المعروف لدى الأطفال «سأدعها تتألم كما تألمتُ أنا».

بعد أن تحولت الإشارة الحمراء إلى خضراء، عادت تقود السيارة من جديد.

«استطعتُ رؤيتهما في مخيلتي، الأم وابنها مرتبطين بعضهما ببعض بحبلٍ مؤلم من الدم. شعرتُ بالكلمات المحبوسة أسفل حنجرتي، والكلمات المحبوسة في حلقيهما، وأدركتُ تماماً مدى صعوبة نطقها. لأنهما مع كل ميل، تجدهما يبتعدان عن بعضهما أكثر فأكثر، فيصبحان بعيدين عن لحظة التسامح التي أُتيحت لهما لفترةٍ وجيزة. حين امتزجت أنفاسهما وتلامست أكواعهما عندما حاولت الأم أن تبلغ علبة السرعة، لن تنصلح الأمور حتى يصبح بينهما فجوة واسعة تُتيح للحب مغادرتهما».

- منذ ذلك اليوم ... أصبحتُ شخصاً مختلفاً تماماً، بدا العالم بالنسبة لي كحقيبة انقلبت رأساً على عقب، فتساقطت منها كل الحقائق وضاعت في الهواء. أصبحنا نقوم أنا وأمي بالكثير من النشاطات، كالذهاب إلى طبيب الأسنان، وشراء ملابس جديدة للمدرسة. كنتُ أسعى لتجديد علاقتنا، لكن ذكرى الوقوف في تلك الغرفة المظلمة غيرت كل الأشياء في نظري. أصبحتُ أحدق بحماقة بسروال الجينز الجديد ماركة (Levi's) الذي انتظرتُ وصوله لأشهر. وكنتُ كلما قرأتُ اللافتة المعلقة في عيادة الطبيب **(ليس عليكَ أن تفرشي كل أسنانك، يمكنكَ أن تفرشي فقط الأسنان التي تريد الاحتفاظ بها)** أجدها مضحكة للغاية. أما الآن، لم تعد تعني لي شيئاً.

«بينما كنتُ أستمع له، تملّكني بعض الخوف كموجةٍ سوداء غير متوقعة. إن استطاعت بعض الطقوس السحرية أن تجعلهُ يشعر بالوحدة، فما الذي سيحدث لي أنا؟ الفتاة القوية، التي كرَّست كل حياتها للتوابل. ماذا سأفعل في حال قررت التوابل هجراني؟ «**تيلو**؟ هل تظنين أنها لن

تهجـرك بعـد كل مـا فعلتـه اليـوم؟». أردتُ أن أخـبر **ريفـن** «يكفـي اليـوم، أعـدني إلى المتجـر» لكنني كنـتُ غارقـة في أحـداث قصتـه، كـما بـدأتُ أفكـر بأمر **هارون** أيضاً.

«في الغد، سأقطع عهداً على نفسي أن أطيع التوابل من الآن فصاعداً»

«في السماء... بدا صوت طيور النورس كالضحك الصاخب».

- وأمـي أيضـاً أصبحـت مختلفـة بشـكل ملحـوظ، في ذلـك اليـوم، عندمـا كنا في السـيارة، تفوهـت بـكلام لم أفهمـه. ربمـا كان ذلـك مـن تأثـير مـا حـدث داخـل الغرفـة عندمـا صرخَـت رافضـاً «لا». صحيـح أنهـا تقـوم بواجباتهـا المنزليـة كالمعتـاد، لكنهـا افتقـرت لحماسـها السـابق. فيـما مـضى، كانت تسـتمتع بصـوت الموسـيقى والمذيـاع، لكننـي أصبحـتُ أراهـا تجلـس بصمـت أمـام النافـذة وتحـدق في الشـوارع والأشـجار والحدائـق المليئـة بالأعشـاب الضـارة. ربمـا أدركـت مؤخـراً أنهـا لم تسـتطع الهـروب مـن ماضيهـا، ولا حتـى في قلبهـا، والـذي يُعتـبر المـكان الوحيـد الـذي نلجـأ إليـه عنـد الـضرورة. لكنـي لم أعـر اهتمامـاً لـكل ذلـك. بـل كنـتُ أركـز فقـط عـلى ذلـك الـشرود الواضـح في عينيهـا، قبـل أن تهـرع مسرعـةً لتلعـب دور الأم وربّـة المنـزل، وتُحـضّر وجبـةً خفيفـة لي. كانـت تشـعر بالذنـب مـا دفعنـي لاسـتغلال الموقـف، كأي طفـل يسـتغل نقـاط الضعـف لـدى أهلـه، بـررت ذلك«هـذا جيـد، إنهـا تسـتحق ذلـك». إضافـةً إلى أننـي فكـرتُ بطـرق عديـدة لمعاقبتهـا. منهـا الجلـوس والتحديـق في وجههـا أثنـاء قيامهـا بالأعـمال المنزليـة، كمسـح الأرضيـة، وتنظيف الأثـاث. بينـما كنـتُ في المـاضي أسـتمتع بالنظـر إلى تحركاتهـا الطبيعيـة في المنـزل، لاحظـتُ في الآونـة الأخـيرة تصنُعـاً واضحـاً، فقـد أصبحـت تبـذل جهـداً أكـبر كي تبـدو مختلفـة قـدر الإمـكان عـن نسـاء عشـيرتها، بشـعرهن الدهنـي وثيابهـن المهترئـة وأولادهـن القذريـن، وشـحومهن الزائـدة. لطالمـا تظاهـرتُ بأننـي أكتـب وظائفـي، بينـما كنـتُ أراقبهـا وهـي تسـاعد والـدي في الحسـابات، كانـت تضغـط عـلى الآلـة الحاسـبة بنعومـة فائقـة. فأجلـس في إحـدى زوايـا

الغرفة، وأحمل كتاباً في يدي، لأراقبها وهي تصب الشاي في أكواب متماثلة لأصدقائها في الكنيسة، لتقوم بعد ذلك بتقديم البسكويت المصنوع بيتياً، وكأنها اعتادت كل حياتها على تقديمه مع الشاي. انتظرتُ طوال الوقت سقوط القناع عن وجهها، ورؤية الضعف في عضلاتها، والضجر في ملامحها. لكنها كانت أقوى بكثير مما كنتُ أظن. مع ذلك، أستطيع القول أنها لم تكن مرتاحة، فعندما نكون لوحدنا، كانت تصرخ «ماذا بكَ؟ أليس لديك أي شيء آخر تقوم به؟ وعندما أتجاهل سؤالها، تصبح عيناها داكنتين من الشعور بالذنب، لكني أدركتُ الآن أن نظرَتها لم تكن سوى نتيجة عجزها عن تفسير سلوكها. فلا تجد حلاً غير مغادرة الغرفة بهدوء. وعندما يحضر الضيوف إلى منزلنا، ترمقني بنظرة هادئة لا تخلو من الاستعطاف «أرجوك، اذهب إلى غرفتك» وعندما أرفض طلبها، تشعر بالاضطراب فوراً، يجعلها ذلك تتلعثم أو تسكب بعض الشاي فوق غطاء الطاولة نتيجة ارتباكها. لطالما أثنى أصدقاؤها «أوه ... يا له من صبي مهذب وهادئ، كم أنتِ محظوظة يا **سيليستينا**، أتمنى لو كان أولادي مثلهُ». كنتُ أخفض رأسي بتواضع وأبتسم بخجل، وبكل تهذيب، لكني كنتُ ألمحُها من تحت رموشي، وأدركُ أنها تعرف تماماً ما كان يدور في ذهني «ماما؟ ما الذي سيقوله أصدقاؤكِ عندما يكتشفون أصولكِ؟ ماذا ستفعلين لو عرفوا اسمكِ الحقيقي؟ أوه... ما الذي سيقوله بابا لو عرف...؟».

«ابتسم **ريفن** بحزن ...»

- أعرف أنك لا تستطيعين تخيل أو حتى تقبُّل فكرة أن يعامل الولد أبويه بهذه الطريقة. خصوصاً أنكِ منحدرة من أصول هندية.

«ضحكتُ لسذاجته. أوه... يا عزيزي الأمريكي، لقد بالغتَ في مديح بلادي وأهلي، بالأحرى في مديحي أنا **تيلو** الفتاة العاصية، التي لم تُطع في حياتها أوامر والديها الحقيقيين، ولا حتى الأم الكبرى. والتي لم تتسبب سوى بالمشاكل أينما ذهبت. هل سيأتي ذلك اليوم الذي سأخبرك فيه

بكل هذا؟».

أجبتُه بامتعاض ...

- الحضارة الهندية ليست تماماً كما تظن.

- أخبريني الحقيقة، ألم تلاحظي كم كنتُ ولداً سيئاً، لا يطاق، بائس، معقّد، غير طبيعي؟.

أنت محقة، فقد كنتُ كذلك بالفعل.

أردتُ القول له «من أنا لأحكم عليك؟ كما أنني لا أرغب بذلك، وكسيدة توابل لا يسمح لي وضعي بفعل ذلك، وكامرأة مليئة بالعيوب مثلكَ تماماً ...لا أستطيع، إضافةً إلى أنكَ حكمتَ على نفسك منذ سنوات».

لكنني استطعتُ فقط أن أُربت على ذراعه، وأقول...

- **ريفن**، لا تقسو على نفسك أكثر من ذلك.

«أدركتُ من نظرتهِ البائسة أنه قد حكمَ على نفسهِ مسبقاً، بطريقة أو بأخرى».

«استأنف...»

لم تكن أمي سريعة الغضب أو عنيفة. لكن نادراً ما كنتُ أجعلها تفقد أعصابها. كنتُ في البداية، أشعر ببعض الرضا، وتأنيب الضمير عندما كانت توبخني بهدوء. لكن عندما أرتدي قناع اللامبالاة، ترتفع طبقة صوتها وتبدأ بالصراخ كالمجانين «لا أعرف لماذا تعاملني بهذه الطريقة، ماذا أفعل معك؟». كانت تتجنب استخدام الألفاظ النابية دائماً، كانت تثير إعجابي. رغم ذلك، كنتُ أدخل إلى الحمّام، وأحدق في المرآة، وأداعب شعري الذي بدأ يزداد خشونةً كل يوم. وأتحسس عظام وجهي الضعيفة، وهي تنطق بصعوبة الكلمات المحبوسة في عقلها كل الوقت «ماذا يمكن أن أتوقع من صبي هندي مثلك؟».

«رغم مرور كل تلك السنوات، لم يفارقهُ الشعور باحتقار الذات، أصعب أنواع الكراهية...

سألتُهُ ...

- ما الذي جعلكَ تظن أنها تفكر بتلك الطريقة؟ استنتجتُ من كلامك، أنها ليست من النوع الـ..

«قاطَعَني...

- أجل... أجل، كنتُ أظن ذلك أيضاً، فعندما أتذكر أحياناً كيف كانت تحضنني في فراشها وتقرأ لي حكاية قبل النوم، وتسهر طوال الليل لتضع كمادات الثلج على جبيني عندما أكون مريضاً، أحاسب نفسي وأعترف بأنني بالغتُ في ردة فعلي. لكن عندما أتذكر ذلك اليوم الذي دخلنا فيه تلك الغرفة المظلمة، التي كانت تفوح برائحة البطانيات المتسخة والحفاضات القذرة، تتملّكني مشاعر سلبية اتجاهها، خصوصاً عندما أتذكر اشمئزازها من منظر رجال عشيرتها وهم يتناولون الخبز المقلي المنقوع بصلصة اللحم، والنساء اللواتي تشربن مباشرةً من زجاجات قديمة. والأسوأ من كل ذلك، احتقارها لنفسها، بما أنها واحدة منهم وستبقى كذلك للأبد، مهما حاولت إنكار الحقيقة.

لطالما سألتُ نفسي «إذا كنتِ تكرهين نفسكِ إلى هذا الحد، كيف سنتفّهم بعضنا؟».

لو استطعنا مناقشة ما حدث ذلك اليوم بكل صراحة ووضوح، حتى لو تشاجرنا قليلاً، لأصبحت الأمور بيننا أفضل بكثير. لكنها لم تقم بأي مبادرة، فقد كان ماضيها مترسخٌ في أعماقها، كرأس سهم مكسور تحمله داخلها طيلة حياتها دون أن تلمسه كي لا ينغرز بعمق أكثر ويخترق قلبها. للأسف، أدركتُ كل ذلك الآن، لأنني وقتها كنتُ صغيراً وهي الراشدة التي كنتُ أثق بها. انتظرتُها طويلاً لتقوم بأول خطوة. عانيتُ من الحزن والغضب والتوتر، إلى أن فات الأوان.

«راقبتُ عينيه عند الغروب. انعكسَ الوهج الذهبي عليهما عندما أطال التحدّيق في المحيط. كنا نبعد كثيراً عن ذلك الحمّام الأثري المكشوف تحت السماء الهادئة. كان يقف بثقة وشجاعة تامة. من الصعب تصديق

مـا قالـه منـذ قليـل *الحـزن، الغضـب، التوتـر*. لا يبـدو عليـه ذلـك. لكـن في الحقيقـة، لا بـد أنـه يحتفـظ بمشـاعر كتلـك في مـكانٍ مـا داخلـه، لذلـك يجـب أن أبحـث عنهـا لأنزعهـا مـن قلبـه. لكنـي لـن أسـتطيع فعـل ذلـك قبـل أن يُخبرني عن كل آلامه. لذلك استجوبتُهُ مكرهةً...»

- **ريفن**؟ ما الذي أغضبكَ أيضاً؟

«صَمَـتَ للحظـة. ظننـتُ أنـه سـيتجاهل سـؤالي. لكنـه هَمَـسَ بصـوتٍ منخفض، بالكاد استطعتُ سماعهُ...»

- ذلك الغراب.

أجـل... ذلـك الطائـر الأسـود الجميـل الـذي تفاجـأ عندمـا صرخت أمـي «لا» واختفـى نحـو السـماء بعينيـه الحزينتـين كالخـرز الأحمـر. كان نعيقـهُ أكـثر مـن مجـرد صراخ. لطالمـا حلمـتُ بـه مـن وقت لآخـر. وعندما أسـتيقظ، أشـعر بحكّة في راحـة يـدي التـي هبطـت عليهـا ريشـتُهُ العجيبة. فأتذكـر تلك اللحظـة عندما احتضـن جـدُّ جـدي يـديَّ بيديـهِ الحنونتـين. فيـزداد غضبـي عـلى والـدتي كـما يغضـب الأطفـال عـادةً، وأحدّث نفسي «بسـببها، فقدتُ ذلك الطائر وكل الأشـياء التـي كان سـيعطيني إياهـا»، ثـم ألوم نفسي لأننـي لم أوقفها عند حدِّهـا. لماذا لم أتمسـك بذلـك الطائـر؟ لمـاذا لم أصرخ (نعـم) مُخالفـاً صرخَتَها؟. بعد ذلـك، بدأتُ أفكـر بالقـوى التـي شـعرتُ بهـا للحظـة قرب ذلـك السريـر العتيـق، والتي بدت كالحـرارة التـي نشـعر بها عـادةً عندمـا نفتح باب الفرن، شـعرت بهـا بطريقةٍ ما (لكنـي لم أجـد الكلـمات المناسـبة لتفسـيرها لأحـد ولا حتـى لنفسي) وقـدرة تلك القـوى عـلى معاكسـة اشـمئزاز أمـي مـن كل مـا كان يـدور حولهـا كالبسـاطة والفقـر والقـذارة والكحـول. كانـت عـلى علـم بذلـك، لكنهـا لم تعـترف بـه ليبقى الأمـر مخفيـاً عنـي. وهذا مـا جعلني أتمـرد بجنون. فبـدأتُ أتغيب عن المدرسـة، وأتسـكع مـع أصدقـاء فاشـلين وأتشـاجر يومـياً، فأسـتمتع بذلـك الشـعور عندما ألكـم أحدهـم بعنـفٍ مسـبباً لـه كدمـات تخلف الدمـاء وراءهـا فأشـمُّ رائحتها، وأحـس بـألمٍ جديـدٍ في قبضتـي يُنسـيني ذلـك الألم القديـم الـذي لم يفارقنـي إلى

اليوم. كانت الإدارة تستدعي والدتي التي كانت تُنصت للمدير بهدوء، ثم تسحبني إلى السيارة وتعصر وجهها بيديها دون أن تصرخ في وجهي، لأنها تعلم أنني لا أمانع إن فعلت. لم تكن تُسمعني سوى بعض التذمر «لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، يجب أن يعلم والدكَ بالأمر». لكنها لم تخبرهُ بأي شيء.

«تذكرتُ والدهُ الهادئ، ذو اليدين الحنونتين، وسألتُهُ...»

- ووالدك، ما دوره في كل ذلك؟

أصبحنا عند نهاية الشاطئ الآن. كانت المياه الذهبية تتجمع داخل النتوءات الصخرية المظلمة. سمعنا صوت الفقمات الكئيب ينادي من بعيد. تنهدَ **ريفن** وبدأ من جديد...

- كان والدي الضحية الحقيقية في تلك الحرب الباردة التي كانت تدور بيننا أنا وأمي. كان عندما يفتح باب المنزل، نضع قناع اللطف والمحبة، فنعامل بعضنا بكل احترام أمامه. هذا ما يسمونه اتفاقية غير مُعلنة. كانت محبتُنا له هي الشيء الوحيد المشترك بيننا. كنا نتحدث مع بعضنا بشكل طبيعي ونبتسم ونتعاون في الأعمال المنزلية ونتشاجر حولها كما اعتدنا أن نفعل في السابق. لكننا لم نستطع أن نخدعهُ. بدا وكأنه سمِعَ كل مفردات الكراهية التي كنتُ أنعتها بها. ربما وجدت تلك الكلمات طريقها إلى قلبه. كان يذهب إلى عمله مدعياً عدم معرفته ليحافظ على الاستقرار في منزله. والأصعب من كل ذلك، سعيهُ جاهداً ليجعلنا سعداء، فكان يأخذنا إلى أماكن مميزة في عطلة نهايةِ الأسبوع. نركب القوارب، ونحضر مسابقات رعاة البقر في **كاو بالاس**، ونذهب إلى السينما. ونجلس نحن الثلاثة في شاحنتهِ التي كانت تصعد إليها والدتي بثيابها الأنيقة، لتجلس بفخر بين رجليها الوسيمين (كما كانت تصفنا). ربما ظن كل من رآنا أننا عائلة مثالية. لم يكن والدي يملك حساً فكاهياً عالياً، رغم ذلك، عندما كان يقص أية نكتة سخيفة، نضحك بجنون مبالغ فيه ليردد صندوق الشاحنة المغلق صدى ضحكاتنا الزائفة. كنتُ ألمح أبي في المرآة وهو ينظر

إلينا بعينين حزينتين. أردتُ أن أخبره بكل شيء، لكن كيف أفعل ذلك دون أن أخون والدتي؟ رغم كل حقدي عليها، لم أستطع إفشاء سرّها.

بعد ذلك، لم يعد هناك متسعٌ من الوقت ...

لا أستطيع نسيان ذلك اليوم حين عدتُ من المدرسة. كانت أمي تصنع لنا براوني بالشوكولا. أعشق تلك الحلوى. لطالما توسلتُ إليها كي تصنعها لي كل يوم عندما كنتُ أصغر سناً. لكنني شعرتُ بالغضب ذلك اليوم عندما رأيتُها تصنعُها في المطبخ، هل ظنَّت أنها ستصلح الأمور بيننا بقطعتين أو ثلاثة من البراوني؟ لم ألمس منها قطعةً واحدة مع أنني كنتُ أتضور جوعاً. وبدلاً من ذلك، حضّرتُ لنفسي بعض الشطائر وكأساً من الحليب ودخلتُ غرفتي. وبعد أن أكلتُها كلها وشربتُ الحليب حتى آخر قطرة، استلقيتُ فوق السرير، وتأسفت لحالي. كانت رائحة الشوكولا تفوح في كل أرجاء المنزل ما جعل معدتي تدمدم من الاشتهاء. لم أعر أي اهتمام لرنين الهاتف، لأنني كنتُ مشغولاً في التفكير بطريقة أهرب فيها من البيت كي أثير قلقها أكثر. وفجأةً، قرعت باب غرفتي، وعندما فتحتُ الباب مهيئاً نفسي لأشتمها ببعض الألفاظ البذيئة، وجدتُها صامتة كالحجر، تحمل في يدها مفاتيح السيارة. أخبرَتني بوجه شاحب «يجب أن نذهب حالاً إلى المستشفى، حدث انفجار كبير في معمل التكرير».

تعانقنا لا إرادياً وبدأنا نرتعش قليلاً. أثناء مشاعر الخوف التي بدأت تجري في عروقي، تمنيتُ أن يحصل بيننا كما في الأفلام... تودد ما بعد المأساة... لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، ولا حتى عندما رأيناه مستلقياً على سرير المستشفى، بدا كالحجر الأبيض بسبب كل تلك الضمادات والتخدير والمُسكِّنات التي وصفها له الطبيب. شعرتُ به يتألم كثيراً لأنه كان يرتعش مع كل عملية شهيق. لكنه عندما توفي بعد ساعات قليلة، لم يَصدر عنه أية ضجة توقف في التنفس فقط. هكذا تموت الأرواح المباركة... قرأتُ ذلك في أحد النصوص البوذية... لم يختلف موته كثيراً عن

حياته، إذ لم يستطع أحد حتى أقرب الناس إليه معرفة مدى معاناته.

عندما تأكدت أمي أن زوجها قد توفي، بدأت تبكي وتنشج وترتجف، كما لو أن حياتها قد ضاعت إلى الأبد. لم أستغرب ذلك، لأنها فقدت الإنسان الوحيد المؤمن بتلك الشخصية الزائفة التي صَنَعَتها لنفسها وحافظت عليها كل تلك السنوات. أما أنا أجلتُ بكائي لوقتٍ آخر. لم أستطع في البداية، تصديق أنه توفي. حدثتُ نفسي «سأجد حلاً لذلك فيما بعد، أما الآن، يجب الاعتناء بأمي».

عانقتُها وحاولتُ قراءة مشاعرها كي أعرف كيف أواسيها.

هل تريدين أن تعرفي بماذا شعرت؟

«لم أستطع التحديق في عينيه الغاضبتين...

لم أشعر بأي شيء... دموع محبوسة، أم ترمَّلت حديثاً، عرفتُ كل المشاعر المطلوبة في تلك اللحظة «الرثاء، الندم، الحماية، الحب»، لكنني لم أشعر بكل ذلك. عانقتُها لأن هذا ما يفعلهُ الجميع عادةً في لحظات كتلك. لكننا كنا غير مترابطين من الداخل، أو بالأحرى منفصلين تماماً وكأن أحدهم قطع كل الروابط بيننا بساطورٍ حادّ... أوه ليس بيننا فقط، بل بيني وبين الجنس البشري كله.

«واسيتُهُ بكلمات جوفاء...

- ربما كان ذلك من تأثير الصدمة فقط.

ـ ما تقولينهُ صحيحاً، لا زلت أشعر بالصدمة للآن. رغم مرور كل تلك الأسابيع والأشهر والسنوات وحتى عندما دخلتُ إلى الكلية... يبدو أنها ستطاردني مدى الحياة.

«فَرَكَ صدرهُ من جديد، بدت عيناهُ فارغتان كحفر جوفاء تحت سماء الليل...»

هل تعرفين يا **تيلو** ما هو أتعس شعور في العالم؟

أن تعانقي شخصاً كنتِ تحبينهُ في الماضي، لكنكِ أصبحتِ تشعرين اتجاهه الآن بشعورٍ ... لن أُسميه كراهية لأن لها تشعبات كثيرة، بل مجرد

بـرود أو جفـاف ينمـو ويـزداد داخلـكِ باسـتمرار، فـلا تشـعرين بالفـرق بـين عناقه وفراقه».

«أوه... عزيـزي **ريفـن** تخيلـتُ أننـي أطبـع قبلـةً حنونـة عـلى خـدّهِ شـفقة عليـه. إنـه عـلى حـق. فذلـك بالفعـل أتعـس شـعور في العـالم. مـع أننـي في الحقيقـة... لا أدري. لطالمـا نسـيتُ المـاضي وتذكـرتُ الحـاضر فقـط. لم أعـر اهتمامـاً لحيـاتي السـابقة. أنـا **تيلـو**... التـي أصبحـت تؤمـن بـأن زوايـا القلـب الفارغـة بحاجـة لمـن يملأهـا. أعتقدهـا حالـة إنسـانية طبيعيـة، في الوقـت الراهن على الأقل».

شـعرت بـأن أحدهـم يعـصر قلبـي بقـوة كـما تعـصر النسـاء الغسـيل المبتـل ليجـف. أعـترف للمـرة الأولى في حيـاتي أننـي وقعـتُ في الحـب. لكـن، يختلـف هـذا الحـب كثـيراً عـن حبـي لـلأم الكـبرى أو للتوابـل حتـى. لأنـه حـب إنسـاني يصعـب تفسـيره، يتطلـب الكثـير مـن الأخـذ والعطـاء والاسـتياء والحـماس. فهـو مغامـرة خطـيرة. لا أقصـد بالخطـورة خـوفي مـن عقوبـة التوابـل، بـل الخـوف الحقيقـي يكمـن في خسـارة هـذا الحـب الجديـد. فكيـف سأسـتطيع العيـش بعد ذلك؟ أنا **تيلو**... التي لطالما اعتقدت أنها لا تُقهر.

كان عـليَّ الابتعـاد عـن **ريفن** لأتفادى ذلـك ولكن بطريقة ما التقت شـفاهنا. لم تكـن مجـرد شـفاه ناعمـة لصبـي صغـير بل شـفاهٍ مثيرة لرجـلٍ وسـيم. عانَقَني بحرارة. كنا بحاجة ماسة لتقبيل بعضنا، ليس بدافع الشفقة بل بدافع الحب.

وفجـأةً، قمنـا بتقبيـل بعضنـا قبـل هبـوط الليـل بلحظات...كانـت أول قبلـةٍ لي، جعلنـي لعابـهُ الحلـو ولسـانه المكتنـز أصـاب برعشـةٍ لم أشـعر بهـا مـن قبـل (هـل هـذا مـا يفعلـهُ البـشر عـادةً؟). بـدأت معـدتي بالتخبـط، كمـن يسـير في طريـقٍ مـليء بالمطبـات. إلى أن تلاشـت أخـيراً فكـرة الخجـل مـن هـذا الجسـد الهـرم. تمنيـتُ في تلـك اللحظـة، كـما تتمنـى كل النسـاء عـادةً، أن يـدوم هذا الشعور إلى الأبد.

فجأةً، سمعنا صوت ضحكات ساخرة. كانت عاليةً كالأجراس، لدرجةٍ جعلتني أستعيد وعيي. عرفتُ من كان يضحك علينا قبل أن أنظر للوراء.

أجل... مجرد فتاتين من شلة فتيات (الجهنمية). كانت إحداهن متكئة على ذراع صديقها والأخرى مستندة على سيارة سوداء لامعة، ذات إطارات ذهبية برّاقة. لفتت انتباهي جواربهن الحريرية الفضية الطويلة والمُرصعة بالألماس، وشعرهن المجعد، ورائحة عطورهم الثمينة من ماركات عالمية «**أوبسيشن، بويزن، جورجيو ريد**»، والفساتين المخملية بلون القشدة، والمكشوفة عند الظهر، والشق عند الفخذين وكأنها مصنوعة من السحر. إضافةً لأجسادهن السمراء الذهبية الدافئة والمتحمسة للمغامرات والمسافات البعيدة، تماماً كمحرك السيارة.

التقيتُ بهن آخر مرة عندما حضرن إلى متجري لشراء الزعفران والفستق، تُرى ما الذي تفعلنَهُ هنا؟

قالت إحداهن...

- لن يكون الطعام لذيذاً، لكن يعجبني المنظر من هنا.

«أوه... أجل. لمحتُ ذلك المطعم عندما وصلنا. لونهُ بلون الصخرة العملاقة الموجودة فوقهُ، اسمهُ مُعلَّق على لافتة زجاجية منحوتة بإتقان. إضافةً للتصميم الداخلي الزجاجي أيضاً، لينعكس عليه المحيط فيبدو كطبق من الذهب...»

ردت الفتاة الأخرى على صديقتها...

- أعرف ذلك.

ثم نظرت في وجهي مباشرةً من خلال رموشها الطويلة. كانت شفتاها تلمعان كالتوت البري. لم تستطع إخفاء ابتسامتها. أدركتُ بأنني ما زلتُ في أحضان **ريفن**. ثم همسَ صديقها الأبيض بكلامٍ لم أسمعه. يبدو أنها غير متحفظة... رغم ذلك، قالت متهكمة...

- أوه ... لدى بعض الأشخاص ذوقاً مختلفاً على ما أظن.

أصبحت تحدق في وجه **ريفن** الآن. شعرتُ بعينيَّ تقدحان شرراً، كالانفجارات الصغيرة الملتهبة.

ضحكت الفتاة المتكئة على صديقها ثانيةً. كان صديقها يُحيط خصرها النحيل المثير. راقبتُ بحسدٍ خط رقبتها الفاتن وصدرها المكتنز المشدود.

قالت بازدراء...

- آه... عرفتُ الآن كيف يُشبع المرء غرائزه الغريبة.

- انظري إلى فستانها، أليس ذلك مثير للشفقة؟ ماذا عليها أن تفعل لتبدو أصغر سناً؟.

«نظر إلينا صديقها الأبيض بضجرٍ ، وكأنه كان قد رأى ما هو أسوأ من هذا من قبل. لم يرغب بتضييع المزيد من الوقت...»

- من الأفضل لنا أن نأكل بسرعة ونرحل من هنا، طبعاً في حال أردنا الوصول إلى المسرح في الوقت المحدد.

«أغلقوا باب المطعم خلفهم بعنف. بدأتُ أرتجف من رأسي إلى أخمص قدميّ. أخذ التوتر يجتاحني كموجات ساخنة، كالطين المغلي، لدرجة شعرتُ بأنني على وشك قذفه من فمي لأحرق هاتين الفتاتين المتعجرفتين...»

- لا تُعيريهم أي اهتمام، فهما ليستا مهمتين أبداً.

«يبدو أنه لاحظ غضبي، فاقترب وضَمَّني بقوة بين ذراعيه، وهمسَ بتلهف...»

عزيزتي **تيلو**، إنهم لا يعرفون من تكونين حقاً ولا يعرفون أي شيء عنا، لا تدعيهم يُفسدون ليلتنا الممتعة.

«توقفتُ عن الارتعاش. لكنهم في كل الأحوال استطاعوا إفساد كل شيء. عدنا إلى السيارة بهدوء، وعندما حاول **ريفن** أن يطوقني بذراعه، منعتُهُ بفظاظة. لم يجرب ذلك ثانيةً. كما أنه لم يعد يرغب بإكمال قصته. قادَ السيارة بصمت عبر الجسر، وعندما ألقيتُ نظرةً للوراء، رأيتُ كيف

أخفى الضباب أضواء المدينة، التي أصبحت تومض كاليراعات المحتضرة.

عندما وصلنا إلى منزل **هارون**، أوقف **ريفن** السيارة وأطفأ المحرك. شكرتُهُ ببرود، فابتسم ...

- سأحضر إلى المتجر في الغد.

- سأكون مشغولة.

«خرجتُ من السيارة بعنف. بدوتُ كالبلهاء وازداد غضبي عندما تذكّرتُ تلك السيقان الرشيقة المخفية تحت الجوارب الفضية المتلألئة...»

- إذاً سأحضر بعد غد.

- سأكون مشغولةً أيضاً.

«صاح صوتٌ ما في عقلي «أوه **تيلو**... أيتها اللئيمة، لم يفعل لكِ شيئاً»

- سآتي في كل الأحوال، أعطِني يدكِ.

«عندما تجاهلتُهُ، سحب يدي بالقوة، وقبَّلَ راحتها بلطف، ثم طوى أصابعي فوق تلك القبلة الدافئة، وتكلم بشفافية، محاولاً كتم ضحكته...

- أيتها العزيزة **تيلو**، ظننتُكِ أكثر حكمةً مني.

«صعدتُ السلالم وأنا أتحسس قُبلَتَهُ الدافئة في راحة يدي، لكني تذكّرتُ فجأةً ما حُرِمتُ منه بسبب تلك الفتاتين المتكبرتين، فشعرت بالغضب ثانيةً... لقد أضعت فرصة لقاء ثعابين البحر.

الفلفل الأحمر (الحار)

بدى باب شقة **هارون** كالقشرة الرقيقة تحت كفّي. عرفتُ أنه غير موجود حتى قبل أن أقرعه. أين يمكن أن يكون؟ هذه المرة الثانية التي لم أجده فيها، مع أنني لم أتأخر. ربما لم يعد من **الناماز** (الصلاة) بعد.

انتظرتُ برهة وطرقتُ الباب من جديد، بهدوء في البداية، احتراماً للجيران. بعد ذلك، فقدتُ أعصابي، وأصبحتُ أطرقُ بعنف حتى تورّمت راحة يدي، وأنا أنادي اسمه بنبرة عالية.

كانت جارتُهُ تقف خلفي بهدوء... قالت بلطف...

- لم يعد حتى الآن، لما لا تدخلين لنشرب بعض الشاي الساخن وننتظرهُ حتى يعود؟

«لم ألاحظ من قبل أن عيناها واسعتين ولامعتين كبحيرة تحت ضوء القمر، إضافةً لعظام وجنتيها المنحوتة كحجر الصابون. بدأتُ أتساءل:

«لماذا تأخر **هارون**، لماذا اليوم بالذات؟»

- تفضلي يا خالتي، لا يوجد أحد غيري في الشقة.

«شكرتُها بشفتين جافتين...»

- شكراً لكِ، لكنني أفضل الانتظار هنا.

- إذاً... لحظة واحدة من فضلك.

«أحضرت من شقتها كوباً من الشاي الساخن، ملفوفاً بمنديل مطرز بعناقيد عنب وأوراق خضراء حريرية. رغم قلقي، لفتت انتباهي الزخارف الدقيقة الأنيقة. شربتُ الشاي المُتبَل بالقرنفل، فشعرتُ بالنشاط والقليل من الصبر. أرادت **حميدة** أن تجلس معي. يبدو أن لديها بعض الوقت. أخبرتني أن **شمسور** خرج مع **لطيفة** ليشتري لها هدية عيد ميلادها. طلبوا منها أن تُرافقهم، لكنها لم تستطع لأنها ملتزمة ببعض الواجبات المنزلية، إضافةً إلى أنها تُفضل البقاء في البيت، كي لا تتشاجر مع **شمسور** في المتجر لأنه يشتري دائماً هدايا غالية الثمن لابنته الصغيرة.

استمتعتُ برفقتها، وأعجبني أسلوبها البسيط في الكلام وحركاتها العفوية، وخشخشة أساورها. بعد غد، ستقيم هي و**شمسور** حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلاد **لطيفة** السادس وسيقومان بدعوة ثلاثة أطفال فقط «زملاء **لطيفة** في الصف» وبعض الجيران الهنود، ومن بينهم **هارون**، لكنه من النوع الملتزم والخجول جداً. على الأغلب أنه سيرسل الهدية سلفاً دون أن يحضر الحفلة لذلك سترسل له **حميدة** بعض مأكولات الحفلة مع **لطيفة**...

- آه يا خالتي، إنه يخجل كثيراً من النساء، فعندما نلتقي على السلالم يتجنب النظر إلى وجهي، ويبادرني السلام قائلاً: «السلام عليكم»، دون أن ينتظر مني رداً.

«أوه، لم أكن أعرف هذا عن **هارون**...»

أظنه لا يدرك كم أنه وسيم، من يدري؟ ربما لا تهمّهُ هذه الأمور، خصوصاً أنه لا يكترث لتسريحة شعره، لو أنه يخصص بعض الوقت لـ...

«تنهدت **حميدة**... لم تخلو نبرتُها من بعض الخطر المُحدق الذي يوحي بانفصالٍ أو عدم استقرار، لا أدري بالضبط، سألتُها بصوت أجش...»

- وزوجكِ يا **حميدة** هل يهمُهُ أمر **هارون** أيضاً؟

«احمرَّ وجهها قليلاً، وابتسمت باستخفاف...»

- **شمسور** ليس زوجي، إنه أخي.

- أين زوجكِ إذاً؟

«أخفضتْ رأسها بحزن، ولم تستطع إخفاء ألمها. ندمتُ على سؤالي السريع. أنا **تيلو** التي من المفروض أن تشعر بكل شيء قبل أن تسأل...»

متأسفة لأنني تدخلتُ في أمور لا تعنيني، هذا الشاي لذيذٌ بالفعل، ما التوابل التي أضفتِها له؟.

- لا، لا عليكِ، بالعكس، شعرت بالراحة للتحدث معك. لا أعرف لماذا؟. في الحقيقة طلقني زوجي منذ عام ونصف عندما كنا في الهند، لأنني لم أنجب له أطفالاً. كما أنه كان يواعد فتاةً أصغر وأجمل مني بكثير، لدى والدها شركة ضخمة لصناعة الأحذية. أين سيجد صفقة مربحة كتلك؟.

«كانت على وشك البكاء...»

لكني رغم ذلك، أعتبر نفسي محظوظة مقارنةً بنساء أخريات، لأن لدي أخ حنون مثل **شمسور**. فعندما علِمَ بمشاكلي مع زوجي، أخذ إجازة من عمله لمدة شهر كامل، بحجة ظروف عائلية طارئة. كان في ذلك الوقت يعمل كرئيس للطهاة في **ممتاز بالاس**، هل تعرفينه؟ إنه مطعم مشهور جداً. لقد اصطحبنا إليه أنا ولطيفة حوالي أربع مرات لتناول العشاء. على أية حال، لقد جاء إلى الهند وتسبب بالكثير من المشاكل حتى حصلنا أخيراً على ورقة الطلاق، ثم كتب السندات المالية بإسمي وأمَّنَ لي فيزا مؤقتة كي أبقى معه هنا في أمريكا. عندما وصلتُ إلى هنا، خاطبني: «**باهن** (أختي) ما رأيكِ بالعيش معي والذهاب إلى الكلية، كي تحصلي على وظيفة محترمة بعد ذلك، تساعدك بالوقوف على قدميكِ من جديد والاعتماد على نفسك؟ لن تجدي هنا من يثرثر قائلاً: «في المستقبل، ستشوه هذه المُطلقة سمعة ابنة أخيها، طفلة سيئة الحظ».

كنتُ خائفة كثيراً من هذه البلاد الجديدة، لكني وافقتُ في النهاية، وبدأتُ أتعلم اللغة الإنكليزية. كما أنني أصبحتُ أتعلم قراءة وكتابة لغة الأمريكان الآن. ربما سألتحق بدورات لتعلم العمل على الكمبيوتر بعد

فترة، يُقيمها المعهد المخصص لغير المقيمين.

«جعلني وجهها المشرق وطريقتها العفوية في الكلام، أشفق عليها...»

- لما لا يا ابنتي.

- أتعرفين يا خالتي؟ يقولون أن الله يساعد كل فاعل خير وهذا صحيح، لأن مدير **شمسور** افتتح مؤخراً مطعماً جديداً أكبر من القديم كي يستلم **شمسور** إدارتهُ بالكامل. لذلك أصبحنا نملك المال الكافي لننتقل إلى شقة أفضل. لكني أخبرته «أخي العزيز، لا داعي للتبذير ومن حسن حظنا أن جيراننا هنا طيبين، وهذا يكفي».

«لاحظتُ تورد وجهها الواضح عندما نظرت بعفوية إلى باب شقة **هارون**. في الحقيقة، تمنيتُ لهما من كل قلبي ما كان يجول في خاطرها.

تأخر الوقت، وأصبح الجو بارداً. لم أنتبه لمرور الساعات. تخدرت ساقيّ من الجلوس على الدرج الخشبي. عاد **شمسور** و**لطيفة** إلى الشقة منذ مدة ودخلت **حميدة** إلى المطبخ لتحضِّرَ لهما طعام العشاء. أحضرت لي بعض الطعام، لكنني لم أستطع ابتلاعه من التوتر الذي كنتُ أشعر به... «**هارون**، أين أنت؟».

- أرجوكِ يا خالتي، انتظريه في الداخل واجلسي على الأريكة الدافئة قبل أن تصابي بالزكام، سأترك باب الشقة مفتوحاً، لنسمعهُ حالما يصل.

- كلا يا حميدة، عليَّ البقاء هنا.

«لم أخبرها أنني أعذب نفسي عن عمد، كتكفير عن ذنوبي وحماية **لهارون**. لكني شعرتُ أنها استوعبت ذلك، لأنها لم تُصرّ...»

- على كل حال، اطرقي الباب إن احتجتِ شيئاً، فنومي خفيف للغاية.

«لم تكن أصوات الليل غريبة على أذني. لكن هذه الليلة بالذات، بدت غريبة لدرجةٍ تجعلكَ تفكر بالنحس والتشاؤم والشرّ المرتقب. سمعتُ صوت خطواتٍ ثقيلة تصعد على الدرج. بدت كصوت سندان الحداد أو ربما صوت تشقق إحدى الدرجات. شعرتُ بصفارات الإنذار تدور في رأسي.

وفجأةً سمعتُ صرخةً مدويةً، لإنسان أو حيوان ربما؟ لم أعرف. تخيلتُ للحظة سكيناً ملطخةً بالدماء، ونجومٌ كثيرةٌ تتدافع بعنف. عندما أصبح صوت الخطوات الثقيلة قريباً جداً، تخيلتُ فيلاً ضخماً يُلقي بنفسه فوق كومة من الحجارة، وتذكرتُ رجلاً عملاقاً كان يعيش في قريتي «رأيتُهُ ذات مرة يرتطم بالحائط فوقعت زجاجة الكحول من يده، وتشظت إلى قطع صغيرة من الزجاج البني المتكسر،إضافةً لانتشار الرغوة البيضاء والرائحة القوية عبر الرصيف الذي ابتلَّ بالسائل الأصفر».

ـ ماذا؟ **هارون** هل أنت ثمل؟

«شعرتُ بالدوار عندما رأيته وبدأتُ بتوبيخه دون وعي»

- هل تعلم كم قلقنا عليك؟ انظر كم الساعة، لقد ضيعتُ وقتي وأنا جالسة في البرد، لأراك على هذه الحالة!؟ لم أكن أتوقع هذا منك، حسب علمي أنت **مسلمان** (مسلم) تقي.

«تخيلتُ نفسي أُحضّرُ له بعض القهوة المُرّة المغلية مع اللوز، ليعود النشاط إلى عقله وقلبه. لكن عندما انحنى قليلاً رأيت جبينه من الأعلى ينزف دماً بلون العقيق الأحمر، طرقتُ الباب بعنف وفتحت **حميدة** بسرعة وكأنها كانت تنتظره مثلي. نَظَرَتْ في وجهي بتوتر، ثم حولت نظرها إلى **هارون** الذي كان منهاراً على الأرض كالمعطف الرث. حبست صرختها «أوه يا إلهي، لا».

هرعت مسرعة لتحضر قطعة قماش ومياه ساخنة. كانت أكثر فائدة مني، أيقظت أخاها وسحبت المفاتيح من قبضة **هارون** وفتحت باب شقته. حملناهُ جميعاً ووضعناهُ في سريره الأعزب المُرتب. كانت جدران غرفته البيضاء فارغة، باستثناء لوحتين مُعلقتين أمام ناظريه، واحدة لصورة سيارة **لامبرغيني** فضية، والأخرى لآية قرآنية مكتوبة باللغة الأردية».

- أوه يا عزيزي **هارون**.

- خالتي، لا وقت للبكاء الآن.

«هذه الفتاة الهزيلة أقوى بكثير مما كنتُ أتوقع...»

ـ أمسكي رأسهُ هكذا، **شمسور**، اتصل واطلب بعض المساعدة.

«كان أخوها يفرك عينيه الوديعتين من النعاس والصدمة. لاحظتُ وجود حدبة صغيرة على ظهره...»

- سأتصل بالإسعاف.

- لا، لا، قد يتصلون بالشرطة بعد ذلك، ما سيسبب لنا الكثير من الإزعاج. قد يتعرض **هارون** للمشاكل. اتصل مع **رحمان صعب** بدلاً من ذلك.

«وصل **رحمان صعب** بسرعة خاطفة، مرتدياً منامة مخملية كستنائية وشبشب من ذات اللون. رجل أنيق ومحترم، له شاربان كثيفان. بينما كان يفتح حقيبته الطبية، أخبرني كيف أنه كان جرّاحاً ماهراً في مستشفى الجيش عندما كان في **لاهور** قبل أن يأتي إلى أمريكا. ثم بدأ يتفحص بخبرةٍ، الجرح الذي عقمَتهُ حميدة .

- كنتُ أسعى لأن أصبح طبيباً مشهوراً في إحدى البلدان الأجنبية، لكن السلطات فرضت عليَّ إجراء بعض الفحوصات التي لم أفهمها وحين حضرت إلى قاعة الامتحانات لم أستوعب أسئلتهم الشفهية السريعة باللهجة الأمريكية، وها أنا الآن أدير محطة بنزين صغيرة. ربما كان ذلك أفضل لي.

«حقنَ **هارون** بإبرة بنج كي يخفف من آلامه...

وبما أنني لا زلتُ أعشق مهنة الطب أصبحتُ أعالج كل أصدقائي وجيراني، وأساعدهم في التشخيص والاسعافات الأولية. ومن حسن حظي أنه لا يوجد قانون يمنع شراء اللوازم الطبية.

«ابتسم لي بينما كان يخيط الجرح وحقنَ **هارون** مجدداً، ثم ناول **حميدة** الدواء المناسب مع الإرشادات، حشرَ أجرتهُ التي أعطاه إياها **شمسور** في جيبهِ بترو...

أظن أن هذه الحياة تناسبني أكثر، على كلٍ، لا تقلقوا كثيراً على هذا الشاب القوي. كان حظهُ جيداً هذه المرة، لكنه لن يكون كذلك في المرة

القادمة... من يدري. يبدو أنهم ضربوه بقضيب حديدي. كانت جمجمتهُ على وشك أن تنقسم كقوقعة الحلزون. وفي حال أصيب بالحمى، اتصلوا بي فوراً.

«سمعتُ صوتهُ على السلالم وهو يعطي **شمسور** نصائح حول البورصة... بقينا أنا و**حميدة** وحدنا في الغرفة. لم تكن تريد ترك **هارون**، لكني طلبتُ منها أن تأخذ قسطاً من الراحة...»

- سيحتاج إليكِ في الغد أكثر من الآن، لأنني لن أكون هنا .

«أومأت برأسها وخرجت من الغرفة بهدوء. آه... هذه الفتاة الذكية بعينين كعيون الغزلان، مهذبة وقليلة الكلام، حتى أنها لم تسألني من أكون، ولماذا جئتُ إلى هنا. لكنني لمحتُ بعض الفضول في عينيها. أتمنى أن تشفي هذه الفتاة الطيبة حياة **هارون** الجريحة ببلسم يديها الحنونتين. لكن كيف ستعتني به؟

وضعتُ راحتي فوق جبينه، لينتقل ألمه إلى جسدي. كان مُغمضاً عينيه. تُرى، هل كان نائماً أم فاقد الوعي؟ لا أدري. كان صدرهُ يهتز ببطء شديد، فوضعتُ يدي فوق فتحتيّ أنفهِ كي أتفقد تنفُّسَهُ. وجههُ شاحباً وعابساً مقارنة بالضماد الأبيض. كان يلومني بصمت «لقد أخفقتِ يا **تيلو**»

«أجل **هارون**، أعرف ذلك، لقد فشلت وخيبتُ ظنكَ... أنا **تيلو** التي أباحت كل المحظورات والتفتت لإشباع رغباتها الخاصة»

شبكتُ يديَّ بيديهِ، وبدأتُ أتأمل بتركيز... «هيا أيها العذاب، تعال إليّ».

وبدلاً من ذلك، فتح **هارون** عينيهِ فجأةً ونظر حوله بذعر. ظننتُ أنه لم يلاحظ وجودي. أصبحت شفاهي شاحبة وبدأ جسدي يحترق من الداخل ثم نطقَ أخيراً «سيدتي العزيزة». ابتسم في وجهي ابتسامةً بريئة، فتفتّحَ قلبي كما تتفتحُ ثمار الرمان، لكنه فقدَ وعيهُ مجدداً قبل أن أرد عليه. اقتربتُ من النافذة، وبحثتُ في السماء عن **دهروفا** (نجمة القطب) سيدة القرارات والحلول، التي لا تظهر إلا قبل الفجر بقليل، أوه **دهروفا**،

أعـدكِ أننـي لـن أُخفـق ثانيـةً سـأفعل كل مـا بوسـعي كي يبقـى **هـارون** في أمان، مهما كلفني ذلك.

أخرجـتُ رزمـة **الكالـوا جـيرا** التـي أحضرتُهـا معـي مـن المتجـر وأفرغتُهـا في يـدي. لمحتُهـا تلمـع للحظـة تحـت ضـوء النجـوم، لكنـي قذفتُهـا فـوق المدينـة النائمـة. لقـد ضاعـت قـوى **الكالوا جـيرا** للمرة الثانيـة. كيف سـتقبل اعتذاري لك أيهـا التابـل الصبـور؟ بإمـكاني ترديـد الـكلام ذاته كالمعتـاد «لقد فـات الأوان قبل أن يسـتفيد **هـارون** مـن قـواك أيهـا التابـل الفعّـال». لم يعـد هنـاك مـا ينقـذ **هارون** الآن، سوى تابل واحد فقط.

أتعرفـون مـا الـذي قـد ترونـه إن وقفتـم خـارج المتجـر هـذا الصبـاح؟ سـترون امـرأة عجـوز بظهرهـا المحنـي، ترتـدي شـالاً رماديـاً، وتحمـل أعبـاء وعودهـا الجديـدة وذنوبهـا وأحزانهـا. آه كـم أنـا مرهقـة، لمسـت مقبـض البـاب بأصابعـي المـترددة، وتسـلل قليـلٌ مـن الخـوف إلى جسـدي كالسـم البطـيء. هل سيمنعني المتجر من الدخول هذه المرة؟.

أدرت المقبـض ودفعـتُ البـاب بـكل قـوتي، فانفتـحَ بعنـفٍ وكأنـه يحـاول خداعي أو اللعب بأعصابي. كنتُ على وشك السقوط.

بـدى الوضـع مختلفـاً في الداخـل. عرفـتُ أننـي لـن أجـدهُ كـما تركتـهُ. شـعرتُ بخلـلٍ في التـوازن ووخـزةٍ في مؤخـرة حنجـرتي وربمـا زيـادة أو نقصـان في السلع... لا أدري.

من كان هنا؟ ولماذا؟.

وفجـأةً رأيتُـهُ قـرب قدميّ. كيـف لم أنتبـه منـذ البدايـة؟ كان **حجـر الشـب** (حجـر طبيعـي علاجـي ويسـتخدم للتجميـل أيضـاً) يلمـع كمكعـب الثلـج البـارد. التقطتُـهُ وتعجبـتُ لمنظـرهِ البريء في راحـة يـدي. آه، حجـر الشـب، مُطهـر الذنـوب. لكـن اسـتخدامه بشـكل خاطـئ قـد يـؤدي إلى المـوت، أو ربمـا أسوأ، كالأسير حياً داخل جسد متحول إلى حجر.

«أيهـا **الفاتكـيري** (حجـر الشـب)! مـا هـي الرسـالة السريـة وراء ظهـوركَ المفاجئ قرب الباب؟»

بـدأتُ أتحسـس ملمسـهُ بأصابعـي، فظهـرت فجـأةً صـورة ضبابيـة تحـت كفّـي. فـرغ المتجـر مـن الهـواء. شـعرتُ للحظـة بالاختنـاق. وأصبحـت الغرفـة ضيقـة مـن حـولي كشـبكة صيـاد تحـاصرني مـن كل الاتجاهـات. لمسـتُ الحجـر ثانيـةً، فانبثقـت صـورة الطائـر النـاري مخترقـاً الرعـد والـبرق. لطالمـا لمحـتُ رسـومات عنـهُ حـين كنـتُ عـلى الجزيـرة، لكنهـا بصـورة معكوسـة هـذه المـرة، لأنـه لم يخـرج مـن بـين النـيران بـل أنـه غطـس فيهـا بعمـق، فهمسـتُ في قلبـي «نـيران **الشـمباتي** تناديـني. وتذكـرتُ الـدروس التـي علّمَتنـا إياهـا الأم الكـبرى في كوخها الصغير.

فقـدتُ الأمـل. لم يعـد هنـاك أي مجـال للمسـاومة. أدركـتُ ذلـك بنفـسي. لن يفيد الإنكار. لم يعد لدي سوى ثلاث ليالٍ.

أغلقـتُ بـاب المتجـر خلفـي بعنـف. شـعرتُ وكأننـي أقـف داخـلَ دوامـةٍ مظلمة. علقتُ على الباب لافتة «مغلق».

«فكّري يا **تيلو**... فكري ما العمل؟»

بقـي اثنـان وسـبعون سـاعة فقـط. بـدأت الدقائـق تنزلـق مـن بـين أصابعي كالميـاه الفضيـة. لا يـا **تيلـو**، لا تفكـري بذلـك. فكـري بواجباتـكِ الأساسـية فقـط «مـن عليـك أن تُنقـذي أولاً قبـل أن تُشـعلي نـيران **الشـمباتي** وتقفـي فوقهـا؟». لم أكـن أتوقـع أن أفعـل ذلـك هنـا في أمريـكا. لكـن هـذه المـرة، بـدون حمايـة الأم الكـبرى. أنـا **تيلـو** ... التـي خرقـت الكثـير مـن القوانـين، تُـرى مـا الـذي ستفعله التوابل بي؟

«كفـى يـا **تيلـو**، فكـري بـآلام الآخريـن أولاً، بعـد ذلـك يمكنـكِ التفكـير بمصيركِ. فكري به، **هارون** الآن...»

أغمضـتُ عينـيّ وتنفسـتُ ببـطء، ثـم رددتُ كلـمات الاسـتحضار... حـضر **هـارون** إلى مخيلتـي... «كان يقـود التاكـسي وسـط ضبـابٍ كثيـف في حـيٍّ لا يعرفـهُ جيـداً، الأبنيـة فيـه ملاصقـة لبعضهـا. معـه راكـبٌ في المقعـد الخلفـي يشـير لـه ذات اليمـين، ثـم ذات اليسـار. بـدت سـيارة الأجـرة الصفـراء كزهـرة

عبّاد الشمس، سهلة القيادة في ذلك الشارع المليء بالحفر والمخازن المختفية تحت الأضواء الخافتة. استطعتُ قراءة أفكار **هارون** في تلك اللحظة «لا يوجد سكان في هذا الحيّ، كان عليَّ رفض هذا الأجر القليل عشرون دولار. طلب منه الزبون التوقف «قف هنا». ارتعشَ **هارون** من نبرة صوته المخيفة وعندما التفتَ للوراء، رأى القضيب الحديدي مرفوعاً في وجهه، فصرخ «لا، لا أرجوك، لا تفعل هذا، يمكنكَ أخذ كل النقود». لكنه شعر فجأةً بوابلٍ من النجوم الفضية، تلسع عينيهِ وفمه وأنفه. كما شعر بيدين ضخمتين تُفتشان جيوبه وصندوق التابلو. ثم صاح صوتٌ آخر خارج السيارة «هيا يا رجل، علينا الهرب من هنا بسرعة». ركب اللص الدراجة النارية خلف صديقهِ وهربا بسرعةٍ قصوى.

شعرتُ بغضبٍ شديد، غضب يحرق بطانة الحلق، غضب أحمر كالجمر، غضب كبركان على وشك الانفجار، غضب كرائحة فلفلٍ حارّ رائحته تحرق العيون... عرفتُ ما يجب فعلهُ الآن.

عندما دخلتُ الغرفة الداخلية لم أكن بحاجة للضوء، ولا حتى لعينيّ. فقد دلتني يداي على الطريق. حملتُ إناء الفلفل الأحمر. بدا خفيفاً أكثر من اللازم. ترددتُ للحظة...

«**تيلو** ...تدركين تماماً أنه لا يمكن التراجع بعد الآن»

بدأت الشكوك تخترق صدري، لكنني تخيلتُ وجه **هارون**، ومن ورائهِ وجه **موهان** الذي أصبح بعينٍ واحدة ومن خلفهما رتلٌ طويلٌ من المظلومين، يمتد إلى ما لا نهاية.

فتحتُ الغطاء بسهولة وتحسستُ ملمس قرون الفلفل. استطعتُ سماع صوت جلجلة بذورها المتلهفة ...

«أوه... **لانكا** (الفلفل الحارّ) يا من كان ينتظر لحظةً كهذه، سأضعكَ في صرّةٍ من الحرير الأبيض، باستثناء قرن واحد فقط، سأتركهُ في قاع الإناء محتفظةً به لنفسي، لأنني سأحتاجه أنا أيضاً، فيما بعد»

قمتُ بربط نهايات الصرّة الحريرية، لتأخذ شكل عُصابة عين، لا يمكن فكُّها إلا بالسكين، ثم حملتُها في يدي وجلستُ باتجاه الشرق منبع العواصف، وبدأتُ ترتيل صلوات التغيير.

استجابت الأرض للترنيمة ببطء في البداية ثم استجمعت كل قواها ورفعتني عالياً حتى اخترقت أشعة الشمس جسدي برُمحها الثلاثي. تلبدت السماء بالغيوم، وسمعتُ همسَ المطر. وجدتُ نفسي فجأةً في قاع المحيط بين الأسماك العمياء بلون الطين. كانت تلامسُ جسدي بصمت وفي نهاية تلك الرحلة ظهر وجهٌ لم أتوقع رؤيته... الأم الكبرى!؟

«توقفت الترنيمة لبعض الوقت، ما فسح المجال لي كي أسأل...»

- أيتها الأم الكبرى، هل هناك خطبٌ ما؟

ـ **تيلو**! ما كان عليكِ فتح إناء الفلفل الأحمر المُغلق بإحكام.

- لكنه الوقت المناسب لـ...

ـ هراء، ما كان عليكِ أن تُطلقي قواه في هذه البلاد التي تملك من الغضب ما يكفي.

- لكن أيتها الأم، إن غضب الفلفل الحارّ نقي. غضب بريء وغير شخصي لا غير، يقوم بالتدمير بهدف التطهير كرقصة الإله (شيفا)، ألم تخبرينا بذلك من قبل؟.

ـ هناك طرق أفضل لمساعدة المظلومين.

«صرختُ غاضبة...»

- ما من حل آخر، صدقيني، هذه البلاد، هذا الشعب، انظري إلى حالهم، ما الذي فعلوه ليستحقوا... آه... بالنسبة لامرأةٍ مثلكِ عاشت حياتها بأمان على جزيرة معزولة... كيف ستتفهمين؟.

«لم تُجبني. لمحتُ في وجهها تجاعيد جديدة وقلقاً مضاعفاً. بدت علامات المرض أكثر وضوحاً تحت عينيها...»

ـ **تيلو**، لم يعد هناك متسعٌ من الوقت، دعيني أبوح لكِ بسرّ... قبل

أن أصبح أماً لكل عاشقات التوابل، كنتُ مجرد تلميذة متمردة مثلكِ...

«بدأت الترنيمة تسحبني من جديد، وبما أنني تمسكتُ بها بكل قوتي منذ البداية، كان عليَّ أن أتعقبها بطاعة...»

ـ وقد تم استدعائي مجدداً وأُجبرتُ على السير فوق نيران **الشمباتي** للمرة الثانية لكنني لم أمت، انظري...

«رفعت يديها المحروقة لأراها. وفجأةً، بدأت رياح الترنيمة تسحبني بقوة أكبر. كان عويلها يصم الآذان. صرختُ بأعلى صوتي «توقفي، دعيني أبقى قليلاً، أريد سؤالها عن بعض الأمور الـ...»

لكنها تغلبت عليّ. سمعتُ صوت الأم الكبرى الذي ابتعد الآن...

ـ ربما أستطيع مساعدتكِ على عبورها بأمان، سأضحي بقواي المتبقية في سبيل ذلك، سأكون شفيعةً لكِ، كي تعودي إلى الجزيرة وتصبحي أماً لكل التلميذات الجديدات.

«فتحتُ عيني... لم أدرك لوهلة أين أنا. يلفني الصمت بالكامل، لا أشياء، لا ألوان، حتى الترنيمة لم يعد لها أي أثر. لا شيء سوى الفراغ. لم أتذكر سوى صوت الأم الكبرى والوعد الذي قطعتهُ على نفسها، والذي شككت به قليلاً. بدأت الأسئلة تحوم في عقلي كالذباب «أنا **تيلو**؟ الأم الكبرى الجديدة؟ هل هذا ممكن؟ هل أرغب بذلك حقاً؟ أن تصبح السلطة المطلقة في يدي أنا؟».

فجأةً، وجدتُ الصرّة الحريرية بين يدي، لكنها أصبحت ثقيلةً الآن، وأكثر صلابة. كان الفلفل الأحمر يتوهج قليلاً من تحت القماش، ربما حاول تغيير نفسه. شعرتُ بأنه أصبح أكثر فعالية من قبل. تحسستُ ملمسه الناعم المعقوف كالفاصلة (،)، يمكن لأي إصبع ثَقبَهُ بسهولة، تسارعت ضربات قلبي وشعرتُ للحظةٍ بالإغراء... لكن لا، هذه الصرّة من أجل **هارون** فقط.

رغم أنني أعرف مسبقاً ما الذي قدّمَتهُ التوابل لعلاج **هارون** النهائي.

أوه يـا للعجـب! شـعرتُ ببعـض الـدوار، فجلسـتُ أسـتمع لضربـات قلبـي المتسـارعة، ثـم سـمعتُ صـوت طـرق يختلـف عـن صـوت دقـات قلبـي. هنـاك أحدهـم عنـد بـاب المتجـر. حملـتُ أطـرافي المتيبسـة كي أفتـح لـه، ودُهِشـتُ لحلول المساء بهذه السرعة

«**تيلو**... لقد مضى اليوم الأول»

ماكارادواج (تابل الشباب)

في الغرفة الداخلية، كان ملك التوابل **الماكارادواج** ينتظر قدومي، فقد عرف أنني سألجأ إليه يوماً ما ... بعد أيام، أشهر، سنوات، لا يهم، ف**الماكارادواج** من التوابل الصبورة. التقطتُ القارورة الرفيعة وحضنتُها بيدي بإحكام كي تسخن.

«أيها **الماكارادواج**، أنا هنا، أعرف أنكَ توقعتَ قدومي، أنا **تيلو** التي لم يعد لديها متسعٌ من الوقت والمستعدة لمخالفة أكثر القوانين قداسةً.

سأل التابل باندهاش «ماذا؟»

«أوه... أيها **الماكارادواج** بما أنكَ تعرف إجابتي مسبقاً، لماذا تريدني أن أنطقها؟»

«بقي التابل صامتاً لوهلة.»

ـ اجعلني جميلة أيها **الماكارادواج**، امنحني جمالاً لا مثيل له على هذه الأرض. أريد جمالاً يتعدى مخيلة **ريفن**، لليلة واحدة فقط، أريده أن ينبهر، أريد أن تبقى آثار جسدي الجديد ملتصقةً بأصابعه للأبد، ما يجعله غير قادرٍ على نسيان ملمسه حتى عندما يكون برفقة امرأةٍ أخرى.

«بدأ التابل يضحك بصوتٍ منخفض وعميق، لكن من دون سخرية...»

ـ أوه... **تيلو**.

ـ أعلم أنني مخطئة في طلبي هذا، لكنني لن أطلب التوبة، ولن أشعر بالعار. بل سأقول لك برأس مرفوع «هذه رغبتي، حققها أو امنعها كما تشاء».

ـ هل ترغبين بها أكثر من رغبتكِ بنا عندما كنا على الجزيرة؟ كنتِ سترمين نفسكِ من أعلى منحدرات الجرانيت لو رفضت الأم الكبرى طلبكِ.

ـ أيها التابل الرحيم، لا مجال للمقارنة بين الموقفين فكل رغبة تختلف عن الأخرى، تماماً كمشاعر الحب. أنت تدرك ذلك أكثر مني، خصوصاً أنكَ ولِدتَ عند بزوغ فجر هذا العالم.

ـ هيا... أجيبي.

ـ أرجو أن تتفهمني، سأقضي معهُ ليلة واحدة فقط، بينما سأقضي معكَ بقية حياتي. وأنتَ من سيحددها، ربما مئة عام على الجزيرة، أو لحظة واحدة أو يمكنكَ أن تُنهيها بمجرد أن تلتهمني نيران **الشمباتي**.

«تلاشت كل شكوكي وآمالي، وتمكنتُ من رؤية مستقبلي عبر القارورة المتوهجة». سأتحمل كل النتائج.

ـ **تيلو**، أنتِ تدركين جيداً أن الحب الآدمي والحياة بين البشر، أمران مُحرَّمان على عاشقات التوابل.

ـ لكني مصرَّةٌ على موقفي. توقف التابل عن الكلام وأصبحت القارورة الآن ساخنة بما يكفي، لاحظتُ ذوبان محتواها. وعندما رفعتُها لأشربها، سمعتُ صوت صدى الأم الكبرى من بعيد...

«**الماكارادواج** ... التابل الأخطر والأكثر فعالية بين التوابل، يجب التعامل معهُ بكل حذر، وإلا لن يجلب لكِ سوى الجنون أو الموت، خذي مقدار قليل منه فقط، واخلطيه مع الحليب وثمار **الأملا** الهندية، ثم اشربيه ببطء، ملعقة واحدة فقط في كل ساعة، لمدة ثلاثة أيام، وثلاث ليالٍ»

شربتُ القارورة دفعةً واحدة، لأنني لم أعد أملك سوى بضع ساعات. أنا **تيلو** ... التي لا تعرف أين ستكون بعد ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.

شعرتُ بحرقة قوية في حلقي لم أشعر بها من قبل، وكأن أحدهم أطلق

النار في حنجرتي. كادت رقبتي تنفجر. نزلت الحرقة من المريء إلى المعدة، وبدأ رأسي يتوسع وكأنه بالون ضخم، ثم تقلص ككتلة صغيرة من الحديد الصلب. استلقيتُ على الأرض. شعرتُ بغثيان عنيف وكأن دماءً غزيرة تنزف من شريان ممزق. أصبحت أصابعي متيبسة ومفلطحة. تشنج جسدي ولم أستطع السيطرة عليه.

«**تيلو** أيتها الواثقة! هل ظننتِ أنكِ ستحتسين السّم مثل الإله **شيفا**، صاحب الحنجرة الزرقاء؟ والذي خاطر بكل شيء من أجل لا شيء؟ هيا... فلتموتي الآن»

لا شيء؟ يصعب تصديق ذلك.

لكن لحظة... خفَّ الألم الآن. لكني لا زلتُ أتنفس بصعوبة. شعرتُ بإحساس مختلف في أعماق جسدي، بدأت عظامي تتقلص وتتلوى وتتشابك. يبدو أن **الماكارادواج** قد عملَ عملهُ أخيراً. خاطبتني التوابل...

ـ **تيلو**، غداً مساءً، ستكونين في قمة الجمال، استمتعي جيداً، لأنكِ ستخسرين كل ذلك صباح اليوم التالي.

ـ آه... أيتها التوابل، لا يهمني ما سيحصل في اليوم التالي، لأنني سأكون قد غادرتُ هذا المكان.

ـ وهل ستكونين سعيدة عندما تغادرين؟ أم أنكِ ستأتين إلينا بقلبٍ مفعم بالندم؟.

ـ بالنسبة لي، لا أشعر بأي ندم، لكن هناك شخصان بحاجة لمساعدتي، ولم أقدم لهما يد العون حتى الآن، لا أستطيع الذهاب بسلام ما لم أعرف نهاية قصتهما.

ـ اااه... تقصدين المرأة وذلك الفتى؟ لكن قصتهما بدأت للتو، أنتِ من شارفت قصتُها على النهاية.

ـ أعرف ذلك. وأعرف أني لا أملك الحق في طلبي هذا، لكنني أريد رؤيتهما للمرة الأخيرة.

ـ رغبات جديدة يا **تيلو**؟ ألم تطلبي رغبتكِ الأخيرة منذ قليل؟.

ـ أتوسل إليكِ أيتها التوابل.

أجابتني بتسامح مُدركةً أنها فازت عليّ...

ـ سنرى...

طلعَ فجر يومي الأخير، تلونت السماء بالنيلي الشاحب وفاح الجو برائحة الورود ما جعلني أتساءل «كيف يحدث ذلك في بلد كهذا؟». كنتُ مستلقية على فراشي الرقيق، خائفة من النظر في المرآة. لكنني استجمعتُ ما تبقى من قواي ونظرتُ إلى يديّ. اختفت التجاعيد من عليها، وأصبحت مفاصل الأصابع مشدودة والأصابع طويلة ومدببة. لم تصبح فتية مئة بالمئة بعد، لكنها في طريقها لذلك. تنهدتُ بقوة...

«أنا متأسفة أيتها التوابل لأنني لم أجرؤ على فعل ذلك حتى اليوم، أوه... لقد نسيت فأنتِ شابة وفتية دائماً ولن تدركي أبداً السرور الذي شعرتُ به عندما نهضتُ من السرير، ومددتُ ذراعيّ الجديدين الفتيين للأعلى، جعلني ذلك أصاب بالدوار من شدة جمال منظرهما المثير. هل هذه هي المتعة المُحرّمة؟.

«أخذتُ حماماً دافئاً وتحسستُ جسدي العاري بأصابعي الفتية، والذي بدأ يزداد قوة مع كل لمسة. تركتُ شعري المبلل ينساب على وجهي لأرى من خلاله النور والظلمة في آنٍ معاً».

«كل هذا الجمال قبل وقت الغروب، إذاً، كيف سيصبح شكلي في المساء؟»

«أوه... **تيلو**، يا من لا تعرف الصبر أبداً. اتركي الأفكار الليلية جانباً. هناك أعمال كثيرة يجب القيام بها في النهار»

ربطتُ شعري للخلف كيفما اتفق، ارتديتُ الفستان الذي اشتريتُهُ من مركز **سيرز** التجاري وفتحتُ باب المتجر لأعلق اللافتة الأخيرة «آخر يوم لبازار التوابل، انتهزوا الفرصة قبل نفاذ الكمية».

وجدتُ عند عتبة الباب سلة من الورود الحمراء، بدا شكلها كدماء

العذارى المُراقة فوق قطع صغيرة من المخمل الأحمر، مع بطاقة مكتوب عليها «أراكِ الليلة». عانقتُها بحرارة متجاهلةً الأشواك، سأضعها في جرة وأعرضها بجانب الكاشير، ثم سنقضي يومنا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض ونبتسم بذكاء، محاولين إخفاء هذا السرّ الجميل.

انتشرت أخبار إغلاق المتجر في كل المنطقة، ليزدحم المتجر بشكل لا يصدق. لم يتوقف درج الكاشير عن الرنين ولا للحظة واحدة. تعبت أصابعي (التي أصبحت أكثر شباباً الآن) من ضغط الأزرار وامتلأ درج النقود لدرجة التخمة، وعندما لم يعد يحتمل المزيد، حشرتُ النقود الزائدة في كيس بقالة، وضحكتُ لسخرية الموقف... أنا **تيلو** التي لن تنفعها كل تلك الأوراق النقدية والتي بدت في الدرج وكأنها أوراق أشجار ميتة. كنتُ أرغب ببيع كل شيء مجاناً، بدافع الحب، لكن ذلك غير مسموح. سألني الزبائن مراراً وتكراراً «لماذا تريدين إغلاق المتجر؟». كانوا متلهفين لسماع السبب. أخبرتهم أن المرأة العجوز تريدني أن أغلق المتجر لأسباب صحية. لا، لا تقلقوا عليها، إنها بخير. فقد طلبت مني أنا ابنة أخيها أن أدير المتجر بدلاً عنها في هذا اليوم الأخير.

أخبروني «كنا نرغب بتوديعها، أرسلي لها تحياتنا وشكرنا وامتناننا، لن ننسى أفضالها».

تأثرتُ بكلماتهم الدافئة، مع أنني أدرك أن كل تلك الكلمات والمجاملات مجرد وهم لأنني سأنسى كل ذلك في الغد. لكني تخيلتُهم يمرون من المتجر بعد أشهر أو ربما سنة، يشيرون بأصابعهم «كانت تدير هذا المتجر امرأة عجوز تتمتع بقدرات عجيبة تمكنها من كشف أعمق الأسرار». سيخبرون أولادهم «آه... أتودون معرفة ما كانت تفعلهُ بالتوابل؟ استمعوا جيداً ...» ليبدؤوا بسرد قصتي.

بعد الظهيرة، جاء جدّ **جيتا** إلى المتجر. كان يمشي ببطء ويتنفس بصعوبة...

- لا زلتُ أشعر ببعض الألم لكني جئتُ أشكركِ وأخبركِ ما حدث بـ...

«توقـفَ عـن الـكلام، وحـدّق في وجهـي باندهـاش. لم تفـارق الدهشـة وجهه حتى بعد أن فسرتُ له...»

- كيف تغادرنا دون أن تقول؟ هذا لا يجوز.

- أوه ... أيها الجدّ الطيب، لم يكن هذا برغبتها، كانت مجبرة على ذلك.

- لكنها تملك قوىً خارقة، بإمكانها أن ...

- لا ... لا تُعطى القوى لغاياتٍ كهذه، أنت كبير في السن ولديك الحكمة الكافية لإدراك ذلك.

«ضحكَ بسخرية، ثم تكلم بجدّية...

- حكمة؟ كنتُ أريد أن أخبرها ببعض الأمور.

- أخبرني لو أحببت، وسأخبرها بكل شيء، لا تقلق.

«يبدو أنه لم يثق بي، فعبس في وجهي وعدَّلَ نظاراتهِ. اشتقتُ لسماعِ قصصه الممتعة...»

ـ هل عادت **جيتا** إلى المنزل أخيراً؟

«ارتعشَ بعصبية...»

- وكيف تعرفين؟

- أخبرتني عمتي بذلك، وقالت لي أن أنتظركَ، لأنها كانت تتوقع قدومك.

«حدّق بي لفترة طويلة، ثم تكلم أخيراً...»

- أجل... لقد عادت مع **راموا**، وفرحت أمها كثيراً لدرجة أنها قامت بطبخ كل ما تحبه **جيتا** من أطعمة في وقت متأخر من الليل «فيليه سمك بالخردل، تشانا دال (الحمّص المفلوق) مع جوز الهند». جلسنا جميعاً حول المائدة وتحدثنا مع بعضنا بكل ود، حتى أنا، لأنني تعافيتُ بعد تناولي الدواء وشعرتُ بتحسن، لكنني للأسف لم أستطع تناول شيء.

«تذكر جوعه، وحركَ لسانه متحسراً على تلك الوليمة السخية التي ضاعت عليه...»

على كل حال، أصبح الجميع سعداء الآن ولم نعد نتكلم سوى عن

الأفلام والعمل والأقرباء في الهند. لم نعد نغضب أثناء النقاش، بالأخص أنا. ستكون عمتكِ فخورة بي لأنني أصبحتُ أصون لساني. لم أعد أتدخل في شؤون الآخرين. لكني ما زلتُ أفرض رأيي فيما يخص الأخبار السياسية الأمريكية. وقبل أن ننهض عن المائدة كي نغسل أيدينا، استمهل **راموا** ابنته قائلاً: «**جيتا**، اطلبي من صديقكِ أن يأتي لزيارتنا قريباً». أجابتهُ **جيتا** بكل أدب «كما تريد يا أبي». ردَّ عليها **راموا** «لا أريدك أن تعتقدي بأنك تحتاجين لإذن للقيام بذلك»، «أعرف يا أبي»، هذا كل شيء، ثم دخل الجميع إلى غرفهم مبتسمين.

«نظر إلى السماء مبتسماً...»

- أنا سعيدة لأجلهم ولأجلكَ أنتَ أيضاً أيها الجدّ الطيب.

«إنه فخور بابنته، مع أني أظن أنهما سيتشاجران مجدداً فيما بعد».

- المهم ألا ينسيا الحب القائم بينهما.

«ربتَ على صدره بفخر...»

- سأُذكّرهما بذلك دائماً.

- بدون أي نقاش، طلبت مني عمتي إعطائكَ كل الكمية المتبقية من زيت **البراهمي**، كي تحافظ على غزارة شعرك.

ـ لا، لا.

ـ إنها هدية وداع منها.

راقبَني وأنا ألف الزجاجات بورق جرائد، وأضعهم في الكيس...

- يبدو أننا لن نراها ثانيةً.

- لا أظن ذلك، ولكن من يدري ماذا يخبئ المستقبل؟

«بدا الحزن واضحاً في صوتي. حاولتُ حبس دمعتي... أخبرني الجدّ قبل أن يغادر...»

- لديكِ عينيها، رغم أني أعرفها منذ فترة طويلة، لم أدرك أن عينيها جميلتين إلى هذا الحد.

«استطاع ذلك العجوز بالرغم من نظاراتهِ الرؤية بعمق، أكثر من أصحاب النظر السليم. لم يُعبّر عن إعجابهِ أكثر من ذلك، كما أنني لم أتكلم كثيراً. كانت تلك اتفاقية غير مُعلنة...»

- أخبريها أنني أتمنى لها حياةً سعيدة وأنني سأصلي لها كلما تذكرتُها.

- شكراً لك، فهي بحاجة ماسة للصلوات.

بعد مغادرته، دخلت امرأة غريبة إلى المتجر. لم أرها من قبل. بشرتُها بلون الخوخ وشعرها المجعد مربوط بضفائر صغيرة. ابتسمت لي كرغيفٍ خرج للتو من التنور...

- واو، مكانٌ جميل، لم أرى مثلهُ من قبل.

«ناولتني ظرفاً يحوي رسالة. ترددتُ للحظة. لكن عندما انتبهتُ لزيها الموحّد وحقيبتها والطائر المنقوش على الشارة المعلقة على كتفها، أدركتُ أنها ساعية البريد...»

- لم أستلم رسالةً من قبل.

أخذتُ الرسالة منها وأنا متعجبة، تأملتُ الكلمات المكتوبة على الظرف، لكني لم أعرف من المرسل...

- هل انتقلتِ مؤخراً إلى هنا؟

- لا، في الحقيقة، أنا على وشك الرحيل.

«أردتُ أن أخبرها عن سبب رحيلي، لكنها لن تستوعب. ليست هي فقط. لن يستوعب أحد سبب هذا الرحيل المفاجئ...»

- هذا آخر يوم لي هنا، سعيدةٌ لأنني استلمتُ رسالة في هذا اليوم.

- أنا سعيدةً لأجلكِ. استغرق ذلك وقتاً طويلاً، لأن المُرسل لا يملك عنواناً، ولا حتى رمز بريدي، انظري...

«أشارت بإصبعها إلى بعض الكلمات المكتوبة، لكن لفتت انتباهي كلمة واحدة فقط **ماتاجي** (الأم المحترمة)».

لا يخاطبني أحد بهذه الطريقة سوى شخص واحد.

«حبستُ أنفاسي للحظة، وبدأت نبضات قلبي تتسارع. شعرتُ بالدوار. لم أستطع كبت انفعالي...»

- تعني هذه الرسالة الكثير بالنسبة لي، شكراً لمجيئك.

«سحبتُ بدون وعي كيساً من **الكيسميس** (الزبيب) الذهبي، لتأخذه معها... هذا لك، من بلادي، سيمُدكِ بالطاقة.

- شكراً، هذا لطفٌ منك.

«حشرت يدها في حقيبتها وبدأت بالبحث عن شيءٍ ما. بقيت تبحث لبعض الوقت. لماذا؟ ما الذي تبحث عنه؟ متى ستغادر كي أفتح الرسالة؟ تفاجأتُ عندما أدركتُ أنها تريد هي أيضاً أن تهديني شيئاً. أعطتني رزمة خضراء، بداخلها مستطيلات رقيقة، تفوح منها رائحة النعناع المنعشة...»

ـ قد تعجبك هذه العلكة، من بلادي **أمريكا**، استمتعي بها أثناء رحلتك.

«تمنيتُ أن تلاحظ امتناني بالنظر في عينيّ، لأنني وللمرة الأولى في حياتي أعجز عن التعبير. انعكست أشعة الشمس على وجهها عند الباب كما كانت تنعكس على وجه زوجة (أهوجا) التي لم تأتِ إلى المتجر منذ فترة طويلة. أقفلتُ الباب خلفها، فهذه الرسالة تحتاج للكثير من التركيز. يجب أن أدقق في كلماتها وما بين سطورها. حشرتُ في فمي قطعة من العلكة فشجعني طعمها الحلو على القراءة...

ماتاجي (أيتها الأم المحترمة).

ناماستي (تحياتي).

لا أملك عنوانك الكامل لذلك لا أدري إن كانت ستصلك هذه الرسالة أم لا. لكن قيل لي أن النظام البريدي الأميركي ممتاز، لذلك لجأتُ إليه لأنني أريد اطلاعك على الكثير من الأمور.

لقد غادرتُ المنزل. أنا الآن في مدينة أخرى، لكنني لا أستطيع ذكر اسمها لأسباب تتعلق بالسلامة. حصل ذلك منذ أسبوع تقريباً، رغم أني بقيتُ أفكر بالرحيل لعدة أشهر.

هل تذكرين تلك المجلة التي أعطيتها لي؟ قرأتُ الإعلانات المكتوبة في الخلف، ولفت انتباهي إعلان محدد، يقول «إذا كنتِ امرأة مقموعة، اتصلي بهذا الرقم لطلب المساعدة». حدقتُ به لوقت طويل. تارةً أقول «لمَ لا؟»، وتارةً أخرى أقول **شرام** (يا للعار) لا أريد أن يعرف الناس أن زوجي يضربني. بعد ذلك، رميتُ المجلة وسط كومة من الصحف القديمة، يجمعُها زوجي عادةً، ليبيعها نهاية كل شهر.

قررتُ نسيان الماضي والمحاولة مجدداً. لا أملك خياراً آخر. قلتُ لزوجي «سأذهب لرؤية الطبيب ليكشف لنا سبب عدم الإنجاب». لم يعترض. بل بالعكس، أعطاني النقود اللازمة لذلك. ربما اعتقد هو أيضاً أن وجود طفل جديد في المنزل قد يُحسِّن الأمور ويقوي العلاقة بيننا. قال لي «كما تشائين، شرط أن تراجعي طبيبة هندية حصراً». لم أجد طبيبة هندية، لكن الطبيبة الأمريكية أخبرتني أني لا أشكي من أية مشاكل واحتمالٌ كبير أن يكون العيب في زوجي. قالت «ربما هناك انخفاض في عدد حيواناتهِ المنوية، دعيه يَحضر لإجراء بعض الفحوصات، لا داعي للقلق. فقد تطور العلم كثيراً، وأصبحنا نملك الكثير من الحلول الفعّالة». لكن عندما أخبرتُهُ بذلك، احمرَّ وجهه من شدة الغضب، وبرزت العروق على جبينهِ كالعقد الزرقاء. صرخ في وجهي «ماذا تقولين؟ أنا لست رجلاً؟ تريدين شخصاً أكثر رجولة؟». بدأ يهزني بعنف، فسمعتُ صوت انحلال عظام رقبتي. قلتُ له «أرجوك، أتوسل إليك، أنا متأسفة، العيب في جسدي أنا، انسَ ما قلتُهُ، لا داعي لأن تراجع أي طبيب». صفعني بقوة ثلاث مرات، وصاح «هذا جزءٌ من خطتكِ أنتِ وتلك الطبيبة الأمريكية التي تقف في صفكِ؟». سحبني بقوة إلى غرفة النوم ورماني على السرير «اخلعي ملابسكِ بسرعة أيتها العاهرة، سأريكِ إن كنتُ رجلاً أم لا». آه أيتها الأم المحترمة. كنتُ أرتجف من الخوف، وقبل أن تلمس أصابعي أزرار ثوبي الساري، تذكرتُ عندما قلتِ لي «لا يحق لأي رجل حتى لو كان زوجكِ أن يجبركِ على معاشرتهِ

رغماً عنك». وقفتُ لمواجهته وخطر في ذهني «سيقتلني الآن، لكن هناك ما هو أسوأ من ذلك». صرختُ في وجهه بتردد «لن أضاجع رجلاً لا يتوقف عن ضربي». تجمّدَ للحظة كالحجر، ثم قال «هكذا إذاً، سنرى»، ثم انقض عليّ ومزق ثوبي بيديه الضخمتين. مازال صوت التمزيق يتردد في أذني. شعرتُ في تلك اللحظة أنه مزق حياتي.

لا أستطيع إخبارك أكثر من ذلك، لأن ما فعلهُ مخجل للغاية. لكن رغم ذلك، تخلصتُ من مشكلة التردد في اتخاذ القرارات وهذا ما كنتُ بانتظاره. لم تعد تهمني مشاعر والديّ. بدأت أنصتُ بهدوء لصوت بكائه وتوسله وهو يضع كمادات الثلج على وجهي «لماذا أجبرتني على فعل ذلك؟». عندما استغرق في النوم، دخلتُ إلى الحمام ووقفتُ تحت الماء الساخن. فركتُ جسمي كله حتى الكدمات. كاد جلدي ينسلخ عن جسدي. راقبتُ المياه الوسخة وهي تتسرب في المصرف. قررتُ في تلك اللحظة الرحيل. حدثت نفسي «إن كان والداي يُحبان ابنتهما بصدق، سيتفهمان الموضوع».

في صباح اليوم التالي، طلب مني عدم الخروج من المنزل، قال إنه سيأتي وقت الغداء ومعهُ مفاجأة لي. كنتُ أعرف مفاجآته «مجوهرات، أثواب ساري، وأشياء ثمينة أخرى». كان يعتقد أن هدايا كتلك ستجعلني أنسى ما حصل. شعرتُ بالاشمئزاز لفكرة أنني سأرتديها من أجله. بمجرد أن اختفت سيارتهُ عن الأنظار، هرعتُ مسرعة إلى كومة الصحف القديمة. في البداية، لم أجد المجلة. كنتُ خائفة. ظننتُ بطريقة ما أنه رآها وتخلص منها، وفي نفس الوقت، أرعبتني فكرة العيش معهُ إلى الأبد.

بحثتُ عنها ثانيةً. أصابني الدوار، وخفتُ أن يعود باكراً. وعندما وجدتُها، ترقرقت دموعي، وبالكاد استطعتُ التكلم على الهاتف. كان المرأة على الخط لطيفةً جداً. هندية مثلي. وقد فهمت الكثير قبل أن أخبرها حتى. أخبرتني بأنني اتصلتُ في الوقت المناسب وأنها ستساعدني في حال كنتُ على علمٍ بما أود القيام به.

حزمتُ أمتعتي وأخذتُ جواز سفري وبعض المجوهرات التي حصلتُ عليها يوم زفافي، إضافةً لبعض النقود المتبقية في المنزل. لم أرغب بلمس أغراضه، لكني عرفتُ أني سأحتاج ما يساعدني على البقاء.

أقلتني امرأتان عند موقف الحافلة ووضعنني في منزلٍ آخر، في بلدةٍ أخرى. لا أعرف ما العمل الآن أيتها الأم المحترمة. لقد منحوني الكثير من الكتب كي أقرأها، والتي تتحدث عن «حقوقي، قصص عن نساء كن مثلي في الماضي، وأصبحن الآن تعشن حياةً أفضل، قصص عن نساء عدن للمنزل، وضُربنَ حتى الموت». أخبروني أنه بإمكاني تقديم بلاغ للشرطة إن أردت وستساعدنني على تأسيس ورشة خياطة لو أحببت. لكنهن أعربن أن الأمور لن تكون سهلة.

هناك نساء أخريات تمكثن معي الآن، بعضهن لا تتوقفن عن البكاء، وأخريات لا تتكلمن مطلقاً. إنهن خائفات من التهم، ومن مغادرة هذا المكان. قامت إحداهن بكسر جمجمتها بمفتاح الرانش. لطالما سمعتُها تصلي، «أيها الإله (**راما**) سامحني لأنني هجرتُ زوجي». غير قادرة على الصلاة حتى. إلى من أتضرع؟ إلى الإله (**راما**) الذي نفى المسكينة (**سيتا**) إلى الغابة، خوفاً من كلام الناس عندما اكتشف أنها حامل، حتى آلهتنا يقسون على زوجاتهم.

وأنا أيضاً ينتابني شعور بالخوف والاكتئاب في بعض الأحيان. لطالما نظرتُ إلى الغرفة التي نتشاركها أنا وامرأتين غريبتين، والتي لا نملك فيها سوى حقائبنا التي أحضرناها معنا. لم يعد هناك ما يسمى بالخصوصية. حمام واحد في المنزل لستة نساء، ملابس داخلية مُعلقة في كل مكان، رائحة دم الحيض، أصبحتُ أفكر بمنزلي المرتب والنظيف وباللحظات السعيدة حين كان زوجي يتصرف بلطف أحياناً ويجلب معه أشرطة فيديو وبيتزا لسهرة يوم الجمعة وكيف كنا نجلس على الأريكة نشاهد أفلام **ديف أناند** ونضحك سوياً. بدأ صوتٌ ما يهمس في عقلي كل يوم «لقد لقنتِه درساً لن ينساه، قد تصبح الأمور أفضل بينكما الآن، هل ستسبب العودة الكثير من المشاكل؟.

حاولتُ طرد تلك الأفكار وتذكرتُ ما قلتِه لي قبل أن أغادر بلحظات. فقلتُ لنفسي «أستحق الكرامة، وبعض السعادة».

ماتاجي (أيتها الأم المحترمة)، صلي لأجلي كي أبقى قوية بما فيه الكفاية وأحصل على ما أريد.

المخلصة ... لاليتا

لاحظتُ بعض الرطوبة على الرسالة. هل كانت تلك دموع الفرح أم الحزن؟ أوه ... عزيزتي لاليتا، أصبحتِ الآن حرّة نفسك، سأصلي من أجلكِ...

«أيتها التوابل وكل قوى العالم، لا تدعوها تستسلم، آه يا ابنتي، إن ممر الولادة ضيق جداً وخانق، لكن ما أجمل الجرعة الأولى من الهواء النقي عندما ينفذ إلى الرئتين بحريّة، أصلّي لكِ كي تعيشي هذه اللحظة»

في هذه الأثناء، قمتُ برش بعض اللوز فوق خليط **تشيافانبراش** (خليط من السكر والعسل والسمن والكشمش الهندي والمربى وزيت السمسم والتوت والتوابل والأعشاب المختلفة) ليمُدَّها بالقوة العقلية والجسدية. سأضعهُ خارج المتجر قرب الباب، لتحملهُ الرياح إلى المنزل المشترك الذي تُقيم فيه حالياً. أجل ... سأفعل ذلك لأجلها، رغم الوقت القصير المتبقي.

فتحتُ الباب لأضع خليط **تشيافانبراش** في الخارج، فرأيتُ **جاغجيت** يقف على العتبة ويحدّق في المُلصق الإعلاني لصالة **كويسي** لتدريب فنون القتال. كان يرتدي سترة من الجلد الطبيعي. **جاغجيت**، الذي لطالما لقّبهُ أصدقاؤه القدامى **بجاغي**.

«شكراً أيتها التوابل، كنتُ على وشك أن أفقد الأمل»

تراجعَ للخلف عندما رآني ووضع يديه في جيوبه، ثم وقف بثبات. **جاغي** اختصاراً **لجاغوار** (النمر) ...

تمهلي قليلاً يا امرأة، يجب ألا تندفعي بهذه الطريقة، قد تتعرضين للأذى.

«ابتسمتُ وكنتُ على وشك أن أخاطبه «إنها عتبة منزلي على كل حال» لكن للأسف، ليس بعد اليوم. فقلتُ بدلاً من ذلك...»

- وأنتَ أيضاً أفزعتني.

- ماذا؟ من قال أنك أخفتني؟

«لفتَ انتباهي القرط الفضي اللامع على أذنهِ عندما حرّك رأسهُ. ثم اقترب أكثر وحدّق في وجهي بتركيز...»

- انتظري لحظة! أنتِ لستِ السيدة العجوز صاحبة المتجر.

«نظر إليَّ نظرات ذات مغزى. **جاغجيت**، الذي لم يبلغ الرابعة عشر بعد، جعلتهُ **أمريكا** يكبر بسرعة فائقة. أخبرتُهُ أنني ابنة أخيها...»

- لكنني أعرفكَ جيداً جاغجيت.

- وكيف تعرفين؟

- طلبت مني عمتي أن أبحث عنك وقالت لي أنكَ شخصٌ طيب ولديكَ الكثير من الفرص لتصبح ما تريد.

- هل قالت ذلك حقاً؟

«ابتسمَ كالأطفال للحظة، ثم انتبهَ لنفسهِ وقطبَ حاجبيه من جديد. لم تخلو أفكارهُ من التخبط. **جاغجيت** يا فاتح العالم ماذا كنتَ تفعل؟ من هو الشخص الذي...

ظهر وجهُ **هارون** في مخيلتي فجأةً، بدا شاحباً تحت الضمادات، لكن لا، لا يمكن أن يكون كذلك. أبعدتُ الفكرة عن ذهني كلياً.

«**تيلو** ... سيحدث ذلك عاجلاً أم آجلاً، الطريق الذي اختارهُ...»

«أردتُهُ أن يدخل المتجر وأشرتُ له بإصبعي إلى لافتات العروض...»

- هل تريد أن تشتري شيئاً؟ يمكنكَ شراء حاجيات والدتك بأسعار منافسة جداً اليوم.

«لكنني أدركتُ فجأةً أنه لم يعد يتبضع لوالدته...»

- لا... كنتُ فقط ماراً من هنا ولم أعلم لماذا توقفت. ربما الملصق الإعلاني هو ما لفت انتباهي.

«حك ذقنهُ باهتمام...»

- هل تحب الكاراتيه؟

«أيتها التوابل، افعلي ذلك، هيا... أرجوكِ...»

- في الحقيقة، لم أجربها من قبل، ومواكبتُها مكلفة كثيراً، إضافةً إلى أن لدي الكثير من الأمور الأخرى لأقوم بها، يجب أن أذهب الآن.

«لاحظتُ أنه يقضي معظم وقته في الأزقة الليلية. فكرتُ بسرعة، مع أنني لستُ جيدة في ذلك، ثم خطرت ببالي فكرة...»

- أوه... كدتُ أنسى، طلبت مني عمتي أن أعطيكَ شيئاً.

- حقاً؟

- أجل، قالت إنه مهمٌ للغاية، تعال معي إلى الداخل لأجدهُ لك.

«تردد قليلاً...»

- ليس لدي الوقت الكافي.

«لكن الفضول استطاع سحبهُ إلى الداخل. فهو لا يزال ولداً صغيراً...»

- حسناً، لدقيقة واحدة فقط.

- أجل... لدقيقة واحدة.

«توجهتُ في عقلي مباشرةً إلى الغرفة الداخلية، وبدأتُ بصياغة الملاحظة التي سأشبكها بكيس النقود».

سأسأل **ريفن** لاحقاً عندما نكون في الفراش، هل تعتقد أني فعلتُ الصواب؟ وجدتُ أنه الحل المثالي، أردتهُ أن يحصل على كل ذلك المال الذي لن أستفيد منه بعد اليوم، لكن مع ذلك يخالجني شعور بالريبة». سيشعر هو أيضاً ببعض الشك، لكنه يريدني أن أكون سعيدة، وبالتالي قد يقول «أظن أنك فعلتِ الشيء المناسب». لكن لن يكفيني رأي **ريفن**، ولن يفارقني الشك «يوجد في ذلك الكيس أكثر من ألف دولار، ماذا لو أنفقهُ على أشياء سيئة، كالمخدرات والأسلحة، بدلاً من التسجيل في مدرسة كويسي؟». عندها سيقول **ريفن** «ثقي به، ثقي بهذا الكون، إنها فرصة لا تعوض، وتشبه إلى حد ما تلك اللحظة التي تعرفنا فيها على بعضنا». هنا ... سيسحب يدي من تحت غطاء السرير، ويُقبِّلُ أطراف أصابعي بحنان. بعد ذلك، سأداعب فكهُ وذقنهُ الناعمة، وأستنشق رائحة بشرَتِهِ المثيرة.

«**تيلو** ... كيف كانت ردة فعله عندما فتح الكيس، قبل أن يخرج من المتجر؟». عندها سأتذكر كيف نظر إليّ بذهول، لم يصدق عينيه «لي أنا؟»، وكيف قرأ الملاحظة مراراً وتكراراً».

«سألني **جاغجيت**...

- هل قرأتِ الملاحظة؟

«اضطررتُ للكذب...»

- لا، يمكنكَ أن تقرأها لي لو أحببت.

- حسناً... مكتوب «إلى **جاغجيت**... فاتح العالم، ليبدأ حياةً جديدة، كن أنتَ المسيطر، لا تدع أحداً يسيطر عليك».

- يبدو ذلك جيداً، عمتي امرأة حكيمة للغاية.

«ابتسمتُ، وأزلتُ الملصق الإعلاني عن الباب ثم حشرتُهُ بين يديه...»

- انطلق أيها البطل.

«لمعت عيناه ببريق لم أره من قبل. تخيلتُهُ وهو يركل ويحارب بشجاعة كالفرسان، ويشطر القرميد إلى نصفين بحافة كفه. ويمارس فنوناً قتالية تُضعف قلوب أعدائه. وتمارين فردية دقيقة مُتقنة كالرقص. ربما يحصل على الشهرة والثروة، كما يحدث عادةً في أفلام **بروس لي**... الانتقال من حياة الماضي التعيس إلى المستقبل المشرق.

لكن مع ذلك، بدا القلق واضحاً على وجهه. **جاغجيت** الذي يعرف مسبقاً أن التغيير قد يُعَرِّضهُ لكثير من المشاكل...

- لا أعرف إن كان أصدقائي سيسمحون بذلك.

«أعطيتُهُ كيساً من حلوى **اللدو**، و**البيسان** (دقيق الحمّص) و**السكّر الصخري**، للحماية، وقوة الشخصية...

- **جاغجيت**؟ كيف ستعرف ذلك إن لم تجرب؟ هذا ما كانت ستقولهُ عمتي.

«ابتسم لي ابتسامةً لم تخلو من بعض الخوف، لكنها صادقة ومتفائلة...»

- اشكريها نيابةً عني، وأخبريها أنني سأبذل كل ما بوسعي.

- أثق بك.

«في ليلتي الأخيرة، سأتلو بعض الصلوات والآمال، وأنا مستلقية في الفراش مع **ريفن**، أتخيل **جاغجيت** وهو يختفي مرة أخرى وسط ضباب الليل. عندها، لن يكون باستطاعتي فعل أي شيء آخر سوى الهمس بتفاؤل «**جاغجيت**، أنا متأكدة أنكَ ستنجح».

جذور اللوتس

انتهى اليوم الأخير، وغادر جميع الزبائن. بيعت كل السلع أو قُدِّمَت كهدايا، باستثناء ما سأحتاجه من أجل نيران **الشمباتي** «ذات اللهيب الأزرق والجمر الأخضر، وصوتها الذي لا يختلف كثيراً عن ترقرق الماء».

ماذا ستفعلين بهذا الجسد الذي قدمتهُ التوابل لك؟ أين ستأخذين هذا القلب كنت قد وعدتُها أن يكون لها فقط؟ هل سأشعر بألم شديد؟.

توقفي **تيلو**... فكري بذلك فيما بعد. أما الآن، جاء الوقتً المناسب لزرع البذرة ـ التي لا تعلمون عنها شيئاً ـ كنت قد أحضرتُها معي ذلك اليوم من مركز **سيرز** التجاري كي أزرعها هنا وأسقيها كل ليلة من نهر الرغبات السرمدي.

ارتديتُ الثوب الأبيض الذي أهداني إياه **ريفن**. بدا كالرغوة البيضاء يحيط جسدي النحيل ووركيَّ الرشيقين وساقيَّ العاريتين. ملأتُ كيساً صغيراً معطّراً من مسحوق **جذور اللوتس** (عشبة الحب طويل الأمد) وربطتُهُ حول عنقي بسلك حريري بحيث تكون الصرّة بين ثديّ الذين يفوحان برائحة المانجو المنعشة.

أصبحتُ جاهزة الآن. دخلتُ لأرى نفسي في المرآة المُعلقة على الحائط. أزلتُ الغطاء عنها... أنا **تيلو** التي خرقت قوانين لا تُعد ولا تحصى. لم أرى وجهي فيها منذ زمنٍ طويل.

«أيتها المرآة... ماذا سأرى حين أقف أمامكِ؟»

دُهشتُ عندما رأيتُ الوجه الفتي الذي كان ينظر إليّ «ملامح دائمة الشباب، جمال يفوق الخيال بفعل القوى العظمى للتوابل. جبين مثالي كورقة **شابلا** (زنبق الماء) متفتحة حديثاً، أنف مُشذب كزهرة السمسم، فم كقوس **مادان** (إله الحب عند الهندوس) شفاه كالفلفل الأحمر المهروس، للقُبُلات الحارّة». رأيتُ وجهاً خالٍ من العيوب البشرية ونقي كلوحة **أجانتا** (قرية أثرية في منطقة **حيدر أباد** قرب بومباي بالهند، تشتهر بكهوفها الأثرية والتي تحتوي على لوحات جدارية مهمة مرسومة ومنحوتة بمهارة فائقة وحس جمالي عالي). العيون فقط كما هي لم تتغير. استطعتُ من خلالها رؤية **نايان تارا**، **وبهاجي أفاتي** (أسمائي القديمة) **وتيلو** أيضاً. عيون واسعة مبتهجة، لكنها تخبرني بما لا يمكن توقعهُ... هل الجمال مخيف أحياناً؟ بالنسبة لي في تلك اللحظة... ربما!.

طرق أحدهم باب المتجر...

تحركتُ كمن تمشي تحت أعماق البحر. أنا التي انتظرتُ هذه اللحظة طويلاً. ها هي تتفجر أمامي الآن كالألعاب النارية في سماء منتصف الليل. ارتعشَ جسدي بالكامل. الرغبة والخوف. لأنني أفعل ذلك ليس فقط لأجل **ريفن**) بل لأجلي أيضاً. تجمدت أوصالي عندما لمستُ مقبض الباب.

«أوه ... **تيلو**! ماذا لو كانت الليلة الحقيقية أقصر من الليلة التي كنتِ تتخيلينها؟ (وهذا هو الواقع). ماذا لو كان هذا الحب بين المرأة والرجل، والشفاه المتلهفة، الأجساد المنصهرة، القلوب المتعانقة، أقل مما كنتِ...؟»

ناداني **ريفن** من الخارج...

- **تيلو**، افتحي.

«لكني حينما فتحت لاحظتُ أنه هو المتجمد ولستُ أنا. حضنتُ وجههُ بيديّ وكلمته بلطف...

- **ريفن**، ما الخطب؟ هذه أنا.

- لم أتوقع وجود جمال كهذا، لا أجرؤ على لمسك.

«سحبتُ ذراعيه وجعلتُهُ يعانقني. كنتُ أضحكُ بقلق...»

- هل جعلكَ هذا الجسد تراني مختلفة؟ ألم تلاحظ بأنني ما زلتُ **تيلو** التي تعرفها؟

«حملقَ بتركيز ثم عانقني بحرارة وبدأ يُمسد شعري الناعم كالشلال...»

- بالتأكيد، لاحظتُ ذلك من عينيك الجميلتين.

- إذاً... خذني معكَ **ريفن**، أريدكَ أن تطارحني الغرام.

«أضفتُ في خلدي... هيا لا تُضيع الوقت».

لكن بقي شيءٌ أخير لم أفعلهُ بعد...

أوقف **ريفن** سيارتهُ بهدوء، فهرعتُ إلى السلالم المظلمة...

- أمتأكدة أنكِ لا تريدينني أن آتي معكِ؟

«أومأتُ لهُ برأسي، وأمسكتُ الصرّة المحشورة بين ثديي بإحكام. تجاهلتُ ما قد يقوله إن علم ما فيها. صعدتُ السلالم اللولبية التي تفوح برائحة تشبه إلى حد ما رائحة الجوارب العتيقة وبدأ صوت صرير يخدش جمجمتي كمسمارٍ صدئ. أيُعقل أن يكون صوت الأم الكبرى، أم أنه صوتي؟ لم يعد هنالك أي فرق على ما أعتقد...»

«**تيلو**، هل تدركين ما تفعلينهُ؟»

«لم أعر اهتماماً لذلك الصوت لأنني لا أعلم ما أقوم به حقاً. فأنا بين الحين والآخر أتخيل هذه اللحظة ويصيبني الدوار كعاقبة على سلوكي الطائش، استبعدت ذلك بصوتٍ مرتفع «العنف لا يُحارب إلا بالعنف، أحياناً ليس هناك حل آخر»، دفعتُ باب شقة **هارون** بعنف، فتح بسهولة. سُررتُ لذلك، لكني غضبتُ لإهمالهِ المتكرر... **هارون**، ألم تتعلم بعد؟

كانت غرفةُ نومهِ مليئة بالأشكال المعتمة «السرير، جسده، جرة ماء، مصباح غير مُضاء، كتاب كان أحدهم يقرأهُ له». كانت الضمادات هي الشيء الوحيد المضيء في الغرفة. تلمع كأنها تحذر من خطرٍ مرتقب.

رأسهُ مُثبَّت بوضعية مدروسة. يبدو أنه كان نائماً. ترددت في إيقاظه، خفتُ أن يصحو متألماً لكني اضطررتُ لإيقاظه...

- **هارون؟**

«تحركَ قليلاً، كمن يستعد للخروج من حلمٍ مثير...»

- سيدتي العزيزة؟

«تلعثم قليلاً، لكنه بدا مسروراً لرؤيتي...»

- وكيف عرفتَني؟

- من طريقة لفظك لإسمي.

«بدا صوتهُ متعباً رغم ذلك ابتسم لي من خلال الظلام...»

لكن صوتكِ مختلف اليوم وأكثر حيوية من قبل.

- هل تحسنت صحتك؟ هل يحضر الطبيب بانتظام للاطمئنان عليك؟

- أجل، إنه لطيف للغاية وكذلك **شمسور** وشقيقته.

«لفظَ كلمة شقيقته بنوع من التوكيد...»

لم يأخذوا قرشاً واحداً مني، كما أنها تطهو لي كل الوجبات يومياً وتغير الضمادات بانتظام وتجلس قرب سريري، لتقرأ لي بعض القصص كي لا أشعر بالوحدة.

«أوه... **حميدة**، هذا ما كنتُ أتمناه»

- **هارون**، ألستَ غاضباً بسبب ما حدث معك؟

«شعرَ بألمٍ في فكه عندما بدأ يتحدث...»

- آه... سيدتي العزيزة، بالطبع، من قال إنني لستُ غاضباً؟ لو استطعتُ القبض على أولئك الشياطين الأوغاد الخنازير، لقمتُ بـ...

«صَمَتَ للحظة محاولاً تذكُرَ ما حدث، كما أنه بدأ يفكر بالمستقبل. ثم أخذ نَفَساً عميقاً...»

لكنني كنتُ محظوظاً رغم كل ذلك. ما تزال الرؤية بالعين اليسرى ضبابية، لكن أخبرني الدكتور **صعب** أنها ستتحسن بإذن الله وبفضل

جهوده. كما حصلتُ على أصدقاء جدد بمثابة أسرةٍ لي. **حميدة البيجوم** (سيدة مسلمة رفيعة المقام) وابنة أخيها الصغيرة بصوتها البريء كصوت **طائر الزرزير** (طائر آسيوي). خططنا معاً للذهاب إلى السيرك حالما تتحسن صحتي.

- **هارون**، جئتُ أودعك.

«حاول النهوض بصعوبة وبحثَ بأصابعهِ عن المصباح الموجود على طرف السرير...»

- كلا **هارون**... لا.

«لكنهُ شغلهُ بسرعة وشهقَ بحدّة من قوة الصدمة، وعانق ضلوعهُ المتشنجة...»

- سيدتي، ما هذا السحر الذي أراه؟ ولماذا؟.

«احمرَّ وجهي من طريقة تحديقهِ ولم أجد الكلمات المناسبة للتبرير. لكن **هارون** بقلبه الجديد استطاع فهم أكثر مما كنتُ أتوقعهُ. لم تخلو كلماتُهُ من الشفقة والقلق...»

آه... وبعد ذلك؟ أين ستذهبين وماذا بشأن المتجر؟

- لا أدري.

«تملكني شعور بالخوف كموجة مالحة غرقت فيها مجدداً، لكن بعمق هذه المرة...»

- أظن أنني سأعود للوطن يا **هارون**.

«أمسكَ يدي برفق. تبادلنا الأدوار. أصبح هو المُعزي الآن...

- ليس لأجلي يا سيدتي العزيزة، بل لأجلكِ أنتِ، من يدري؟ سأدعو الله ليمنحكِ السعادة التي تريدينها.

- معي شيء يجب أن أمنحكَ إياه. بعد ذلك، عليَّ المغادرة.

- انتظري سيدتي العزيزة، لدقيقتين فقط. ستعود **حميدة** قريباً بعد أن تنتهي من طبخ طبقٍ مميز لهذه الليلة، كاري الماعز مع خبز **البراتا الهندي**، إنها طباخة ماهرة، تستخدم البهارات ببراعة فائقة.

«كان فخره وسروره بها ملحوظ...»

ستفرحُ لرؤيتكِ ثانيةً، شرفٌ كبير لنا أن تبقي وتُشاركينا الطعام.

«ثم سألني بفضول...»

- ماذا أحضرتِ لي؟

«فجأةً، عرفتُ ما يجب فعله وسُررتُ لذلك. شعرتُ وكأنني إنسان يقف على حافة الانتحار، وقبل أن يخطو خطوتهُ الأخيرة، يلمع البرق في عينيه عند رؤيته لحافة الموت...»

- في الحقيقة، إنها من أجل **حميدة**، أو بالأصح، لكما أنتما الاثنان.

«خبأتُ الصرّة التي كانت تحوي بعض الفلفل الحارّ خلف ظهري. ونزعتُ كيس جذور اللوتس المُعطر عن رقبتي ووضعتُهُ بين يديه. أوه ... **ريفن** لن أعير اهتماماً للندم الذي قد يخترق قلبي كالضباب العابر...»

ـ عليها أن تضعهُ حول رقبتِها في ليلة الدخلة، لحياة مليئة بالحب والهُيام.

«احمرَّ وجههُ خجلاً...»

بلّغها تحياتي ومباركاتي واعتني بنفسكَ جيداً **هارون**.

- أجل سيدتي العزيزة، لقد تعلمتُ درساً لن أنساه. و**حميدة** أيضاً وبَختني لنفس السبب. من الآن فصاعداً لن أعمل لوقتٍ متأخر، ولن أتجول في أحياء خطيرة ومهجورة ولن أُقلَّ الزبائن المُريبين. كما أعطاني **شمسور** مضرب بيسبول أبقيه قربي في المقعد الأمامي.

«لوّحَ لي مودعاً **خودا حافظ** «بأمان الله». **هارون** الذي أصبح لديه هدف حقيقي للعيش والذي تحقق حلمُهُ (حلم المهاجرين) بطريقة لم يكن يتوقعها».

رَمَقني **ريفن** بنظرة عتاب...

- لقد تأخرتِ كثيراً، ما هذا النور المنبعث من وجهكِ؟

«ضحكتُ وتذكرتُ فتيات (الجهنمية)...»

- **ريفن**، هل أنت غيور إلى هذه الدرجة؟

- هل تلومينني على ذلك؟ انظري لنفسكِ!؟

«تحسسَ خدي بأصابعهِ الدافئة ثم سحبني ليأخذ قبلةً عميقة تقطع الأنفاس. كاد يلمس حنجرتي بلسانهِ، بدأ يتفحص معالم جسدي بإفراط. سألني بجدية:

أعرف أنني أفكر بحماقة، لكنني أشعر أنكِ قد تختفين في أية لحظة وكأننا لا نملك سوى القليل من الوقت.

«حدّقَ مُركزاً في عينيَّ...»

ـ قولي إن ذلك مجرد حماقة.

- كما تريد... إنه مجرد تفكير أحمق.

«نظرتُ إلى أصابعي الوردية التي كانت تتوهج كالشمس...»

- مهلاً، ما زلتِ تحملين تلك الصرّة؟ ظننتُ أنكِ جئتِ إلى هنا لتعطيها لصديقك.

- غيرتُ رأيي، والآن أريدكَ أن تأخذني لنزور مكاناً آخر.

- أوه... لا ليس ثانيةً.

- سيستغرق ذلك بضع دقائق فقط.

- أوه... حسناً، لكن لا تتأخري، اتفقنا؟

«عندما وصلنا، أطفأ **ريفن** محرك السيارة. فطبعتُ قبلةً لطيفة على عينيهِ، وتركتُها تسبح تحت جفونهِ ريثما أعود...»

- لن أتأخر.

«تذمّرَ قليلاً...»

بدأ صبري بالنفاذ.

«ضحكتُ لأنني ولأول مرة في حياتي جعلتُ رجلاً يتكلم بهذه الطريقة»

بدا الرصيف البحري طويلاً تحت الضوء الخافت وبدا لون مياه البحر أسوداً كالليل. أصبحت الصرّة ثقيلة في يدي أو ربما كان قلبي الثقيل هو السبب. تنفستُ بصعوبة، خشيتُ ألا أصل إلى النهاية. عادَ ذلك الشوق

«كان فخره وسروره بها ملحوظ...»

ستفرحُ لرؤيتكِ ثانيةً، شرفٌ كبير لنا أن تبقي وتُشاركينا الطعام.

«ثم سألني بفضول...»

- ماذا أحضرتِ لي؟

«فجأةً، عرفتُ ما يجب فعله وسُررتُ لذلك. شعرتُ وكأنني إنسان يقف على حافة الانتحار، وقبل أن يخطو خطوتهُ الأخيرة، يلمع البرق في عينيه عند رؤيته لحافة الموت...»

- في الحقيقة، إنها من أجل **حميدة**، أو بالأصح، لكما أنتما الاثنان.

«خبأتُ الصرّة التي كانت تحوي بعض الفلفل الحارّ خلف ظهري. ونزعتُ كيس جذور اللوتس المُعطر عن رقبتي ووضعتُهُ بين يديه. أوه ... **ريفن** لن أعير اهتماماً للندم الذي قد يخترق قلبي كالضباب العابر...»

ـ عليها أن تضعهُ حول رقبتِها في ليلة الدخلة، لحياة مليئة بالحب والهُيام.

«احمرَّ وجههُ خجلاً...»

بلّغها تحياتي ومباركاتي واعتني بنفسكَ جيداً **هارون**.

- أجل سيدتي العزيزة، لقد تعلمتُ درساً لن أنساه. و**حميدة** أيضاً وبَختني لنفسِ السبب. من الآن فصاعداً لن أعمل لوقتٍ متأخر، ولن أتجول في أحياء خطيرة ومهجورة ولن أُقلَّ الزبائن المُريبين. كما أعطاني **شمسور** مضرب بيسبول أبقيه قربي في المقعد الأمامي.

«لوّحَ لي مودعاً **خودا حافظ** «بأمان الله». **هارون** الذي أصبح لديه هدف حقيقي للعيش والذي تحقق حلمُهُ (حلم المهاجرين) بطريقة لم يكن يتوقعها».

رَمَقني **ريفن** بنظرة عتاب...

- لقد تأخرتِ كثيراً، ما هذا النور المنبعث من وجهكِ؟

«ضحكتُ وتذكرتُ فتيات (الجهنمية)...»

- **ريفن**، هل أنت غيور إلى هذه الدرجة؟

- هل تلومينني على ذلك؟ انظري لنفسكِ!؟

«تحسسَ خدي بأصابعهِ الدافئة ثم سحبني ليأخذ قبلةً عميقة تقطع الأنفاس. كاد يلمس حنجرتي بلسانهِ، بدأ يتفحص معالم جسدي بإفراط. سألني بجدية:

أعرف أنني أفكر بحماقة، لكنني أشعر أنكِ قد تختفين في أية لحظة وكأننا لا نملك سوى القليل من الوقت.

«حدّقَ مُركزاً في عينيَّ...»

ـ قولي إن ذلك مجرد حماقة.

- كما تريد... إنه مجرد تفكير أحمق.

«نظرتُ إلى أصابعي الوردية التي كانت تتوهج كالشمس...»

- مهلاً، ما زلتِ تحملين تلك الصرّة؟ ظننتُ أنكِ جئتِ إلى هنا لتعطيها لصديقك.

- غيرتُ رأيي، والآن أريدكَ أن تأخذني لنزور مكاناً آخر.

- أوه... لا ليس ثانيةً.

- سيستغرق ذلك بضع دقائق فقط.

- أوه... حسناً، لكن لا تتأخري، اتفقنا؟

«عندما وصلنا، أطفأ **ريفن** محرك السيارة. فطبعتُ قبلةً لطيفة على عينيهِ، وتركتُها تسبح تحت جفونهِ ريثما أعود...»

- لن أتأخر.

«تذمّرَ قليلاً...»

بدأ صبري بالنفاذ.

«ضحكتُ لأنني ولأول مرة في حياتي جعلتُ رجلاً يتكلم بهذه الطريقة»

بدا الرصيف البحري طويلاً تحت الضوء الخافت وبدا لون مياه البحر أسوداً كالليل. أصبحت الصرّة ثقيلة في يدي أو ربما كان قلبي الثقيل هو السبب. تنفستُ بصعوبة، خشيتُ ألا أصل إلى النهاية. عادَ ذلك الشوق

القديم دون أستدعائه، أيتها الأفاعي هل أنتِ...؟

«خرجت الكلمات من فمي كالثلج المتساقط أمام أضواء سيارة انطلقت بسرعة دون أن تترك له أي أثر. أعرف أن الوقت غير مناسب. وقفتُ وسط المياه المظلمة ...

«أنا متأسفة أيتها التوابل»

لكنني في النهاية أصبحتُ أفكر بإيجابية. لقد فعلتُ الصواب. من الأفضل أن يحيا **هارون**، حياةً مليئة بالحب بدلاً من حياة الكراهية والثأر التي ستزيد الأمر سوءاً.

سمعتُ التوابل تؤنبني من بعيد...

ـ كان عليكِ التفكير بذلك من قبل يا **تيلو** والآن بما أنكِ أيقظتنا، علينا استخدام قوانا. شيءٌ ما على وشك الانهيار. هل تعرفين ما هو؟.

ـ أيتها التوابل، ألا تسمعين إنني أنشدُ أغنية الاستجداء؟ أتوسل إليكِ، امنحيني العفو والمغفرة.

ـ لا تسير الأمور هكذا أيتها السيدة المغفلة، هل تظنين أن بإمكانكِ منع الشلال من الانحدار؟ أو منع حرائق الغابات من الانتشار؟ أو كما قال ذلك الرجل الذي ينتظركِ في السيارة «من الصعب الإمساك ثانيةً بطائرٍ أفلتَ من بين يديكِ.

ـ من فضلكِ أيتها التوابل، لا علاقة للأمريكي **ريفن** بالموضوع، إنه بيني وبينكِ فقط.

«بدأت الصرّة تتوهج بين يديّ من الحرارة، أو من الغضب ربما...»

ـ **تيلو**، ما كان عليكِ التلاعب بالقوى السحرية كما يحلو لكِ، سيتسبب الدمار الذي قمتِ به بهلاكِ كل من حولكِ، سيهز زلزال هائل المدينة بأكملها.

ليس لدي ما أقولهُ أكثر من ذلك.

«جفّت شفتاي من خوف حاولتُ تجاهلهُ، لكنني لم أستطع. وضعتُ الصرّة في الماء ودفعتُها بقوة نحو الأسفل. غرِقَت ببطء، محافظةً على

توهجها. عندما اختفت عن ناظري تماماً، تنفستُ الصعداء».

ثم وقبل أن أعود إلى السيارة خاطبت التوابل:

ـ أيتها التوابل، ابدئي بحياتي أولاً، عاقِبيني أنا، أفرغي غضبكِ عليَّ أنا أولاً».

«خرج صوت حفيف مخيف من الأعماق، كالماء المسكوب فوق الحديد الساخن، أو هل كان ذلك مجرد تنهد؟.

ـ **تيلو**... كم أنتِ ساذجة، نحن تماماً كالشلال، كالانهيار الثلجي، كحريق الغابات، لا نعرف الكراهية، بل نقوم بواجبنا فقط.

يسكن **ريفن** في الطابق العلوي من مبنى زجاجي شاهق، بدا لي الأطول في العالم. عندما تحرك المصعد، استطعتُ رؤية المدينة المتلألئة من تحت أقدامنا. شعرتُ بأنني أطير. فتحَ باب المصعد بتباهٍ...

- أهلاً بكِ في منزلي.

«ارتجفَ صوتهُ قليلاً. دُهشتُ عندما لاحظتُ توترهُ. حبيبي الأمريكي. هبت عاصفة هوجاء أو ربما شعور عميق بالحب والرغبة الشديدة. قلتُ لأطمئنهُ...»

- إنه جميل.

«كنتُ أعني ذلك حقاً. الأضواء تحيط بنا من زوايا لم أستطع تحديدها. بساط أبيض ناعم تحت قدميّ. أرائك منخفضة واسعة ملساء من الجلد الأبيض. منضدة قهوة بيضوية من الزجاج. لوحة كبيرة على الحائط، تصف مشهداً لشروق الشمس أو ربما بداية العالم. وعند الزاوية تحت شجيرة عملاقة تمثال **أبسارا** (حورية من حوريات الجنة في الأساطير الهندية). انحنيتُ لألمس الملامح المنحوتة بإتقان. شعرتُ وكأنني ألمس وجهي الجديد الزائف.

لم تكن غرفة النوم أقل رفاهية، سرير مغطى بشراشف حريرية مطرزة بيضاء كالثلج. مصباح أنيق. رف كتب واسع، مليء بالكتب المقروءة في ساعات الليل المتأخرة فقط. حائط خارجي من الزجاج، استطعتُ من خلاله رؤية

الأضواء، التي بدت كثقوبٍ صفراء صغيرة في ظلام الليل ومن بعيد يظهر خليج كاليفورنيا. الديكور الوحيد في الغرفة قطعة قماش مرسوم عليها بالشمع صورة لبوذا، رافعٌ يدهُ الرحيمة الموشومة بزهرة لوتس.

«أوه... **ريفن**، أيها الأمريكي المنغمس بالملذات، لم أكن أتوقع كل هذا»

«قال وكأنهُ سمعَ ما قُلتُهُ في نفسي...»

- لقد قمتُ بتعديلات كثيرة وتخلصتُ من بعض الأغراض القديمة وأنا أتخيل وجودكِ بقربي هنا، هل أعجبكِ الديكور؟

«أجبتُهُ بصوت شبه مسموع...»

- أجل.

«أعجبتني فكرة أن يبني أحدهم منزله، معتمداً على أفكارهِ عني، كما جعلني ذلك أشعر ببعض الذنب».

أضافَ بانفعال...

- مع أن ذلك غيرُ مهم في الحقيقة لأننا سنرحل قريباً جداً.

«استجبتُ بيأس...»

- أجل قريباً.

«أطفأ **ريفن** المصباح وتحت ضوء القمر الفضي البارد شعرتُ بأنفاسهِ حين وقفَ خلفي. كانت رائحة اللوز والخوخ تفوح منه. طوق خصري برقة وهمس في أذني بدفء ... **تيلو**؟

أغمضتُ عينيّ فبدأ يُقبِّلُ أكتافي ورقبتي وعمودي الفقري. استدار لتلتقي عيناهُ بعينيّ، ثم فكَ أزرار فستاني ليسقط على الأرض كالشلال وبدأ يتحسس جسدي بأصابع كالحمامات البيضاء...

- **تيلو**، انظري إليّ، المسيني أنتِ أيضاً.

«لم أقدر على فتح عينيّ من الخجل، لكني حشرتُ يدي تحت قميصه، وتحسستُ جسده القوي الذي بدا ناعم الملمس باستثناء نهايات عظم الترقوة، حيث لاحظتُ وجود أثرٍ لندبةٍ صغيرة مجعدة، ربما أثر من

عـراكٍ قديـم. لكنهـا أيقظـت شـعور بالحنـان لم أكـن أتوقـعُ وجـوده. أنـا **تيلـو** التـي سـعت دائماً للكـمال، اكتشـفت الآن أن للعيـوب جـمال خـاص بهـا أيضاً. قبَّلـتُ الندبـة وسـمعتُ صـوت شـهيقه الحـادّ. بـدأت شـفتاهُ تلتهمنـي مـن كل مـكان وأصبـح لسـانهُ يتزلـج ببراعـة فـوق صـدري. أنـا **تيلـو** التـي لم تكـن تتوقـع أن تتعلـم طُـرق المتعـة بهـذه السرعـة. لم أكـن أدرك أن الشـهوة تسـيطر عـلى الجسـد برمتـه، فتتدفـق المشـاعر كالعسـل الدافـئ لتصـل إلى أصابـع اليدين والقدمين وتتغلغل في مسام الجلد.

أصبحنـا في السريـر الآن لم يعـد وجـود للجـدران. شـعرنا بالنجـوم تتـلألأ فـوق رؤوسـنا. طلـب منـي أن أسـتلقي فوقـهُ، فغطـى شـعري وجهـهُ كجـدولٍ من المياه العذبة...

أحسـنتِ **تيلـو** ... هكـذا يـا عزيـزتي، لا انتظـري... هـذه الوضعيـة أفضـل... أوه... هذا مثير للغاية.

إنـه لا يعـرف أن **المـاكارادواج** (ملـك التوابـل) علَّمَنـي كل شيء قبل حضوري إلى هنا. تفاجأ **ريفن** من خبرتي في ممارسة الحب وضحكَ ضحكةً مكتومة...

ـ **تيلو**؟ ما هذا؟ أنتِ فعلاً...

«لم يتوقف عن اللهاث والاهتزاز».

بدأ التابل يهمس في أذني...

«استعملي كل شيء شفتيكِ، يديكِ، أظافركِ، أسنانكِ، رموشكِ، وتلك النظرات المثيرة في عينيكِ. لا تتوقفي عن الاهتزاز. داعبيهِ بلسانكِ. افعلي كما فعلت المومسات في بلاط **إندرا** (إله الحرب والطقس ورب السماء في الهندوسية).

دعيه يكتشف جسدكِ كما يتم اكتشاف الأراضي والجبال والبحيرات والمدن. دعيه يزور أماكناً لم يزرها أحد قبلهُ. دعيه يدخل إلى أعماق جسدكِ، حيث الكروم الكثيفة والنمور المفترسة وعطر **مسك الروم** (زهرة ليلة الزفاف) المثير.

ـ أليـس الحـب وهـم خـادع تكشـفان بـه عـن أسراركـما، ويمحـي مـن بينكما المسافات

ـ أوه... أيها **الماكارادواج**، لماذا تصفه بالوهم؟ سأبوح له بكل أسراري. أسرار الماضي والحاضر أيضاً.

ـ وماذا عن أسرار المستقبل؟ هل ستخبرينهُ أن هذه العلاقة الجسدية هي الأولى والأخيرة؟ هل ستخبرينهُ عن موعدكِ القريب مع نيران **الشمباتي**؟.

«صرخ **ريفن** من شدة اللذة... **تيلو**»

ازداد انفعالنا وتسارعت ضربات قلوبنا. كدنا نحترق من حرارة الحب. شعرتُ للحظة أن نيران **الشمباتي** ستلتهمُهُ أيضاً. فجأةً، أصبحنا جسداً واحداً، أو ربما أكثر من جسد أو ربما بدون جسد، لا أدري، فقد شوشت الشهوة أفكاري. ثم شعرتُ بالحزن فجأةً، تلاشت حرارة جسدي كما يتلاشى ضوء الشمس عند الغروب. جعلني ذلك أشعر بالقشعريرة، جزءٌ مني بدأ يحتضر وبدأت عظامي تتقلص واختفت النعومة من شعري بشكل ملحوظ. بدأت أعضائي تستعيد شكلها القديم تدريجياً. ترى، هل لاحظ **ريفن** ذلك أيضاً؟ ربما قررت التوابل هجراني.

«**تيلو**، لا تفكري بذلك الآن»

بعد أن انتهينا، تعانقنا تحت غطاء الفراش الأبيض كالإخلاص. كنا نتنفس ببطء. عانقَ كتفي بذراعهِ وكأننا انتهينا للتو من معركة حامية. تقابلت شفاهنا، وهمسنا عباراتَ الغرام بدلالٍ، فلا يمكن سماعها إلا بضربات القلب. استنشقتُ رائحة عرق الحب المنبعثة من جسده وجرت الدماء في عروقهِ بالتزامن مع دمائي. كنا متصلين عاطفياً بانسجام لا مثيل له. ليس هناك أطيب من طعم الحنان بعد قضاء الشهوة. وقبل أن أغرق في أحلامي، سمعتُهُ يقول:

ـ **تيلو** حبيبتي، لا أصدق أننا سنبقى معاً مدى الحياة، ونعيش ليالٍ كهذه». لكني غرقتُ في بحر الأحلام قبل أن أجيبهُ.

ـ آه... يا حبيبي **ريفن**، بما أنكَ تفوقني خبرة بأمور العشق، أريد سؤالك:

ـ عندما تنام في حضن عشيقتك، هل تستطيع مشاركتها أحلامها؟

«لأن هـذا بالضبـط مـا رأيتـهُ خلـف جفـوني المغمضـة» شـجرة **سـكوية** عملاقـة لحائهـا أحمـر وشـجرة **كينـا زرقـاء** بريئـة، سـناجب عيونهـا بنيّـة حريريـة الملمـس، أرضٌ خـضراء نـضرة نعيـش فيهـا إلى الأبـد، فيهـا كهـوف بـاردة في الشـتاء، ودخـان متصاعـد مـن النـيران التـي سـتحمينا مـن البـرد، وشـلالات صامتـة مـن الصقيـع، رمـال ناعمـة في الصيـف تحـت أقدامنـا وأجسادنا العارية أثناء ممارستنا الحب وسط حقول الخشخاش البرّي».

عزيـزي **ريفـن** أدركـتُ الآن أنـكَ عـلى حـق. فالمـكان الـذي تسـميه الجنـة الأرضيـة موجـود بالفعـل وهـو بانتظـاركَ في مـكانٍ مـا. أنـا متشـوقة لرؤيتـه كثـيراً، لكنـي عـلى يقـين بأننـي لـن أسـتطيع الذهـاب إليـه برفقتـك. أنـا **تيلـو**... التي لن تراها بعد اليوم.

تحركَ متذمراً في نومه وكأنهُ يقرأ أفكاري وتمتمَ بكلمة نار.

تجمدت أوصالي... أوه يا حبيبي **ريفن**، إنكَ تشاركني أحلامي؟

اسـتيقظ للحظـة، ابتسـم في وجهـي وهـو نعـس، ثـم داعـب كتفـي ورقبتـي وهمس ـ زهرتي الاستوائية، يا ذات الجمال الهندي الغامض.

ثم غرق في النوم مجدداً، دون أن يلاحظ انسحابي البطيء.

«أيهـا الأمريـكي الوسـيم، مـن الجيـد أنـكَ ذكّرتَنـي قبـل أن أنـسى نفـسي بـين يديـك. لقـد أحببـتَ لـون بَـشَرتي ولهجتي وعـاداتي بما تحملـهُ من سـحر لم تجدهُ في نسـاء بـلادك. جعلتنـي لهفتُـكَ أتحـول إلى امـرأة أخـرى. لا ألومـكَ عـلى ذلـك. لربمـا فعلـتُ الـشيء نفسـه معـك. لكـن كيـف يمكـن لبـذرة الحـب أن تنشـأ في التربـة الخطـأ؟ حتـى لو لم تقـف التوابل عائق بيننا، كنا لنفشـل في كلتـا الحالتين. من يستطيع معرفة ما إذا كنا سنكره بعضنا البعض؟ هكذا أفضل»

مدَّتنـي الفكـرة ببعـض القـوة لأنهـض مـن السرير وأفعـل مـا يجـب فعلـهُ قبـل أن يسـتيقظ. وجـدتُ في درج المطبـخ ورقـة وقلـم. ثـم بدأت...اسـتغرقت كتابـة الملاحظـة منـي وقتـاً طويـلاً، تخـدرت أصابعـي وكادت دموعـي تنهمـر. لم تسـعفني مخيلتـي سـوى بكلـمات تعـبر عـن الحـب فقـط. لكنـي انتهيـتُ

من كتابتها أخيراً. فتحتُ خزانة الحمام وربطتُ الملاحظة بأنبوب معجون الأسنان، كي يستطيع **ريفن** رؤيتها في الصباح.

بعد ذلك، أيقظتُهُ من نومه.

حصل بيننا خلاف. أول شجار بين العشاق. همس صوتٌ (وأخر شجار). طلبت منه العودة إلى المتجر، لكنه عبر عن انزعاجه قائلاً «لماذا لا نبقى معاً حتى الصباح، ونمارس الحب ثانيةً عند الفجر؟»، وأخبرني أنه سيحضر لي الفطور إلى الفراش.

«أوه... **ريفن**، لو تعلم كم أتمنى أن تفعل ذلك»

لكن عند الفجر، عندما تشتعل نيران **الشمباتي**، سواء أحببتُ ذلك أم لا، يجب أن أبتعد عنه. طلبتُ منه ببرود أن يتركني وحدي قليلاً كي أفكر ببعض الأمور...

- هل مللتَ مني؟

«صرختُ في أعماقي... آه **ريفن**، **ريفن** أنت لا تدرك...»

أخبرتُهُ أن هناك أمر مستعجل عليَّ القيام به لكن لا يمكنني شرحه الآن. نظر إليَّ بحزن ...

- ظننتُ أننا لن نخفي المزيد من الأسرار، ظننتُ أننا سنتشارك بكل شيء من الآن فصاعداً، أليس هذا ما وعدتني به؟.

- **ريفن** أرجوك.

- وماذا عن الجنة الأرضية؟ ألن نذهب سوياً للبحث عنها؟

- ولمَ العجلة؟

«خرجت الكذبة من فمي بهدوء، رغم التشنج الذي أصاب معدتي».

تكلمَ بإلحاح ...

- يجب ألا نُضيع المزيد من الوقت، خصوصاً الآن بعد أن وجدنا بعضنا البعض، أنتِ من بين كل الناس، تدركين جيداً أن الحياة قصيرة، هشة، وسريعة الزوال.

«بدأ صدى الكلمة يتردد في عقلي هشة هشة هشة، واستطعتُ رؤية النجوم من النافذة وهي تُفسح الطريق لضوء الفجر...»

- حسناً يا **ريفن**.

«لم أستطع النظر في عينيه مباشرةً...»

يمكنكَ الحضور غداً إلى المتجر لتأخذني معك.

«همستُ في قلبي...هذا إن وجدتَني هناك.

«أعرف أنه لن يجدني»

قاد **ريفن** السيارة بصمت. كان مستاءً، شغّلَ المذياع ليمنع نفسهُ من التحدث. صرَّح مذيعٌ أن الحيوانات في حديقة **أوكلاند** تتصرف بغرابة، تصرخ وتزمجر طوال الليل. وغنّى مطربٌ يملك صوتاً كالقصب وسط الريح، بكلمات تقول إننا لو سافرنا أسرع من سرعة الصوت، سنحترق حتماً.

«يا نيران **الشمباتي**، ما السرعة التي سأسافر بها؟ كيف سأحترق؟»

تخيلتُ ردة فعل **ريفن** عندما يرى الملاحظة التي تركتُها له في الحمام «سيمشي باضطراب في البداية، وبعيون مثقلة من النعاس، وآثار قُبُلات الليلة السابقة بادية عليها، سيفتحُها باندهاش محاولاً إزالة الغشاوة عنها، ليقرأ التالي...

«عزيزي ريفن... أرجوك سامحني. لا أتوقع منكَ فهمي. أريدك فقط أن تصدق أنني لا أملك خياراً آخر. أشكرك على كل ما قدمتهُ لي وآمل أن أكون قد قدمتُ لك ولو القليل من السعادة. لكن للأسف، حبنا لن يستمر أبداً، لأنه كان مبنياً على وهم خادع، نسجناهُ في خيالنا أنا وأنت، لنكتشفَ كيف يكون الشعور عندما نكون هنوداً أو أمريكان. لا أعرف ما هو مصيري ... الحياة أم الموت. لكني سأحتفظ بالعذوبة المؤلمة لذلك الحب إلى الأبد»

السمسم

انتظرتُ **ريفن** ليذهب، كي أفتح باب المتجر. كنتُ خائفة مما ينتظرني من عقاب بسبب فعلتي الأخيرة...سيدة توابل تمارس الحب مع رجلٍ وسيم.

حين دخلت، وجدتُ كل شيء مكانه. فضحكتُ وشعرتُ بخيبة أمل. كنتُ قلقة طوال ذلك الوقت دون أي سبب. ستكون الأمور كما قالت لي الأم الكبرى بالضبط. عندما ستلمس قدمي نيران **الشمباتي**، سأستيقظ على الجزيرة لأحمل أعبائها. سيكون هناك عقاب لا محالة، أدرك ذلك جيداً. ربما مجرد حرق بسيط على الجلد كي أتذكر ذنوبي دائماً، أو ربما جسد هرم أكثر قبحاً من قبل، فيه كل الآلام خصوصاً أنني بدأت أشعر بذلك مسبقاً في عظامي. مشيتُ بين الأقسام التي أصبحت فارغة الآن، لأودع الرفوف، وأتذكر كل اللحظات «هنا قام **هارون** بمدِّ يديه كي أقرأ له طالعه، وهنا انحنت زوجة **أهوجا** لتلقي نظرة على ثوب الساري الملون كثمار **البابايا** الاستوائية، وهنا وقف **جاغجيت** خلف أمه ببراءة، مرتدياً عمامة خضراء كالببغاء». أشعر بأنني بدأتُ أنسى أسمائهم ووجوههم تدريجياً. حتى حزني على نسيانهم بدأ يتلاشى كما لو كنتُ قد رحلت منذ فترة طويلة.

ريفن؟ هل سأنساكَ أنتَ أيضاً؟.

شعرتُ بذلك فقط عندما وقفتُ في منتصف المتجر. إحساس خفيف كتحول الضوء والظل في سماء الليل عندما تختفي النجوم. كانت **تيلو** القديمة لتدرك ذلك فوراً. أصبح المتجر مجرد قشرة خارجية لا أكثر، خرجت منه كل الأشياء التي أعطتهُ الدفء والحياة فيما مضى.

«أيتها التوابل؟ ماذا يعني ذلك؟»

لكن لا أملك وقتاً كافياً للتفكير بذلك الآن. شارف اليوم الأخير على الانتهاء. بدأت أسمع صوت الكواكب وهي تدور بسرعة في الفضاء. شقّت الساعات طريقها في السماء كالصخور المتدافعة. هناك بالكاد وقت لإعداد نار **الشمباتي**.

جمعتُ كل ما تبقى من السلع «توابل، عدس، أكياس دقيق القمح، أرز، باجرا (الدخن الهندي)». ثم صنعتُ محرقة جثث وسط الغرفة ونثرتُ فوقها التابل الذي يحمل اسمي **السمسم**، ليحميني خلال رحلتي الطويلة. ارتعشتُ قليلاً بينما كنتُ أخلع ثوبي الأبيض، فمن المُحرَّم أخذ أي شيء معي من هذا العالم. يجب أن أترك **أمريكا** عارية تماماً، كما كنتُ عندما جئتُ إليها أول مرة.

أصبحتُ مستعدةً الآن، غمرتُ يديّ في كيس **الكركم** (تابل الولادة الجديدة) والذي بدأتُ به هذه القصة، ثم حملتُ الإناء الحجري بقرن الفلفل الحارّ المتبقي فيه، وجلستُ بوضعية زهرة اللوتس (إحدى وضعيات اليوغا) فوق المحرقة المصنوعة من التوابل (بدأت أعضائي تئن احتجاجاً على ما يجري)، وفتحتُ الجرة للمرة الأخيرة وبدأتُ أفرغُ عقلي من كل ما أحببتُه في هذا العالم، عندما أصبح فارغاً ـ هل هذا هو الموت؟ـ شعرتُ بسلام مفاجئ.

أخرجتُ قرن الفلفل الذي تركتُهُ في قاع الإناء من أجل لحظة كهذه وهمستُ كلمات الاستحضار «تعالي يا نيران **الشمباتي** احمليني معكِ بعيداً».

«أيتها الأم الكبرى، هل تغنين في هذه اللحظة بالذات أغنية الترحيب؟ الأغنية التي ستنقذُ روحي عبر طبقات جلدي وعظامي والكلمات المُحرَّمة التي تفصل بين العالمين. أم أن المرض وربما خيبة الأمل جعلك تنسين تلميذتكِ المجتهدة؟»

تملّكني خوفٌ أشبه بخوف طائر من عاصفة مرتقبة. سيشتعل اللهب الآن في أي لحظة...

لكن لم يحدث شيء، يا للعجب.

انتظرتُ قليلاً، ثم همستُ كلمات الاستحضار مرة ثانية وثالثة بصوت مرتفع...

لا شيء...

جربتُ كلمات أخرى بصوت مرتجف وهمستُ ببعض الترنيمات السحرية البسيطة والسهلة... أرجوكِ، أرجوكِ، ماذا يحدث؟.

لكن، ظل الوضع على حاله...

«ما الذي يحدث أيتها التوابل؟ هل هذه إحدى حيلكِ الخبيثة؟»

لم تُجبني...

«أيتها التوابل، بدأتُ أتخيل أنهاراً تجتاز الزمن وأنني تهت في الفضاء وأحرقت النيران شعري، وخدشت النيازك جلدي. أتوسل إليكِ، لا تُطيلي عذابي. ها أنا الآن ذليلة أرتعش من الخوف أخيراً، كما كنتِ تريدين»

عم السكون ليصبح أعمق من قبل، حتى الكواكب توقفت عن الدوران. استطعتُ رؤية عقاب التوابل بحلول ذلك الصمت المُطبق.

تركتني التوابل وحدي هنا وقد حرمتني قواي السحرية. لذلك لن يكون هناك نيران **شمباتي**.

نيران **الشمباتي** التي لطالما أرعبَني منظرها، أصبحتُ أرغب بها الآن أكثر من أي شيءٍ آخر.

«آه أيها الجسد الجميل، يا من تجري الدماء السميكة في عروقهِ ببطء،

أدركتُ ذلك للتو. حُكِمَ عليَّ العيش في هذا العالم القاسي كامرأة عجوز ضعيفة لا تملك القوة ولا الرزق ولا حتى أشخاصاً تلجأ إليهم، أوه... أيتها التوابل، يا من تعرف نقطة ضعفي الوحيدة «الكبرياء». أحسنتِ، إنها عقوبة مثالية فعلاً.فكيف لي اللجوء إلى أولئك الذين ساعدتُهم والذين أُعجبوا بي وبهيبتي كل تلك المدة، وأحبوني لكل ما قدمتُهُ لهم. هل أقف أمامهم بهذا الجسد العاري المتهالك؟ كيف سأتحمل نظراتهم الشفوقة، وما تحمله من نفور قد أراه حين أمدُّ يدي لطلب المساعدة؟ وبالأخص **ريفن**، كيف سأقابلهُ بهذه الحالة؟»

ها هي حياتي تطوى أمام عينيّ كالأزقة التي سأعيش فيها، ضعيفة ومتسولة، تفوح مني رائحة قذرة، يختبئ مني كل من عرفني قبلاً، أحمل وزر حياتي في عربة مسروقة، أنام أمام مداخل البيوت بانتظار من يساعدني.

صرخ كل جزءٍ من جسدي المكروب؛ «من الأفضل لكِ أن تتسلقي عوارض الجسر الذهبية الحمراء وتشعري بالمياه المظلمة فوقك والأعشاب البحرية وهي تلفّ أطرافكِ بإحكامٍ كالأفاعي. من الأفضل لكِ التخلص من هذا الجسد حالاً».

«لا أيتها التوابل، لقد تقبلتُ حُكمك. رغم الخوف والحسرة والعزلة والحب المفقود والقوة التي استحالت إلى رماد، سأحاول العيش بهذه الطريقة إلى الأبد، إن كان هذا ما تريدينه، سأعتبرها كفارتي وسأخضع لها عن طيب خاطر ليس لأنني مذنبة بل لأنني فعلتُ كل ذلك بدافع الحب، هل يُعتَبرَ الحب ذنباً؟ هل سأفعل ما فعلتُهُ ثانيةً؟ بالتأكيد، أعرف أنني سأعبر العتبة المُحرّمة لباب المتجر ثانيةً وأتوجه إلى برج **جيتا** المتلألئ لأعطيها مخلل المانجو وبعض الطمأنينة. وسأمسك يد **لاليتا** بحزم وأخبرها أنها تستحق السعادة وسأمنح **هارون** جذور اللوتس ثانيةً كيْ يحصل على حبٍّ أثمن وأهم من حلم المهاجرين. أجل... سأفعلها ثانيةً وأحول نفسي إلى فتاة أكثر جمالاً وفتنة من **تيلوتاما** راقصة الآلهة، لأُسعِدَ

ريفن. لكن يجب أن أدفع ثمن خرقي للقوانين، لإعادة التوازن، إذا أردنا إسعاد الآخرين، علينا تحمل الكثير من الألم»

تذكرتُ حكايةً من طفولتي المنسية...

«مع بداية العالم وبينما كانت الآلهة والشياطين يسعون للحصول على رحيق الخلود كانوا يمخضون **الهلاهال** «أكثر السموم مرارةً في المحيط البدائي» والذي غطى بدخانه الأرض وجميع المخلوقات التي كانت تحتضر وتصرخ رعباً. ثم اقترب الإله العظيم **شيفا** وشرب القليل منه فاحترق السم الرهيب في حنجرته التي ازرق لونها وبقيت كذلك حتى يومنا هذا، آه... كان شعوراً مؤلماً حتى للإله، لكن ذلك ما ساعد في إنقاذ العالم»

أنا **تيلو**... مجرد امرأة عادية، لستُ آلهة. أجل، أعترف بهذه الحقيقة التي حاولتُ التهرب منها طوال حياتي. ظننتُ في الماضي أنني قادرة على إنقاذ العالم، لكني رأيتُ الآن أنني استطعتُ فقط أن أُسعدَ بعض الأرواح التعيسة. تُرى، هل يكفي ذلك؟!

«أيتها التوابل... سأتحمل لأجلهم كل العقوبات التي ستُنزلينها عليّ. أمهليني ساعة نوم واحدة فقط. ساعة واحدة من السلوان حتى لا أرى جسدي هذا وهو يعود إلى وضعه المشوه كالسابق. ساعة واحدة من الراحة قبل دخولي إلى العالم الشائك الذي ينتظرني على أحرّ من الجمر. فأنا متعبة وخائفة كثيراً»

لم ترفض التوابل طلبي، لذلك استلقيتُ على الأرض للمرة الأخيرة، في وسط المتجر، الذي لم أعد صاحبتُهُ بعد الآن.

أيقظني صوتٌ ما من بعيد، حاملاً معه الحزن والألم كما تحمل الرياح الغبار. شعرتُ أنني غفوت منذ لحظات قليلة فقط، لكنني لم أعد متأكدة من أي شيء. نادى الصوت مرة أخرى **تيلو، تيلو، تيلو**، تُرى، هل كان صوتاً لشخص عرفتهُ وأحببتهُ من قبل؟!

وقفتُ على قدميّ بسرعة فأصبتُ بالدوار. مالت الأرضية قليلاً

وتخيلتُ يداً ضخمة تريد قذفي بعيداً، سمعتُ صوت تصدعٍ عنيف من حولي. أيمكن أن يكون قلبي؟!

لا... لا، إنه المتجر المُشاد من تعويذة التوابل يتصدع كقشرة البيضة. فها هي الجدران تنتفض كالورق الأبيض والسقف يتشقق ببطء والأرضية ترتفع كالموجة، جعلني كل ذلك أجثو على ركبتيّ.

«أوه... أيتها التوابل، لا حاجة لأن تحرميني من ملجأي الأخير بهذه الطريقة، فقد كنتُ أحاول استجماع قواي كي أغادر بإرادتي»

سمعتُ أحدهم يصرخ من بعيد... زلزال...

وقبل أن أستوعب الفكرة، اهتزت الأرض من تحتي ثانيةً وطار شيءٌ ما في الهواء، هل كان ذلك، الإناء الحجري أم لوح المرآة، ليتحطم في وجهي؟ انفجرت نجومٌ حمراء في جمجمتي أو ربما كانت تلك بذور الفلفل الحارّ، لا أدري.

لكن رغم كل الألم واليأس الذي شعرتُ به، عرفتُ أن هذه الضربة لن تقتُلني.

مايا

أخطـأتُ مـرةً أخرى...أنـا ميتـة، أو يمكـن أن أكـون قـد اسـتيقظتُ باكـراً جداً وأنا في طريقي إلى الآخرة؟.

أوه... **تيلو**، لكن هذا الاسم لم يعد لي بعد الآن، هل وثقتُ بكِ لتفشلي مجدداً؟

إذاً، مـا هـذا المـكان الدافـئ والمظلـم كالرحـم والـذي ينبـض بقـوة وسـط الفـراغ؟ تحركـتُ قليـلاً لأرى إن كان ذلـك ممكنـاً. شيء مـا ناعـم كالحريـر يغطي أطرافي، ربما كفن الموت أو ثوب الولادة.

أدرتُ رأسي قليـلًا. كان **نمـر** الأوجـاع ينتظـرني بصـبر ثـم انقـض عـليّ فجـأةً، فصرختُ ألماً. ليس من العدل أن نشعر بألم شديد حتى بعد الموت.

«**تيلـو** التـي لم يعـد اسـمها **تيلـو** بعـدً الآن، منـذ متـى تسـتطيعين الحُكـم على هذا الكون؟ سواء كان عادلاً أم لا؟»

ـ منذ الأزل ... أعترف بذلك.

بدا صوتي خشناً من الضعف. سألني أحدٌ ما...

ـ هل استيقظتِ؟ هل ما زلتِ تشعرين بالألم؟

ـ من؟ **ريفن**؟.

«هل ماتَ هو أيضاً؟ هل قتَلنا الزلزال جميعاً، **هارون** و**حميدة**، **جيتا** وجدّها، **كويسي**، **جاغجيت**، **لاليتا** التي بدأت حياتها الجديدة للتو في بلدة أخرى؟.

«أوه ... أرجو ألا يكون ذلك صحيحاً»

سألني **ريفن**، صوته قادم من زاوية ما في رأسي المتورم...

ـ هل تستطيعين الحراك؟

مددتُ يدي باتجاه الصوت، فلمستُ حائطاً وبَريّاً. ربما كان بطانة التابوت الحجري التقليدي الذي يدفنون فيه العشاق عادةً، ليمتزج رمادهم بعد ذلك حتى نهاية العالم. لكن الفرق هو أن هذا الحائط يحلّق عبر المجرات وينحرف ليتفادى زخات الشُهب التي تعكسُ علينا ضوئها المفاجئ.

سمعتُ صوت زمور سيارة عنيف...

صاح **ريفن**...

- لو أن الناس ينظرون جيداً وهم يقودون سياراتهم، الجميع يتصرف بجنون حال وقوع الزلزال.

«خرجت الكلمات من فمي كالحصى المسطحة، لم يكن بمقدوري التعبير عن مدى ما شعرت به من دهشة. لمستُ أطرافي المغطاة بالأبيض...

ـ **ريفن**، أنا في سيارتك، هل هذا غطاء سريرك؟

«بالرغم من الظلام استطعتُ تحسس الخيوط الحريرية الناعمة للتصميم الزخرفي...»

ـ هذا صحيح، هل تستطيعين النهوض؟ يوجد بعض الملابس بالقرب من رأسك. يمكنك ارتدائها، طبعاً إن رغبتِ بذلك.

«احتفظتُ بابتسامته المشرقة لتتغلغل في جسدي كالضوء تحت الماء وقد مدَّني ذلك بقوة جعلتني أسترخي مترددةً في الخروج من تحت الغطاء. بدا رأسي ككتلة إسمنت مترنحة بين أكتافي المتألمة واستمر النسيج الحريري الثقيل بالانزلاق من بين يديَّ المرتبكتين اللتين نسيتا حركتهما الفطرية أو ربما وددتُ تأخير تعرية هذا الجسد الهرم لأطول فترة ممكنة.

لمستُ بَشَرَتي بحذرٍ شديد. لن يكون هناك أصعب من العودة للقبح مجدداً بعد معرفة طعم الجمال. تُرى، عندما حمَلَني **ريفن** إلى سيارتهِ،

مـا الـذي رآه؟ كيـف كان شـعوره؟ كيـف كانـت ردة فعلـه؟ لم أجـرؤ عـلى مواجهة الفكرة.

لكـن مهـلاً، مـا هـذا؟ لا يوجـد تجاعيـد كالسـابق ولم يكـن الشـعر خفيفـاً لدرجـة الصلـع. كانـت الأثـداء مرتخيـة قليـلاً والخـصر معتـدل. لكـن الجسـد بشكل عام لم يفقد كامل حيويته.

كيف يمكن أن يحدث هذا؟

لمسـتُ وجهـي ثانيـةً لأتأكـد. تحسسـتُ عظـام الوجنتـين والرقبـة والجبـين، لم أجـد أيـة عيـوب. صحيـح أنـه لم يكـن جسـداً فتيـاً بالمطلـق، لكنـه بالمقابـل لم يكن هرماً وضعيفاً أيضاً.

«أيتها التوابل... هذه اللعبة تفوق استيعابي، لماذا لم تُعاقبيني؟ أم هذه فعلتُكِ أيتها الأم الكبرى؟ لكن لمَ كل هذا اللطف مع ابنة مذنبة تستحق العقاب؟»

حلّقـت أسـئلتي عاليـاً في السـماء، وبعـد لحظـاتٍ، هبـط الجـواب وهمـس في أذني بلطف، أو ربما هذا ما تخيلتُهُ وتمنيتُ سماعه...

«يـا مـن كانـت في السـابق عاشـقة للتوابـل... عندمـا تقَبلـتِ عقوبتنـا بـكل رحابـة صـدر، كان ذلـك كافيـاً، وبمـا أنـكِ كنـتِ مسـتعدة لتلقـي العـذاب في خلدكِ فلا داعي أن تخضعي جسدكِ له أيضاً»

«سحبني صوت **ريفن** من دوامة أفكاري...»

ـ يمكنك الصعود بين المقاعد كي تجلسي هنا بقربي.

«انزلقـتُ فـوق المقعـد الأمامـي بارتباك وحدّقـتُ بتركيز في وجهـه الذي بقي عـلى حالـه. شـعرتُ بالخجـل مـن ثيـابي الجديـدة «سروال جينـز مُثبـت بحـزام مشـدود حـول الخـصر وقميص فانيلا كبير جـداً يفوح برائحة شـعره. زيٌّ مختلفٌ تمامـاً عـن ذلـك الفسـتان الرقيـق المتلألـئ كضوء القمـر والـذي ارتديتُـهُ في لقائنا الأخـير. لحسـن الحـظ، كانـت الإضـاءة خافتة في السـيارة. تسـاءلتُ عن السـبب، ثـم لاحظـتُ أن معظـم أضـواء الشـوارع التـي عبرناهـا، كانـت محترقـة. سـألتُهُ بصوت أجش لم يخلو من بعض التردد، لم أدرك في البداية أنه صوتي...»

ـ أخبرني ما الذي حدث؟

«لاحظتُ أن **تيلو** التي تكلمت للتو، مختلفة نوعاً ما عن تلك التي كانت في السرير ليلة أمس...»

ـ بعد أن أوصلتُك إلى المتجر، لم أستطع النوم. كنتُ منزعجاً جداً. بدأت أحزم أغراضي من أجل رحلة البحث عن ذلك المكان. قررتُ الذهاب وحدي في حال رفضتِ مرافقتي. لكني علمتُ أنني لم أكن أعني ذلك. حتى في ذروة غضبي، لم أستطع تخيل مستقبلي دونكِ.

«تدفقت كلماتهُ الدافئة إلى جسدي كنبيذ العسل. وبينما كنتُ أنصت له، كنت أحدق في المرآة الخلفية للسيارة وعندما توقف عند تقاطع أحد الطرق أدرتُها نحوي. طلبت منه بتردد لا يخلو من تبرير...»

- أود إلقاء نظرة.

«أومأ **ريفن** برأسه ونظر إليَّ بعيون متعاطفة. رأيتُ في المرآة امرأة مختلفة تماماً، بوجنتين مشدودتين وحاجبين مستقيمين بينهما بعض التجاعيد وبعض الخصلات الرمادية. لم تكن جميلة ولا حتى قبيحة، لا شابة ولا مسنة، امرأة عادية لا غير. وأنا التي قضيت عمري أهرب من كل الأمور العادية وأسعى فقط للتميز، اكتشفتُ الآن أنها ليست سيئة كما كنت أظن، كما أنها ليست جذابة إلى حد كبير، إنها على طبيعتها وقد تقبّلتُها كما هي، أنا التي جربت الجمال الباهر لليلة واحدة فقط. الحسرة الوحيدة التي شعرت بها هي شعور **ريفن** عندما رآني. كان يراقبني وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة...

ـ هل تعرفين يا **تيلو**... لطالما تخيلتُك هكذا.

«لمس خدّي بأصابعهِ الناعمة. لا أريد شفقةً منه، أجبته بتصنع...»

ـ هذا من لطفك.

ـ لا، لا، هذه هي الحقيقة.

توحي نبرتهُ بأن «صدقيني أرجوكِ»

ـ ألستَ متحسراً على كل ذلك الجمال الذي اختفى فجأةً؟

ـ لا، في البداية ظننتُ أنني سأتحسر، لكن لا، وبصراحة كان مرعباً بعض الشيء، لأنني شعرتُ بأنه عليَّ شد معدتي والوقوف بشموخ كل الوقت. شيء من هذا القبيل.

«ضحكنا معاً ضحكة شخصين لم يناما جيداً وكانا على وشك الموت وقد رأيا في اليوم الأخير أشياءً قد تستغرق عمراً كاملاً لاكتشافها. نظرتُ في المرآة ثانيةً، فلاحظتُ أن العيون بقيت كما هي، عيون **تيلو** التي أعرفها ويعرفها الجميع، والتي لا تزال تلمع من الفضول وحب التمرد والاستطلاع والنضال. جعلتني عيوني أتذكر الملاحظة التي تركتُها في بيته. تذكرتُ أن ما كتبتهُ فيها لم يتغير. سحبتُ يدي التي كان يُقبِّلها...

- ما الخطب يا عزيزتي؟

«بدا قلقاً ومستمتعاً في الوقت نفسه...

- هل قرأت الملاحظة التي تركتُها لك؟

- أجل، لذلك هرعتُ مسرعاً إليك. فقد وجدتُها بينما كنتُ أحزم أغراض الحمام. شعرتُ بالخوف حين قرأتُ أنك سترحلين ولا أعرف إلى أين. شعرتُ وكأنني أقف أمام فراش الموت ثانيةً في غرفة جدّ جدّي وأواجه أحداثاً غريبة تفوق استيعابي. لطالما عرفتُ أنكِ تُخفين عني جانباً ما من حياتكِ لا مكان لي فيه.

- ليس بعد الآن.

«لاحظ **ريفن** الحزن الواضح في صوتي فاقترب ليلمس رأسي...»

- في الجنة التي سنذهب إليها لن تحتاجي لكل ذلك، ستحتاجين لي فقط.

«شدَّ يدي بقوة. لم أجبهُ بنعم أو لا. وبعد لحظات تابع الكلام ...»

عندما قرأتُ ملاحظتك، رجعتُ بذاكرتي إلى تلك اللحظة التي كنتُ جالساً فيها مع أمي في السيارة ولم أتمكن من انتهاز الفرصة بذكاء. شعرتُ بأنني حصلت على فرصة أخرى، فقررتُ هذه المرة فعل الصواب، لذلك

غادرتُ المنزل قبل حزم كل أغراضي، غير مكترثٍ لها. كان عليَّ اللحاق بك قبل أن تضيعي مني للأبد. من الجيد أني فعلتُ ذلك، لأنني بعد أن اجتزتُ جسر سان فرانسيسكو...

«نقرَ المذياع بأصابعه الرشيقة...»

أعلنوا في المذياع عن الدمار الكبير الذي حل بالجسر. فما كنتُ لأعبر بسهولة لو كنتُ على الجانب الآخر من الطريق.

حين اقتربتُ من المتجر أكثر، تملّكني شعور ثقيل بالشؤم، بدأ يكبر مع كل لحظة. فأصبحتُ أقود بسرعة أكبر وكأنني أتسابق مع شيءٍ غير مرئي. لم أعرف لماذا فعلتُ ذلك. لحسن الحظ لم يكن هناك الكثير من السيارات على الطريق السريع. وبعد أن أصبحتُ على بُعدِ بضعة أميال من المتجر، قرب المياه، ضرب الزلزال. بدا ذلك وكأن قبضة عملاقة ضربت بعنف من تحت الأرض، تماماً حيث كنتُ أقف وكأن أحدهم يستهدفني. أعرف أني أفكر بجنون أحياناً. اندفعتُ بعنفٍ نحو الباب من عزم الضربة وفقدتُ إحدى الدواليب، فمالت السيارة. عندها شعرتُ بأن كل شيء سينتهي بلحظة واحدة، صرختُ باللاوعي منادياً اسمكِ مراراً وتكراراً. بطريقة ما انعدلت السيارة في آخر لحظة. ثم لمحتُ موجةً قادمة فوق الجسر، تلمع كالفوسفور وقد ارتطمت بالجسر كالجدار الصلب. كنتُ بعيداً عنها بضعة إنشات فقط. هنا، بدأت يداي ترتجفان دون توقف، بالكاد استطعتُ حمل الدولاب. كان عليَّ الابتعاد عن الطريق، تركتُ السيارة وجلستُ في زاويةٍ أكثر أماناً لمدة عشر دقائق، استمعتُ فيها لصوت الضجيج. كان صوتٌ هدير مرعب من أعماق الأرض، وكأن وحشاً عملاقاً قد استيقظ من نومه. لم أعرف كم من الوقت استغرق كل ذلك، لكن استمرت أصوات الضجيج تتردد في رأسي لبعض الوقت. أعترف لك، لم أخف في حياتي مثلما خفتُ اليوم. لكن عندما فكرتُ بك، عدتُ إلى السيارة. كان شعوراً قاسياً لم تتوقف ساقاي عن الارتعاش، وكأنني انتهيت

لتوي من سباق طويل. لم أستطع التحكم بقدمي فوق دواسة الوقود. استمرت السيارة بالاهتزاز، خفتُ أن أتركها مجدداً، لأنني رأيتُ تشققات كبيرة تمتد عبر الطريق السريع وفجوات تتصاعد منها الغازات دون توقف. وقد انتشرت رائحةٌ تشبه رائحة الكبريت في كل المكان، احترقت العديد من الأبنية، ومن وقتٍ لآخر سمعتُ صوت تحطم زجاج النوافذ، أغلقتُ كل الشبابيك في السيارة، بالرغم من ذلك ما زلت أسمع صراخ الناس وسيارات الإسعاف وصفارات الإنذار. أرعبتني فكرة أنني قد لا أتمكن من عبور الطريق. هل تعرفين بماذا كنتُ أفكر طوال الوقت؟ أرجوك يا إلهي، احمِها بقدراتك اللامحدودة. إن كان أحدنا سيتعرض للخطر، فليكن أنا. لم أفكر بهذه الطريقة العاطفية من قبل.

«اقتربتُ ووضعتُ رأسي على كتفه، وهمست...»

- أقدّرُ ذلك، لم يعاني أحد من أجلي من قبل.

- إنه شعور جديد بالنسبة لي أيضاً. أن أفكر بشخصٍ ما قبل نفسي، بحيث لا أراه منفصلاً عني.

«أسبل رموشه خجلاً. حبيبي الأمريكي، الذي لم يعتاد على قول أمورٍ كهذه. ثم أضاف بلطف...»

أعتقد أن هذا هو الحب.

«الحب، جعلتني هذه الكلمة أتذكّر الملاحظة التي تركتُها في بيته، لكن قبل أن يفسح لي المجال للتكلم، استمر بحديثه...»

أخذتُ طريقاً جانبياً واستطعتُ أخيراً الوصول للمتجر. كان البناء منهاراً بالكامل. لم أجد جداراً واحداً على حاله. وكأن - أعرف أنها فكرة غبية - أحدهم تعمَّدَ فعل ذلك بدافع الثأر والانتقام. على الأقل، لم يكن هناك نيران. لستُ متأكداً تماماً مما فعلتُهُ بعد ذلك. لكنني أتذكر أنني صرختُ كالمجنون منادياً باسمك. حاولتُ طلب المساعدة ولم أجد أحداً. فبدأتُ أزيلُ الحطام بيديّ. كنتَ مستعداً لدفع أي ثمن في سبيل الحصول

على مجرفة. أصبحتُ أشتم وألعن لأني لم أعد قادراً على التحرك أسرع من ذلك. لم أعرف إن كنتُ سأصل إليكِ في الوقت المناسب. كنتُ خائفاً أن تختنقي تحت الأنقاض. سمعتُ عن مآسي كهذه من قبل. أرعبتني فكرة المشي فوق حجر قد تكونين محبوسة تحته، لأسحقكِ دون قصد. وأخيراً، عندما فقدتُ الأمل تقريباً، رأيتُ يداً ممسكة بقرن فلفل أحمر، بدأتُ بإزاحة الأنقاض كالمجنون، إلى أن وجدتُكِ بجسدكِ العاري تماماً... أجل، لم تكوني مرتدية أية ثياب.

«رمقني فيها تساؤل...»

يوماً ما، يجب أن تخبريني ما الذي كنتِ تفعلينهُ.

- أجل، ربما يوماً ما.

- في الحقيقة، لم تكوني كما كنتِ عندما تركتكِ أمام المتجر، ولا حتى عندما كنا في السرير. لكني عرفتُكِ رغم ذلك. لذلك حملتُكِ إلى السيارة، وربطتُكِ جيداً. وتحركتُ بالسيارة نحو الشمال. بقينا فيها لمدة ساعة تقريباً. كان علينا اتخاذ بعض الطرق الالتفافية، فقد لحق ضرر بالغ ببعض أجزاء الطريق السريع. لكننا اقتربنا الآن من جسر **ريتشموند**، هو الوحيد الذي لم يتعرض لأي ضرر. ألا ترين أن للقدر دوراً كبيراً في ذلك؟ يمكننا عبوره، ومن ثم نواصل طريقنا نحو الشمال، لنصل إلى الجنة المنتظرة.

«صَمَتَ للحظة، منتظراً جوابي. لم أنطق بكلمة واحدة، لكني شعرتُ فجأةً بانعدام الوزن، وقد بدا جسدي كعدّاء تعثّر كثيراً لدرجة ظن معها أنه لن يصل إلى نقطة النهاية، لكنه يثب الآن فوق الحاجز الأخير. أوه **ريفن** لقد اتخذتَ القرار نيابةً عني وما تبقى مجرد قَدَر. حان الوقت كي أتقبَّلَ ذلك بكل طمأنينة».

«أنا الفتاة العنيدة التي حاربت مصيرها بكل قوتها طوال حياتها. لكن لا يزال هناك مشكلة واحدة لم أجد لها حلاً بعد. جلستُ باعتدال في ركن السيارة...»

- **ريفن**؟ هل قرأتَ الملاحظة؟

- أجل، طبعاً، ألم أخبرك بذلك؟

- هل قرأتها كلها؟ وبالأخص الجزء الذي ذكرتُ فيه أننا لن نستطيع بعد الآن...

«قاطَعَني...»

- اسمعي، هل يمكننا مناقشة ذلك فيما بعد؟ أرجوكِ، سنجد حلولاً مناسبة لكل تلك العقبات حينما نصل إلى جنتنا الجميلة، أنا متأكد من هذا، ثقي بي.

- لا.

«صرختُ بنبرة جافة وعنيدة وتمنيتُ لو أرضخ بسماحة كما يُطلَبُ عادةً من بقية النساء الهنديات وغير الهنديات اللواتي يتجنبن الصراع. لكني أعلم أنني لا أستطيع ذلك».

«انتبهَ **ريفن** لنظرة عينيّ، فتوقف عند جانب الطريق...»

- حسناً، دعينا نتحدث.

- ألا تدرك ما كنتُ أعنيه؟ ألا ترى أنه لا فائدة من المكابرة؟ في الحقيقة، لم نحب بعضنا يا **ريفن**، بل أحب كل واحدٍ منا الصورة المزيفة للآخر والتي شكّلناها من النقص الذي...

- هذا ليس صحيحاً.

«بنبرة حزينة...»

أنا أحبكِ، كيف تقولين عكس ذلك؟

- **ريفن**، أنت لا تعرف عني شيئاً .

- أعرف قلبكِ يا عزيزتي وأعرف طريقتكِ في الحب. ألا يكفي ذلك؟

- أجل.

«رغبتُ بالبكاء، لكني منعتُ نفسي من ذلك بصعوبة...»

ـ كل الأشياء التي جعلتكَ تنجذب إليّ، كقواي السحرية وأسراري الغامضة

لم تعد موجودةً الآن.

«مدَّ يداهُ لتلامس يديّ...»

- مع ذلك لا زلتُ هنا، أترين؟ ألا يُثبتُ ذلك أنكِ مخطئة؟

«تحركت يداي باللاشعور. متشوقتان للمس يديهِ الدافئتين، لكني سحبتُهما فجأةً وجمعتُهما في حضني. حدّقَ في وجهي للحظات، ثم تنهد...»

- حسناً. ربما كونتُ فكرة خاطئة عنكِ وعن أهل بلادك وربما لا أعرف عنكِ الكثير كما قلتِ، لكن في حال ابتعدتِ عني هل تظنين أن الأمور ستصبح أفضل؟

«لم أنبس ببنت شفة...»

لمَ لا نصارح بعضنا بكل شيء؟ أعدكُ بأنني سأنصتُ لكِ وأنتِ أيضاً، أعرف أنكِ من أكثر الأشخاص خبرة في فن الاستماع.

«عضضتُ شفتي، وبدأتُ أتصارع مع نفسي «قد يكون محقاً».

أرجوكِ يا **تيلو**، أعطني فرصة.

«مدَّ يديهِ ثانيةً، فرأيتُ ما لم أرهُ منذ لحظات... يديه المجروحة وأظافره المكسورة...»

فرصة واحدة فقط... لأجلي.

«أوه ... يا من كانت ولا تزال، **تيلو** الحمقاء، ألا يستحق ذلك أن تعطيهِ فرصة؟

- حبيبي **ريفن**.

«لمستُ يديهِ المجروحتين بشفتيّ. وبعد أن فرغنا من كلام الغزل، وما يقوله العشاق عادةً عندما يشعرون بأنهم على وشك الانفصال، تعانقنا بحرارة لفترة طويلة حتى اتحدت أنفاسنا».

«شغَّلَ **ريفن** محرك السيارة...»

- هناك علبة خرائط قرب قدميكِ، فيها طرق مختلفة باتجاه الشمال حيث الجبال. لِمَ لا تتصفحينها وتختاري الطريق الذي تفضلينه؟

- أنا؟ لكني لا أعرف شيئاً عن هذه الطرق. لن أستطيع التمييز بين الطريق السليم والخطير.

- أثـقُ بحدسـكِ وفي حـال اتجهنـا نحـو الطريـق الخطـأ، سـنحاول مـن جديـد، وسـنواصل البحـث حتـى نجـد جنتنـا، سنسـتمتع معـاً بـكل خطـوة ونحن في طريقنا إلى هناك.

«بـدت ضحكتـهُ كنافـورة ذهبيـة، أشرب منهـا لأروي عطـشي. بـدأتُ أتحسس الخرائط بحذر، فاخترتُ واحدةً استجابت لها أصابعي...»

- أجل يا **ريفن**... معاً.

- أمامنـا محطـة واحـدة أخـيرة «محطـة دفـع رسـوم العبور»بعـد ذلـك، سنصبح لوحدنا أنا وأنتِ والليل.

«عبرنـا الجـسر بسلاسـة. كانـت أضوائـه هادئـة ومطمئنـة كعيـون التوابـل. شـعرتُ بأنهـا تعطينـي الإذن. همسـتُ في قلبـي، أجـل، يمكنـكِ ذلـك ووضعـتُ يـدي عـلى ركبـة **ريفـن**، فابتسـم بينـما كان يسـدد الرسـوم. سـمعتهُ يقـول كلاماً ما للرجل في المقصورة...»

- أوه أجـل، كان ذلـك مروعـاً. الأسـوأ منـذ سـنوات. تسـببت النـيران بـأضرار أكثر من الزلزال.

- هـل جئتـما مـن أوكلانـد؟ يقولـون إنهـا المركـز الرئيـسي للزلـزال، بالقـرب مـن وسـط المدينـة؟ أمـرٌ غريـب، أليـس كذلـك؟ لم يفكـر أحـد عـلى الإطـلاق بوجود تصدع هناك.

«سـحبتُ يـدي للـوراء وكأننـي لمسـتُ شـيئاً حارقـاً، نظـرتُ إلى كفّـي. آهٍ **ريفن**، تعال وانظر إلى خطوط الصدع الحقيقية».

انطلقنـا مـن جديـد، بسلاسـة وسرعـة وثقـة. نظـرتُ نحـو الشـمال حيـث الميـاه المتلاطمـة. أعجبنـي منظـر انعكاسـها المتقطـع والـبرّ المُحـاذي لهـا والجبال مـن وراء ذلـك الـبرّ. تُـرى؟! هـل الجنـة الأرضيـة وراء تلـك الجبـال؟ حيـث الطائـر الأسـود المُعلـق بـلا حـراك، في السـماء الفضيـة، مُنتظـراً وصـول **ريفـن**. لكن هل ينتظرني أنا أيضاً؟

عندما بلغنا الطرف الآخر من الجسر استوقفته واضعة يدي على ذراعه...

- **ريفن**، توقف.

- لماذا؟

«أدركتُ أنه انزعج، يرتاب من سلوكي المفاجئ. لم يرغب بالتوقف، لكنه اضطر لذلك. فتحتُ الباب وخرجتُ بسرعة...»

- ماذا تفعلين الآن؟.

«يعرف مسبقاً، لكنه لحق بي إلى الحافة ونظرنا سوياً عبر المياه إلى الجنوب». رأينا المدينة وقد توهجت بالأحمر وهي تحترق. تمكنتُ تقريباً من سماع صوت النيران وأبواب البيوت وسيارات الإطفاء وسيارات الشرطة والزمامير وصراخ الناس...

- **ريفن**... أنا المسؤولة عن كل ذلك.

- ماذا؟! لا تكوني حمقاء، إنها منطقة زلازل وتحدث هذه الأمور كل بضع سنوات.

«حشرَ يده تحت كوعي محاولاً إعادتي إلى السيارة. يتخيل أننا كنا نمشي سوياً بين الغابات، نستنشق الهواء النقي ونجمع ثمار البلوط لنأكلها والخشب لنُشعلهُ في الليل. ليتني أتوقف عن التفكير بحماقة.

أعرف تماماً رائحة الحريق. فأنا لم أنسَ الحريق الذي أهلكَ أهل قريتي، رغم أنه حدث منذ زمنٍ طويلٍ جداً. اللهب، الدخان الكثيف، رائحة الشياط، هناك رائحة مختلفة لكلِّ شيء تلمسهُ النيران «أغطية الفرش، عربة الدواب، مهد الطفل. «هذا ما نراه في القرى عادةً. بينما يختلف الوضع قليلاً في المدن «الحافلات، السيارات، الأرائك، أرضيات الفينيل، انفجار تلفاز». لكن رائحة اللحم المُتفحم هي نفسها في كل مكان.

حدّق **ريفن** في وجهي بقلق. لمحتُ تجاعيداً جديدة ضيقة وكئيبة حول شفتيه، وتوتراً ملحوظاً في عينيه. ربما كان خائفاً ألا يتحقق حلمهُ بعد كل تلك

المسافة التي قطعناها معاً. تصاعدَ الندم في حلقي كالحمم البركانية...

«أوه ... عزيزي **ريفن**، أقسم أنني أحبكَ أكثر من أي شخص آخر في كل العوالم التي عشتُ فيها. أشعر بأنني مسؤولة أيضاً عن تلك النظرة الحزينة في عينيك «سيكون من السهل أن أدير ظهري لتلك المدينة المشتعلة، أمسكُ يدك كي نحلق معاً عبر الأفق البعيد دون توقف حتى نبلغ سعادتنا. تخيلتُ السيارة وهي تطير كالسهم نحو الفجر، تعكس الشمس الضوء على أجنحتها. لا أنكر أن كل مسامات جسدي متلهفة لتحقيق ذلك، لكن... بالكاد نطقت، شعرتُ وكأنني أسحب عظمةً معقوفةً من حلقي...

- **ريفن**... لا أستطيع الذهاب معك.

«كرهتُ نفسي حين رأيتُ الحزن يملأ عينيه. شدني من كتفيّ بقوة وهزّني كي أستعيد وعيي. وبعد لحظات، أفلتني يائساً...»

- ماذا تقصدين؟

- يجب أن أعود...

- ماذا؟

- أجل... إلى **أوكلاند**.

- لكن لماذا؟

«ارتجف صوتهُ، بدا عليه الإحباط...»

- لمساعدتهم.

- أخبرتك، لستِ المسؤولة عن ذلك. من الجنون التفكير بهذه الطريقة. إضافةً إلى أنهم يملكون العديد من الرجال المدربين للمساعدة في ظروف كهذه، لذلك ستكونين عقبة في طريقهم.

- حتى لو كان كلامكَ صحيحاً. حتى لو لم أكن أنا السبب. لا أستطيع المغادرة قبل مدَّ يد العون لهم.

- قضيتِ عُمرَكِ وأنتِ تقدمين المساعدة للآخرين. ألم يحن الوقت لتعتني بنفسكِ قليلاً؟

«جفَّ حلقُهُ من التوسل. ليتني أستطيع التراجع، لا أظنني أستطيع...»

- أليس كل ما نقوم به ونفعلهُ لأنفسنا في النهاية؟ فعندما كنتُ سيدةً تبيع التوابل...

«لكنه لم يكن مستعداً لسماع المزيد...»

- تباً، تباً...

«ضرب الدرابزين بقبضة يده، وشحبت شفتاه...»

وماذا عن الجنة الأرضية؟

«بصعوبة نطق..»

- استمرَ في البحث عنها، لا داعي لأن تُقلّني، سأركب الحافلة أو سيارة أجرة أو أي شيء آخر.

- إذاً تخليتِ عن وعدكِ لي؟ هكذا بكل سهولة؟

«استشاط غضباً وامتلأ قلبي حزناً. تمسكتُ بالدرابزين جيداً كي أحافظ على توازني».

ـ هل باستطاعتنا نحن العشاق، مهما كنا مغرمين ببعضنا البعض، شرح ظروفنا ودوافعنا؟ هل بإمكاننا المحاولة على الأقل؟

«كنتُ على وشك التذمر، كفى يبدو أنكَ لن تفهم أبداً».

ثم فكرت وحدثت نفسي «لا» عزيزي **ريفن**، لأنني وضعتُكَ مسبقاً في قلبي، عليَّ القول لك بما أؤمن به حقاً، سواء فهمتَ أم لا. صدّقتَني أم لا. لا يهم.

اقتربتُ منه وتحسستُ ذقنهُ الناعمة بأصابعي للمرة الأخيرة. بدا الشعر الجديد عليها كإبر الصنوبر. ظننتُ أنه سيدفعني للخلف، لكنه استرخى قليلاً. أخذتُ نَفَسَاً عميقاً قبل أن أوضح له...

- عزيزي **ريفن**، لن يتغير شيء حتى لو وجدنا المكان الذي حلمتَ به. فلا وجود لجنة أرضية على الأرض، لا شيء سوى السخام والأنقاض والجثث المتفحمة والبنادق والإبر والمخدرات، السجون والمعاناة والخوف والحقد والكراهية، والرجال والنساء الحالمين بالثراء والسلطة.

«أغمض عينيه. لم يعد يرغب بسماع المزيد. الوداع **ريفن**. كل خلية في جسدي تصرخ طالبةً مني البقاء. لكن عليَّ المغادرة، ففي النهاية بعض الأشياء أكثر أهمية من تحقيق الأحلام الشخصية.

استدرتُ كي أعود أدراجي. أنا التي كانت تُدعى **تيلو** والتي تعلمت للتو أن زهرة الحب لا تنمو إلا على شجرة القراص فقط...

- انتظري...

«رمقني بنظرة عميقة لا تخلو من الدهشة...»

أظن أني سآتي معك.

«خفق قلبي بعنف، وكدتُ أفقد توازني. تشبثتُ بالدرابزين كي لا أقع. لم أصدق ما سمعتهُ. هل كانت أذني تخدعني؟ ألا تكفي فكرة أن أقضي بقية حياتي وحيدةً بدون عشيق؟»

أومأ **ريفن** استجابةً للتردد الذي لم أستطع إخفائه...

هذا صحيح، لقد سمعتني جيداً!

ـ هل أنت متأكد؟ سيكون ذلك صعباً. لا أريدكَ أن تندم فيما بعد.

«ضحكَ ضحكةً مجلجلة...»

- في الحقيقة لستُ متأكداً أبداً. على الأغلب سأندم أكثر من مئة مرة قبل أن نصل إلى **أوكلاند**.

- لكن؟

- لكن...

«عانقتُهُ بقوة واقتربتُ من شفتيه فانقض عليَّ وقبَّلَني قبلةً طويلة... سألني بعد أن أخذنا نَفَسَاً طويلاً...»

ـ هل هذا ما كنتِ تعنينهُ عندما تحدثتِ عن الجنة الأرضية؟

«كنتُ على وشك إجابته، لكني لاحظتُ أنه لا يرغب بالحصول على إجابة» بعد قليل... أجبته...

- والآن عليك مساعدتي في العثور على اسمٍ جديد، فقد انتهت حياة

تلك التي تدعى **تيلو**. لن أسمح لكَ بمناداتي بهذا الاسم بعد الآن.

- ما نوع الاسم الذي تريدينه؟

- أريد اسماً يتناسب مع بلادي وبلادك، **الهند وأمريكا**، لأنني أصبحتُ أنتمي لكليهما الآن. هل يوجد اسم يلائمُ الثقافتين؟

«فكّرَ (**ريفن**) قليلاً ...

- ما رأيك بأنيتا، شيلا، ريتا؟

«أومأتُ بالرفض، فاستمرَ في إعطائي بعض الاقتراحات ثم سألني بانفعال...»

- ما رأيك بمايا؟

«مايا، استمعتُ لنغمة الاسم بتركيز واختبرتُ طريقة لفظهِ بلساني. مايا... اسم بارد وعميق...»

ألا يحمل هذا الاسم الكثير من المعاني الهندية المميزة؟

- نعم... تذكرتُ الآن، في اللغة القديمة كان لهذا الاسم العديد من المعاني «الوهم، الخيال، التعويذة، السحر، القوى التي تجعل هذا العالم غير المثالي يسير بانتظام».

ـ أحتاجُ اسماً كهذا. أنا التي لم أعد أملك ما يساعدني على الصمود سوى نفسي.

- وماذا عني؟ هل نسيتِ أنني موجود لحمايتكِ دائماً؟

- بالطبع لم أنسى.

«اتكأتُ على صدرهِ الذي تفوح منه رائحة الحقول المفتوحة. فهمس في أذني ...

- عزيزتي مايا؟

«كم يختلف هذا الاسم عن اسمي السابق، عندما نطقهُ **ريفن**، لم أتخيل جزيرة متلألئة أو تلميذات تجلسن من حولي ولا حتى أماً كبرى تبارك ولادتي الجديدة. مع ذلك، أشعر بأن هذا الاسم لا يقل أهمية وقداسة عن الأسماء السابقة. نظرتُ من وراء كتفهِ بينما كنتُ أفكر بذلك.

كان الدخان الأخضر الرمادي المتصاعد، مُعلّق في السماء كالفطر الطُحلبي وسط غابة محتضرة. لكن مياه الخليج بقيت تتلألأ بلونها الوردي كضوء الفجر. تحركَ شيءٌ ما على سطحها، ظننتُ في البداية أنها مجرد أمواج، لكن لا، شيءٌ آخر ...

- **ريفن**؟ هل تسمع صوتاً؟

- أسمع فقط صوت الرياح عبر العوارض الخشبية يا حبيبتي، ودقّاتُ قلبكِ طبعاً. هيا دعينا نذهب الآن.

«لكني سمعتُ ذلك بوضوح. أصبح الصوت أكثر ارتفاعاً الآن. إنها ثعابين البحر، تُغني لي. بإمكاني رؤية عيونها المتلألئة كالجواهر، تنظر إليّ من خلال بريق الأمواج.»

«أوه ... أيتها الأفاعي، يا من تَبِعَتني طوال حياتي. سأودعكِ مع سؤال واحد أخير:

هل الرحمة في هذا العالم ... سواء حصلنا عليها أم لا، هل سنُحاسب عليها يوماً ما؟»

«همستُ في سري...»

- أنا مايا، أشكركِ من كل قلبي أيتها الأفاعي.

«غمزتني العيون المتلألئة باستحسان وبعد أن توارت الشمس خلف الدخان، اختفت الأفاعي. لكنها لم ترحل إلى الأبد. فهي لا تزال خالدة في قلبي أينما ذهبت

- هيا بنا يا عزيزي **ريفن**.

«مشينا معاً، جنباً إلى جنب، نحو السيارة.»

- النهاية -

رواية ساحرة، محيّرة، مثيرة.«**عاشقة التوابل**» شابة تدعى «تيلو»، ولدت في زمن آخر ومكان بعيد، تدرّبت على فنون تحضير التوابل القديمة، و برعت في ذلك، بعد أن عيَّنَتها الأم الكبرى عضواً فعّالاً من خلال خضوعها لطقوس خاصة وسط النيران المقدسة. أصبحت «تيلو» خالدة الآن تقطن في جسدٍ هرمٍ لامرأةٍ عجوز، تسافر عبر الزمن إلى «أوكلاند، كاليفورنيا» حيث تفتتح متجراً تبيع فيه التوابل كأدوية لعلاج زبائنها. تنشأ خلال ذلك علاقة رومانسية غير متوقعة بينها وبين شابّ أجنبيّ وسيم (العازب الأمريكي)، فتضطر(**تيلو، عاشقة التوابل**) في النهاية إلى الاختيار بين الحياة الروحية الخالدة التي كرستها لخدمة أبناء جلدتها بالاستعانة بالتوابل وبين متطلبات الحياة العصرية الحسية ورغبتها هي كإنسان يحق له الحب والتجربة. كتاب فاتن وآسر تماماً. تروي «**عاشقة التوابل**» قصّةً عن الفرح والحزن، وعن القوى السحرية لامرأة استثنائية.

ISBN 978-9933-607-01-2
789933 607012

دارظما للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - السويداء - الشارع المحوري
هاتف : ٠٠٩٦٣١٦٢٣٠١٦١
تلفاكس: ٠٠٩٦٣١٦٢٢٢٠٩٨
fatenbookshop@yahoo.com